هيـــــــاء

رواية

زينب إبراهيم الخضيري

٢٠١٧م

إلى كلِّ مَنْ يحسُّ أنَّهُ مليءٌ بالآثام.. و وحيدٌ مثلُ أيِّ إنسانٍ مقهورٍ،قد تكون الكلماتُ هنا، امرأةً، رجلاً، أو طفلاً، قريةً، أو روحًا مقهورةً،هي الحياةُ باغترابها وفقْدها.. وهي أكثرُ من ذلك.

سجَّادة صلاة

(١)

الساعة الرابعة صباحًا، استيقظتْ من نومها كمَنْ لدغتْهُ حيَّةٌ، أمسكتْ برأسها وبعينين نصف مغلقتين: يبدو أنَّ هذا الصداعَ يتواطؤ ضدِّي مع الكون، أشعر بضيقٍ شديدٍ، وليس لديَّ رغبةٌ بشيءٍ، ثمَّة أفكارٌ تمزِّق عقلي، وتنهش روحي .

«أحتاج لحضن أمِّي».

أبعدتْ يديها عن رأسها بتثاقل :

(الشوق مثل عقرب الرملً تقرص ما تنشاف) .. «إِيه يُمّه» وأغمضتْ عينيها، وكأنَّها تستحضر كلَّ ذكرياتها معها.

هي ليست كالآخرين.. فليس لديها حساباتٌ خارج بنك مشاعرها، عطوفٌ، وريفيَّة القلب، وكغيرها من النساء تتَّكئ على جدار المهمومين، وجدانها مليءٌ بشتَّى تناقضات الحياة، ولكنَّها امرأةٌ كتومٌ.

«يُخيَّلُ إليَّ أنَّها مثل النخلة التي لا تُخرج ما لديها إلَّا مرَّةً واحدةً فقط في مواسم-الجنْي».

تنفَّستْ بعمقٍ وأسندتْ ظهرها للسَّرير، وقد رفّتْ على وجهها ابتسامةُ ارتياح:» يجيش في صدري حنانٌ مكبوتٌ ...!

آهٍ كلَّما تذكَّرتُ أمِّي !

فالإصغاءُ إليها عندما تُلقي الشعر النبطيَّ وهي تطهو الطعام، يعطيني إحساسًا بأنَّها «أسعدُ امرأةٍ في العالم «.. وعلى الرغم من العذابات التي مرَّتْ بها، واليتم الذي تجرَّعتْهُ، والإهانات التي عصرتْ زهرةَ طفولتها، إلَّا أنَّها ظلَّت قويَّةً وصابرةً وكأنَّ الزمنَ المُرَّ لم يترك بصمتَهُ على قلبها وجسدها.

« أحيانًا أظنُّ أنَّ أمِّي ترسل مودَّتها للكون عبر تسامحها»

أعتقد أنَّ أمِّي كانت من النوع الذي نلتقيه مرَّةً واحدةً فلا ننساهُ أبدًا؛ الحديث معها بلسمٌ يلطّف الروح، دائمًا ما كانت تقول لي كلامًا يشبه السَّكينَةَ عندما تتنزَّل على القلب.

«أشعر بأنَّ أطرافي تشتعل نارًا كلَّما تذكَّرتُ أنَّها رحلتْ، فالحياة بلا أمٍّ موتٌ».

لم أصدِّقْ أنْ يأتيَ اليوم الذي لا أجدها في ذلك الركنِ المنزوي من صالة بيتنا الدافئ ..! في مكان جلوسها المعتاد قريبًا من المطبخ ومن السلَّم المؤدِّي إلى الغرف العلويَّة.. فكلَّما هَبطتُ من الأعلى في آخر اللَّيل يتراءى لي نورُها .. أتعثَّر بها، فأتوقَّف لأستمعَ إليها وهي تهمس بدعواتٍ كالقدر الجميل.

«يا لَصلابة أمِّي! ... أخشى من أنَّها لم تلدْ إلَّا فتاةً ضعيفةً هشَّةً».

أتأمَّل الآنَ ركنها المفضَّل، وسجَّادة الصلاة التي كانت تجلس عليها دائمًا.

«لم تكنْ علاقةُ أمِّي بسجَّادة صلاتها علاقةً عاديَّةً تنشأ بين أيِّ إنسانٍ وقطعةٍ من الأثاث، بل كانت شدَّةُ التصاقها بها مدهشةً»!! أشعر بغرابةٍ؛ لارتباطها بها...!! يبدو أنَّ جسدَ أمِّي لم يطقِ الاقترابَ من أيِّ رجل بعد وفاة والدي... ربَّما حلَّتْ هذه السجَّادةُ محلَّ الرجال عند أمِّي، أو ربَّما لها ذكرياتٌ خاصَّةٌ مع أبي ..!!

«غالبًا ما أحاول اكتشاف سرَّ تعلُّقها غير المفهوم بهذه السجَّادةِ، أحاول فقط».

«الفضول ينهشني لمعرفة أسرار أمِّي التي رحلت، ولم أفهمْها».. مرَّةً جلستُ بجانبها، وأمسكتُ بطرف سجَّادتها.. تحسَّستُها، هي كبيرةٌ نوعًا ما محشوَّةٌ بإسفنجٍ خفيفٍ، لونها أحمرٌ قانٍ.. تتداخل

فيها خيوطٌ بنيَّةٌ غامقةٌ حاكتها إحدى الحرفيَّات بعنايةٍ فائقةٍ على شكل مسجدٍ، وفوقَهُ علامة سهمٍ متَّجهٍ إلى القبلة، و كلَّما دخلتُ إلى المنزل أجدها تفترشها، و تنصب ظهرها على شكل زاويةٍ حادَّةٍ، وتفتح يديها لي، فأرتمي في حضنها ..«الأمان الذي أشعر به وأنا متكوِّمةٌ في حضنها كما يتكوَّم الطفل في حضن أمِّه يجعلني أفكِّر بتخليد هذه اللَّحظاتِ حتَّى لا تتطاير كالهباء».

منذ وعيتُ على هذه الدنيا، وأمِّي في حالة ذهولٍ ودهشةٍ، وتصرُّفاتها غير متوقَّعةٍ «فلا أستغرب منها شيئًا « قد تفاجئني بأغنيةٍ إنجليزيَّةٍ حفظتْها من التلفاز، أو تطبخ لي الأرزَّ الصينيَّ المليء بالبيض والخضار، وكثيراً ما تحبُّ أنْ تشتريَ لي حذاءً جديدًا.. والغريب أنَّها تشتري لي في كلِّ مرَّةٍ موديل الحذاء نفسَهُ، لكن بلونٍ مختلفٍ. وفلسفتها الخاصَّة تقول: «الأحذية مثل الأيَّام صبورةٌ ومتشابهةٌ، ولكنَّها مختلفةُ الألوان».

يا لَفلسفة امرأةٍ عجوزٍ لم تسمعْ عن الفلسفة يوماً !! وفي صدر الصَّالة، وأمام ركن أمِّي تُوجد لوحةٌ مرسومةٌ بشكل متناسقٍ أبدعتها يدُ فنَّانٍ لقريةٍ يحيط بها النخيلُ والماءُ؛ «فعلاقةً أمِّي بالنخيل علاقةُ عاشقٍ ظامئٍ مشبوبِ العاطفة».

سألتُها مرَّةً: في صغرك، ما أكثرُ شيءٍ كنتِ تنتظرينه بشغفٍ؟

شخص بصرُها للأعلى وكأنَّها تراقب بتمعُّنٍ شيئًا لا أراه، وابتسمت حتَّى ظهرت لمعة ضرسها الذهبيِّ وقالت: كنت أحبُّ فرز الرطب، وترصيص التمر مع زوجة أبي لولوة، وكنتُ أتحمَّس كثيراً مع والدي وأنا أشاهده يراقب الفلَّاحين وكأنَّه في معركةٍ، ويردِّد آياتٍ وأذكارًا؛ ليكونَ الموسمُ موسمَ خيرٍ ورزقٍ، فأردِّد معه بصوتٍ عالٍ أهازيجًا، لا أفهم معناها ولكنَّها تطربني.

«لا أستطيع أنْ أنسى أصوات الفلَّاحين وأهازيجهم، وهم يخرفون التمر، فيُخيَّل إليَّ أنَّنا في مواسم الأعراس».

روزالين

(٢)

لـم تكـن نهايـةُ شـهر أغسـطس جيِّـدةً علـى جمـال، فقـد واجـه الكثيـر مـن الضغوطـات في دراسـته، كانـت آخـر سـنةٍ لـه في دارسـة الهندسـة المعماريَّـة، وقـد أرهقـه مشـروع بحـث التخـرج، ومتطلَّبـات الدراسـة التـي لا ترحـم، وقـد قـاده إصـرارُه وجـدُّه ومثابرتُـه و عنـادُه الـذي لا يليـن -إلَّا بتحقيقـه لمـا يريـد- إلـى الالتحـاق بجامعـةٍ في أمريـكا، جامعـة نيويـورك، طمـوح جمـال لا ينتهـي، ولـن ينتهـي حتَّـى يعـوِّضَ جدَّتَـهُ أمينـةَ عـن كلِّ مـا قاسـتْه مـن أجلـه، ويثبـتَ لنفسـه أنَّـه ليـس بحاجـةٍ إلـى أحـدٍ.

رنَّ هاتـف جمـال ... تلمَّـس بيـده الطاولـة المنتصبـة بجانـب سـريره.. أمسـك بهاتفـه وهـو مـا زال مغمـضَ العينيـن:

– مَن المتحدِّثُ؟

– انهـضْ، السـاعة الآن الحاديـة عشـرة، ولـم تذهـبْ إلـى محاضراتـك بعـد !

– سيِّدة روزالين، المحاضراتُ ملغاةٌ هذا اليوم.

– وما السببُ ؟

– احتجاجٌ قام به الطلَّابُ يوم أمسِ.

– ولماذا لم تخبرْني؟

– وماذا يهمُّك .. ؟! أستغفر الله ؛ – حتى هنا الناس يقتلها الفضول–

– ماذا تقول؟

–لا شيءَ ..دعيني أكملْ نومي، فلم أنمْ جيِّدًا ليلة أمس.

– أوكـي ... سـوف أوقظـك بعـد سـاعتين مـن الآن، و سـوف تحدِّثنـي عـن احتجـاج الطـلاب في الجامعـة .

– حاضر.

أغلق جمال الخطَّ، وانقلب على جانبه الأيسر، وابتسامةٌ كلَّلت وجهه، وضع يده تحت رأسه، وانقلب مرَّةً أخرى على ظهره وهو يحملق في السَّقف، وكأنَّ شريطَ حياته قد بدأ بالدوران إلى الخلف ..!

« على الرغم من كلِّ ما واجهتُهُ في حياتي من ظروفٍ ومآسٍ إلَّا أنَّ القدرَ جاد لي ببعض الفرح ... أنْ ألتقيَ الشخصيَّةَ نفسَها بتناقضاتها في جسدين مختلفين، جدَّتي أمينة في الشرق بشعرها الأسودِ، وملامحها المرسومة بفرشاةٍ من حزنٍ، و روزالين في الغرب بأصولها الألمانيَّة، وشعرها الأصفر، وملامحها الحادَّة الواثقة وعقلها الذي لا يتوقَّف عن التفكير».

لمعت عيناه وجلس، ثمَّ تناول الريموت كنترول وفتح التلفاز، وضجَّ صوت فقرات القناة الإخباريَّة CNN في أرجاء الغرفة، بدا وكأنَّه ينصت إلى الأخبار في حين أنَّه مازال يفكِّر :» يبدو أنَّني تغيَّرت جدًّا، فلم يعد قلبي يستجدي أو ينتظر شيئًا ما من أحدٍ ، ولكنِّي لازلت أتجرَّع مصيبة الحرمان، وطفولتي شاهدٌ حيٌّ في ذاكرتي، أتذكَّر أوَّل يوم قدمت فيه إلى نيويورك، كنتُ ممسكًا بورقةٍ صفراءَ صغيرةٍ، مكتوبٌ فيها العنوانُ الذي سوف أذهب إليه في إحدى ضواحي نيويورك، حيث أنا جالسٌ الآن ..بعد خروجي من مطار جون كينيدي JFK أوقفت سيارة تاكسي، وأعطيت السائق الورقة، وقال لي بلهجته الأمريكيَّة السريعة: العنوان بعيدٌ قليلاً من هنا، والوصول إليه سيستغرق ساعة ونصف الساعة تقريبًا.

قلتُ له: ليس لديَّ مشكلةٌ.

ركبتُ معه بعدما رميت حقيبة ملابسي في المقعد الخلفي للسيَّارة، فقد كنتُ مرهقًا من طول الرحلة، ولكنَّ السائقَ سريعُ

الـكلام بـدأ يسـألني أسـئلةً انهالـت علـيَّ كالرصـاص ... مـن أيـن أنـت؟ لمـاذا أنـت قـادمٌ إلـى هنـا؟ وأسـئلةٌ غبيَّـةٌ مـن دون إعطائـي فرصـةً لإكمـال إجابـاتي، أو للاعـتراض علـى أسـئلته، و في النهايـة فهـم تبرُّمـي وعـدم رغبتـي في الـكلام، فـأدار المذيـاع على أغنيـة مـن الـ Rap Music وبـدأ يغنِّـي معهـا، أخـذتُ غفـوةً يبـدو أنَّهـا امتدَّت لأكثـر مـن سـاعةٍ، ولـم أسـتيقظْ إلَّا على صـوت السـائق ذي البشـرة السـمراء والعينيـن اللَّامعتيـن، فتحـتُ عينَّـي ورمقتُـه وقـد ارتسـمت على محيَّاه ابتسـامةٌ كبيـرةٌ أظهـرت أسـنانه البيضـاء، وهـو يقـول لـي:

– نحنُ أمام العنوان.. أووه إنَّه منزلٌ جميلٌ.

– تفضَّلْ ٩٠ دولارًا ... ولكن انتظرْ سوف أتأكَّد من العنوان.

– هههه أنا متأكِّدٌ، ولكن لابأسَ سأنتظرُك.

كانـت دهشـتي عظيمـةً؛ فقـد رأيـتُ منـزلًا جميـلاً تحيـط بـه أشـجارٌ صغيـرةٌ مرتَّبـةٌ ومقصوصـةٌ على شـكل دائريٍّ، وعلى ناصيـة الرصيـف المقابـل للمنـزل (كـوفي شـوب) وبجانبـه شـجرةٌ مقصوصـةٌ على شـكل دبٍّ، وأثنـاء وقـوفي مشـدوهًا وبصـري يجـول في المـكان خرجـتْ مـن المنـزل الأنيـق سـيِّدةٌ كبيـرةٌ في السـنِّ، كانـت تلـوِّح لـي بالتحيَّـة، وتحـرِّك يدهـا وكأنَّهـا ترشـدني للدخـول مـن البـاب الآخـر، التفـتُّ إلـى السـائق وأشـرتُ لـه بـأنْ يذهـبَ، رفـع يـدَهُ لـي مودِّعًـا بضحكـةٍ عاليـةٍ، لـم أفهمْهـا حتَّـى الآن.

اسـتقبلتْني السـيِّدةُ نفسُـها عنـد بـاب المنـزل، ومـدَّت يدَهـا لتصافحَنـي قائلـةً:

– روزالين كروغر.

– جمال عبدالعزيز.

– أهلًا بك، كنتُ أنتظركَ، تفضَّلْ معي.

كانـت السـاعةُ تشير إلـى الثامنـة والربـع مسـاءً، والشـمس لازالـت مشـرقةً وأقـد أعيـاني التعـب والجـوع.

دخلتُ وإذا ممرٌّ تحيط به الأزهارُ، وبجانبه كلبٌ نائمٌ من نوع السوسكس Sussex Spaniel لم أكنْ أعرف أنواع الكلاب قبل وصولي لأمريكا، فهي في ثقافتنا الدينيَّة تعدُّ نجسةً وغيرَ طاهرةٍ، ومحرَّمٌ اقتناؤها إلَّا لحاجةٍ ماسَّةٍ، تعرَّفتُ إليها، وإلى أنواعها من خلال أحاديث السيدة روزالين عنها، وعن مدى لطافتها، وقد كانت تنادي كلبها (فري ثري) وهو اختصارٌ لـ (freedom for third world) بمعنى الحرية للعالم الثالث، وعندما شرحت لي معنى الاسم ضحكتْ ضحكةً هستيريَّةً، وتبادرت إلى ذهني نظريَّة المؤامرة، فما علاقةُ الكلب بالعالم الثالث، وماذا تقصد؟ يبدو أنَّها تتعمَّد إهانتنا، ولكنَّني فيما بعد أحببتُ هذا الكلبَ على الرغم من تخوّفي من اقترابه منِّي في البداية، كان ذا أذنين طويلتين، وفروٍ كثيفٍ يشعر بالدفء، وعندما تتحدَّث عنه السيِّدة روزالين وعن سلالته التي تمَّ استحداثُها في إنجلترا في أواخر القرن السابع عشر الميلادي بغرض المساعدة في أعمال استكشاف الغابات، وصيد الطيور، كنتُ أتصوَّرُه من خلال حديثها وكأنَّهُ أحدَ أباطرة العصور الوسطى !

في ذلك اليوم دخلتُ إلى غرفتي وأنا مرهقٌ تمامًا، وفي أثناء استحمامي سمَعتُ قرع الباب؛ فلبستُ ملابسي وخرجت على عجل، وإذا بالسيِّدة روزالين قد وضعت صينيَّةً مغطَّاةً بفوطةٍ تفوحُ منها رائحةٌ نفاذة، ثمَّ غادرتْ، رفعتُ الغطاءَ فإذا بساندويتش هامبرغر ذي حجم كبيرٍ، وبجانبه الكثيرُ من الفرنش فرايز، وعلبة بيبسي بـ البلوبريّ، وضعتُ الصينيَّة وبدأتُ بالأكل وكأنَّني لأوَّل مرَّةٍ أرى طعامًا، وعندما انتهيتُ قفزتُ على السرير بخفَّة طفل في السابعة من عمره وأنا أردِّد:

هذه أولَى خطوات النجاح، فالنجاح هو أنْ أنامَ مع اليقين كلَّ ليلة، ثمَّ غرقتُ في النوم كمن دخل في غيبوبةٍ أبديَّةٍ.

الشيخة

(٣)

لصباحات يوم الجمعة شجنٌ خاصٌّ في ذاكرتي، أتذكَّر مرَّةً أنَّني نزلتُ في صبيحة جمعةٍ من الأعلى مسرعةً، ووقفتُ وأنا أصفِّق، هيَّا يا أمِّي أريد أنْ نجرِّبَ شيئًا مختلفًا هذا اليوم:

رفعتْ أمِّي رأسها، وبكلِّ حنانٍ جذبتني نحوها برفقٍ، ووضعتْ رأسي على صدرها وعانقتني بسكينة، ثمَّ أدخلتْ أصابعها في شعري الكثيف القصير في محاولةٍ لتصفيفه، وبدأتْ تنسج منه ضفائرَ صغيرةً، وكلَّما اكتملت الضفيرةُ نقضتها، ثمَّ أعادتها مرَّةً أخرى.

على لحن (الهجيني)[1] الذي كانت تتقنه، مردِّدةً:

البارحة دق بي هوجاس — والقلب كنه على ملة
كنه يقلب على محماس — فوحه كما فايح الدلة
من شوفتي كامل الأجناس — يلعب بسيف الهوى و سله
بطنه لبيب كما القرطاس — فتراب ريم على حله
ونهودها بالحشا جلاس — مثل الفناجيل مقتلة
أبو ردوف كما الأطعاس — غب الهماليل مبتلة (٢).

وبعد أنْ أنهت قصيدتها بصوتها العذب الذي يُخيَّل إليَّ أنَّه قادمٌ من الجنة، أشارتْ إليَّ بأنْ أصبَّ لها القهوة « فمتعتها القهوةُ، تحتسيها مليئةً بالهيل، وبالذات من دلَّتها الصفراء» وكلَّما حاولتُ تغيير طقم القهوة كانت تغضب مني !

---

(١) الهجيني: لون من الغناء (الحداء الشعبي) في شبه الجزيرة العربية وبوادي الشام والعراق وسيناء يمكن تأديته بدون مصاحبة أي آلة وألحانه على صوت إيقاع مشي الإبل والقوافل ؛وقد اقتبست لفظة (الهجيني) من مسمى الهجن أو الإبل.

(٢) القصيدة للشاعر عبدالعزيز بن ناصر بن الشيخ.

«يا بنَيَتِي أنا ما أحب القهوة إلا في دلّتي الصفراء»

القهوة يا هياء لها حضورٌ كالضيف العزيز، يجب أنْ نتهيَّأَ لها، ونفردَ لها مكانًا ومساحةً، فهي تشاركنا الحديث والآراء، وكم من قرارٍ مصيريٍّ اتَّخذتُه معها.

يبدو أنَّكِ تعلمتِ فنَّ القصِّ من كثرة مجالستك للقهوة، تتقنينَها وكأنَّكِ تحيكين فستان عرسٍ، تقصِّينها أحيانًا إن طالت وتزيِّنينَها.... !!

(الشيخة) اسم التدليل لأمِّي شيخة، وكلَّما ناديتُها بالشيخة تحمرُّ وجنتاها، وتضحك كأنَّها طفلةٌ في الثامنة من عمرها.

أمِّي تحفظ الكثير من الحكايات والأسرار، أحيانًا لا يظهر عليها الانفعالُ ولاالحماسُ إلَّا عندما تتحدَّث عن طفولتها المسلوبةِ مع والدها القاسي، وموت أمِّها المبكِّر، هي دائمًا تعيد على مسمعي سرد هذه الحكاياتِ، ولكن بصياغاتٍ مختلفةٍ كأنَّها في كلِّ مرَّةٍ حكاياتٌ جديدةٌ، فأمِّي لديها ملكةٌ عجيبةٌ في سرد الأحداث تشدَّ المتلقي مهما تضاءلت أهميَّة القصَّة .

«ولأنِّي أحبُّها، وأحبُّ أحاديثها الودودة فكَّرتُ أنْ أسجِّلَ قصصها على سي دي روم؛ لأحتفظَ بصوتها نديًّا حنونًا، كنتُ أخاف خيانة الأيام».

ومرَّةً في يوم شتويٍّ يهزُّ أوصال الوحدة، ويجلي غيم المشاعر، طلبتُ منها أنْ نخرجَ إلى شرفة المنزل، وأنْ ترويَ لي قصصًا من قصص طفولتها وذكرياتها، فقد كان مزاجُها رائقًا جدًّا وهي تحتسي شرابها المفضَّل الزنجبيل بالزعفران.

« ضحكتْ ضحكة زاهدٍ بالدنيا، وأطرقتْ ممعنةً النظر إلى الأرض كمَنْ يبحث عن شيءٍ ما، في تلك اللَّحظةِ علت جسدي قشعريرةٌ وخوفٌ من شيءٍ مجهولٍ».

اعتدلتْ في جلستها، وارتشفت رشفةً أخرى من الزنجبيل، وضعت يدها على كتفي، وبصوتٍ مبحوحٍ، وكلماتٍ متهدجةٍ، وبحزنٍ دفينٍ وأسًى قالت: «توفّي والدك» ورفعتْ نظرها إليَّ، ثمَّ أكملت:

«كنتُ أتمنَّى ألَّا تجرِّبي اليتمَ مثلي»

وبحركةٍ من اللَّاشعور احتضنتْني، وكأنَّني غائبٌ قد حضر فجأةً، وخيِّل إليَّ أنَّني سمعتُ مزاليج قلبها تفتح، وصوتٌ يتعالى على الخوف الذي بثَّه تصرُّفُها وكلماتُها، أنتِ هنا بأمانٍ... أنتِ هنا بأمان.

ثمَّ التفتتْ ناحية الصورة المعلَّقة على الحائط الرمادي، صورة النخيل وبيوت القرية وأخذتْ نفساً عميقاً ..!

«موت والدك ــ على مرارته و قسوته ــ لم يكن بذلك الرعبِ الذي اعتقدت، ولا تلك الظلمة التي خفت منها، كما لم يكن نهايةَ الحياة، فحينما كنت أضّطجع وأنت في حضني عندما تنطفئ الأنوار، لا أخاف العتمة، ولا تؤرِّقني الوحدة، ويأتيني إحساسٌ بأنَّ وراءَ كلِّ نهايةٍ مظلمةٍ شيئًا مُضيئًا .. ألمح ضوءًا يشعُّ من البعيد لا أعرف مصدره».

برهةٌ من الصمت ضغطتْ فيها على يدي بشدَّةٍ، وعاد صوتُها الحنونُ يبثُّني:

«يتمي بدأ باكرًا جدًّا يا بنتي، كنتُ في السادسة يوم ماتت أمِّي بالجدري مع مَنْ مات من أهالي قريتنا»، لم أكنْ أفهم معنى أنْ تغيبَ أمِّي عنِّي ولا أراها مرَّةً أخرى، ولم أستطعْ تفسير تعابير وجوهٍ باكيةٍ لنسوةٍ لا أعرفهن ..!

خُيِّلَ إليَّ أنَّ الصمتَ يلبس عباءةً ويرهف السمع معي لكلمات أمِّي:

« الحياة لم تكنْ عادلةً معي أبدًا، ولم تحبّني يومًا، فبعد يتم مبكِّرٍ، وزواجٍ اعتقدته سيدوم، ترمَّلت فجأةً، لم أكنْ مهيَّأةً لذلكَ أبدًا».

«أحسستُ ببرودةٍ تسري بجسدي، وحزنٍ جديدٍ لا يشبه الأحزان المعتادة يعتلي قلب أمِّي، يبدو أنَّها تستند على جسد الذكريات الذي يغذِّي واقعها»

«منحتني حكمةُ السماء الكثيرَ من الصبر يا بُنيتي».

فعندما تُوفّي والدكِ حرصتُ ألَّا تشعري باليتم مثلي، فأغدقتُ عليك الحبَّ والحنان، وكلَّ ما تبقَّى لي ممَّا ورَّثَهُ والدُكِ لنا .. لم يكنْ يدور بخلدي أنْ يعيدَ الزمنُ إليَّ قصَّة اليتم نفسَها التي عشتُها، في البداية جزعتُ ولكنِّي تراجعتُ واستغفرتُ الله كثيرًا، ودعوتُه أنْ يمنحَني القوَّة والمثابرة لأتحمَّلَ تربيتكِ بنفسي .

«أتأمَّل أمِّي ... لها ملامحُ عذبةٌ سمحةٌ، وصوتٌ جمع كلَّ سكينة الكون، أمسك بأطرافها المرتجفة بفعل المرض أقبِّلها فجأة، فتتوقَّف أمِّي عن الحديث».

«أحبُّك يا أمِّي، تنظر إليَّ نظرةً تجيش بالحنان وتبتسم، هل ستتركينني أكمل حكايتي ؟! ... موعد صلاة المغرب قَريبٌ».

ابتسمت: حاضر .. يا حلوتي ...أكملي.. «تضحك وتحّمرُّ وجنتاها كلَّما ناديتها يا حلوتي».

«بعد وفاة أمِّي وزواج أبي من لولوة، كان كلُّ شيءٍ في قريتنا قد بدأ يتغيَّر حتَّى الأشجار .. حتى التربة، كانت قريتُنا قريةً صغيرةً جميلةً هادئةً، تقع بين سلسلتين من الجبال في منطقة نجدٍ، وهما (جبال الرمح) الواقعة في شرقها والممتدَّة من الشمال إلى الجنوب، وسلسلة (جبال سهيل) إلى الغرب منها؛ لذلك كانت قريتُنا موقعًا مناسبًا لمجاري المياه وتجمُّع السيول والأمطار،

كما كانت خصبةَ صالحةً للزراعة، وبُعيد مواسم الأمطار بفترةٍ تضوع منها روائح النفل والخزامى، و كان إلى القرب منها روضةٌ تُدعى (روضة الغدير) مليئةٌ بشجيرات الرمث، ونباتات النفل والشرى، وأشجار الطلح، وغيرهاوكانت المزارعُ مسوَّرةً بأشجار الأثل ؛ لتكونَ مصدَّاتٍ للرياح والعواصف الرمليَّة».

«ليتني أستطيع أنْ أريَك بيتنا يا هياء».

– إن شاء الله قريبًا .. وعدتني خالتي موضي أنْ تأخذني إلى هناك.

– خالتك موضي (مت يا حمار لين يجيك الربيع) !!

– سأحاول استعجالها لا تخافي ... !

–أفتقد رائحة منزلنا الطيني.. على الرغم من أنَّ رائحتَه لا زالت عالقةً بأنفي، أشمُّ من خلاله عبقَ أمِّي أو يُخيَّل إليَّ ذلك .. غالبًا ما كنتُ ألعبُ خارج المنزل ولا أعود إليه إلا عند المغيب، كان أبي يوبِّخني فأزداد عنادًا وإصرارًا، كان بيتُنا جميلًا، ولكن يخلو من روح الأُسرة، كان مسقوفًا بجذوع الأثل وفي بعض أجزائه تخالطها جذوع العُشَر و الأثل والعشر ممَّا يُستعاض به عن جريد النخل أحيانًا، وكان الناسُ يبنون بيوتهم بأنفسهم، أو يستعينون ببناء خبيرٍ يساعدهم ، وكان القادرون من أهل القرية يشاركون في البناء .

«كنتُ أمرُّ بجانب الجدار الطيني وأمسحه براحة يدي، أتحسَّس نتوءاته وأشتمُّ رائحته بعد المطر، تمتلئ أظافري بالطين، و أحيانًا أتذوَّقه؛ فرائحتُه شهيَّةٌ ههه».

«أرقب تعابير وجه أمِّي، وهي تتحدَّث عن منزل طفولتها مبتهجةً مبتسمةً، ونظراتُها غارقةٌ في اللَّامكان، وكأنَّها تجتذب شيئًا ثقيلاً من بئر النسيان».

تكمل: كنت ألتقي مع صويحباتي عند شجرة الأثل الضخمة بالقرب من مسجد القرية، على الرغم من أنَّ الكلابَ الضالَّةَ كانت تفسد علينا متعتنا دائمًا بنباحها المتكرِّر، فأختبئ خلف أبي عند خروجه من الصلاة في المسجد».

«نقتعد الأرض تحت الأثلة أنا وصويحباتي، نتبادل الكليجا وبعض الطعام الذي كانت تصنعه أم صويلح، أتحدَّث عن زوجة أبي الصامتة والغاضبة دائمًا،ووالدي الذي يشبه المئذنة بطوله الفارع وصوته العالي، وشخصيَّته التي لا تكترث لأحدٍ، كثيراً ماكنا نسخر من المواقف التي تحصل لصديقتنا (العرجاء) حصَّة التي تعاني من شللٍ في قدمها اليمنى، كانت حصَّة تبكي، فنحاول إرضاءَها بقطعة كليجا تأكلها وحدها دون أنْ نتقاسمَها معها، فقد كنَّا نحبُّها كثيرًا على الرغم من سخريَّتنا الطفوليَّة.

«نظرتُ إلى وجه أمِّي بإمعانٍ، فرأيتُ دمعتين تنفلتان من عينيها الحزينتين... ماذا عساني أنْ أفعلَ لكِ يا أمِّي لتسعدي»...!!

«مالت أمِّي إلى الخلف مستندةً على الجدار، وهي تتحسَّس بيدها أسفل ظهرها، يبدو أنَّ الألمَ ينهش جسدها النحيل .. هي لا تشتكي، كنتُ أدرك بأنَّها تعاني ولكن ....»

استطردتْ في حديثها بكلِّ اهتمام وبنصف ابتسامةٍ مقوَّسةٍ، وهي تفرك فنجان قهوتها بأصابعها الطويلة:

قريتُنا عبارةٌ عن مجموعةٍ من البيوت الطينيَّة الصغيرة المتراصَّة وشبه المتلاصقة، وتفصل بين جدرانها القصيرة أزقَّةٌ ضيِّقةٌ جدًّا، وكنَّا عندما نتزاور تكفينا بضع خطواتٍ لنصلَ إلى الجيران، وكانت القريةُ كغيرها من القرى محاطةً بسورٍ يُسمَّى (سور الحامي)؛ لأنَّه يحميها من اللُّصوص والدخلاء فلم يكن الأمنُ مستتبًّا تمامًا في تلك الفترةِ، ولم يكن الدخولُ إليها أو

الخروج منها إلاَّ من خلال بوَّابتين الأولى تُسمَّى (بوابة الرزق)، والثانية (بوَّابة الشيوخ)، كما كانت تزيِّن سورَها أبراجٌ للمراقبة نسمِّيها المراقيب، وعادةً يُبنى المرقابُ من الحجارة والطين على شكل دائريٍّ يتَّسع من الأسفل، ويضيق من الأعلى، وبه فتحاتٌ وعلَى جوانبه أحجارٌ تُستخدم كسلالم للصعود والهبوط، وكان هناك مّنْ يتولَّى مهمَّة المراقبة، أختي (موضي) تزوَّجت أحد (الرقيبية)، وعمله هو الصعودُ للمرقاب؛ليراقبَ كلَّ ما حول القرية، و ليتأكَّدَ من عدم وجود مَنْ يهدِّد البلد أو المزارع، وعند ملاحظة أيَّة حركةٍ غير طبيعيَّةٍ في محيط البلد أو قريبًا منه ينذر السكان بأنْ يوقدَ نارًا، أو يطلقَ النار من بندقيَّته وهي علامةُ تحذيرٍ من الخطر، فيستعدّ أهالي القرية للتَّصدِّي لأيِّ خطرٍ.

كانَ في قريتنا مرقابان، وهما: مرقب (طويلع)، ومرقب (الدربيل) وزوج أختي موضي في المرقب الشمالي المسمى بمرقب (الدربيل).

«لا أنسى ذلك اليومَ عندما أرسلتني أختي موضي التي تكبرني فقط بسنواتٍ قليلةٍ لزوجها في المرقب، اتَّجهتُ إلى هناك أحمل طعام الغداء له، كنت أغنِّي وأقفز ويبدو أنَّني استفززتُ أحد الكلاب الضالَّة فلحقني، جريتُ وجريتُ ونسيتُ الطريق، كنتُ حافية القدمين كعادة الأطفال، لم أحسّ بقدميَّ فقد أطلقتهما للريح، وجدتُ أمامي بيتًا مهجورًا اختبأتُ في داخله، أمَّا الكلب فقد أكمل جريه وهو ينبح، وعرفت أنَّه ابتعد؛ لأنَّ نباحَه اختفى تدريجيًّا، خرجت من مخبئي لكنِّي لا أعلم أين أنا؟!!، حاولتُ أنْ أتعرَّفَ على الطريق ولكن دون جدوى، وفجأةً سمعتُ صوتًا غريبًا قادمًا من بعيد، أوجستُ خيفةً، ورجعتُ أختبئ داخل البيت المهجور وأنا أتوجَّس وأحاول تحديد جهة الصوت، وقدماي

الصغيرتـان مجروحتـان ويسـيل منهمـا الـدم، بـدأ هديـر الصـوت يقـترب، وبـدأتْ نبضـات قلبـي تتسـارع، أصابني الهلـع ولا أعـرف أيـن أنـا، كنـتُ أتخيَّـل أنَّهـا سـعلوةُ الجبـل التـي كانـوا يخيفوننـا بهـا و سـتعثر علـي وتلتهمني، اقـترب الصـوت واقـترب ثـمَّ توقَّـف فجـأةً، ولـم أجـرؤْ علـى الخـروج أو الحركـة، ثـمَّ سـمعتُ أصـوات أقـدام بالقـرب منِّـي، وعرفـت أنَّهـا لرجليـن مـن خـلال حديثهمـا، الأوَّلُ كان يبحـث عـن مـكانٍ يقضـي بـه حاجتـه، والآخـر مكـث يجهِّـز الطعـام، وبعـد أنْ تنـاولا طعامهمـا اختفـى صوتُهمـا، و عـاد الهديـر المخيـف ذاتُـهُ بقـوَّةٍ، وعـاد إلـى الهلـع، وازداد تسـمُّري في مـكاني واسـتمرَّ الصـوت، اسـتجمعتُ قـوايَ التـي خـارت وتحرَّكـت، فـلا أريـد أنْ أمـوتَ في مـكاني، أردتُ أنْ أسـتنجدَ بالرجليـن، وأخرجـت رأسـي أسـتطلع مـا حولـي فـإذا بالرجليـن يركبـان سـيَّارة (وانيـت فـورد حمـراء) (كانـوا يسـمُّونها هـاف) وضحكـت وهـي تغنِّـي:

يا أهل الفرت الحمر لا تتركوني ركبوني لو على شبك الغمارة

وإن وصلت ديار خلي نزلوني نزلوني بين سدرة والخضارة

ثـمَّ عـادت لتكمـلَ: كان مصـدرُ الصـوت المخيـف هـو هـذه السـيَّارةُ إذن! يـاه، أخيـرًا رأيتهـا.. و كـم تمنَّيـت أنْ أراهـا وأركبَهـا مـن أحاديـث والـدي عنهـا حيـث كان يرغـب بواحـدةٍ؛ ليتسـنَّى لـه بيـع الرُّطـب والتمـر في المدينـة، ومـا منعـه إلَّا ثمنُهـا الغالـي- كمـا كان يقـول- وضيـق الحـال.

وبعـد ذهابهمـا افترشـت الأرض علـى مدخـل المنـزل ألتقط أنفاسـي فأخـذني التعـب ونمـتُ، ومـا صحـوتُ إلَّا وقـد شـارفت الشـمس علـى المغيـب، كنـتُ تائهـةً خائفـةً، وأردِّد لا أريـد أنْ أمـوتَ هنـا، وإذا بأصـواتٍ تتعالـى: شـيخة.... شـيخة..... شـيخة فقـز قلبـي مـن مكانـه! ميَّـزتُ صـوت والـدي مـن بيـن كلِّ الأصـوات، خرجـت مـن

مخبئي أركض وقدماي تؤلمانِي، اتَّجهت ناحية الصوت، ناحية والدي، أخذني بين ذراعيه، وضمَّني بقوَّةٍ: «أحسبه أكلتس الذيب يا بنيتي».

«يبدو أنَّ أمِّي تستحضر زمنًا جميلًا وغامضًا تلوذ به كلَّما عصفت بها يد الحنين، تموج حياتها بذكرياتٍ متداخلةٍ، تمرُّ بلوعةٍ و شيءٍ من بريق الحبِّ».

قلت لها: لماذا لم يتبقَّ لكِ صديقاتٌ غير خالتي موضي حتَّى الآن ..! »

-الله أخذ أمانتهن، الله يرحمهن جميعًا، إلا حصَّة أتمنَّى أنْ أعرفَ ماذا حصل لها وأين هي الآن»..!

علت وجهَها الوضَّاءَ ابتسامةٌ، وأكملت: كان أطفال القرية يعيِّرونني وينادونني بصديقة (العرجاء)، كنَّا كلَّما مررنا بعجوزٍ اتَّخذتْ ظلَّ شجرةٍ على طرف أحد الأزقَّة شتمتنا، وهي تردِّد: (العويرا والزويرا واللي ما فيها خير)، فنحثو عليها التراب ونهرب، وأنا ممسكةٌ بيد حصَّة التي لا تقوى على الجري مثلي.

حصَّة ابنة عمدة القرية الذي استولى على نصف أرض جدِّي بالاحتيال كما كان يُقال، أصابها شلل الأطفال في سنواتها الأولى نتيجةَ عدم توفُّر الطبابة وعدم الوعي في ذلك الوقت، حالُها كحال الكثيرين من الأطفال في زمننا !

كنا نخرج ونجتمع كلَّما كان القمرُ بدرًا، نفرش منديلاً على الأرض ونتبادل الأمنياتِ، كانت أمنيتُها أنْ تسيرَ بقدمين ثابتتين معتدلتين، والركض كباقي الأطفال .

وفي مرَّةٍ اجتمعنا نحن الفتيات، ولكنَّ حصَّةَ لم تأتِ، انتظرناها في اليوم التالي كذلك لم تأتِ، واستمرَّ غيابُها وانقطاعُها، ولمَّا أصابني الخوف والقلق عليها، اتَّفقت مع الصويحبات على الذهاب إلى منزلها للسؤال عنها.

طرقنا الباب، فتحت لنا والدتها.

ـ وين حصيصة يا عمَّة، فقدناها ما عاد نشوفها؟

قالت باقتضابٍ: تزوَّجت .!!

وأغلقت البابَ بشدَّةٍ!

«يا إلهي ..لم أفهمْ ماذا يعني أنْ تتزوَّجَ وهي في هذه السنِّ الصغيرة، خُيِّل إليَّ أنَّها ماتت»

فيما بعد قالت لي موضي: إنَّ حصَّةَ زوَّجها والدُها من رجل مسنٍّ، ولكنَّه ثريٌّ، وبكت حصَّة الصغيرة كثيرًا، لم تكن تدرك ماً هو الزواج، كانت فقط تريد علاجًا لرجلها المشلولة، لم يستمعْ إليها والدها ولا ألقى بالًا لتوسُّلاتها أبدًا، تزوَّجت وانتقلت إلى قريةٍ أخرى، ولم أسمع عنها شيئًا بعد ذلك.

«لا تعلمين يا هياء كم افتقدْتُها، وكم دعوتُ الله تحت الأثلة بينما الدموع تتدحرج من عيني أنْ تعودَ حصَّة، ولكنَّ الراحلين لا يعودون حتَّى الأحياء منهم».

«لم أرتحْ مع صديقةٍ أخرى بعدها؛ فالحياة تمدُّ لسانها لي دائمًا هازئة، وبطبيعتي المتطلِّبة لم أكنْ أتقبَّل أحدًا بسهولةٍ «..!

«قطع حديثها صوتُ المؤذِّن الرخيمُ، وبدأت أمِّي تردِّد الآذان معه وتكبِّر وتهلِّل، وأشارتْ إليَّ أنْ أمسكَ بيدها لتقومَ وتتوضَّأَ لصلاة المغرب».

عادت والدتي من دورة المياه وأنا جالسةٌ أشرب الشاي، نهرتْني وأشارت بيدها أنْ أقومَ لأصلِّي، هي لا تعلم أنَّني منذُ زمنٍ وأنا أجمع صلاة العصر مع المغرب، ولا أعلم لماذا؟! عندما كنت أنشغل في المدرسة، وآخذ عملي إلى البيت كنتُ أغرق في العمل، ولا ألتفت للسَّاعة إلَّا وقد تجاوزت التاسعة مساءً، فصارت عادةً لي أنْ أجمع َالصلاة، أحيانًا كنتُ أنامُ قُبيل

صـلاة المغـرب وأصحـو في الثانيـة صباحًـا، فكنـتُ أجـدُ في نفسـي عـذرًا ومـبررًا للجمـع بيـن الصلـوات !

كيف يُمكنني أنْ أعودَ لطبيعتي وأصلِّي الصلوات في وقتها ؟!

شرق وغرب

(٤)

حياتي التي سُحب منها عصبُ القبول و التسامح كانت سببَ إصراري ـ على الرغم من كلِّ المعوقات وضيق ذات اليد ـ على السفر وترك جدَّتي وبلدي وعملي لإكمال دراستي.

في صغري لم يتقبَّلني زملائي في المدرسة؛ بسبب لهجتي المختلفة قليلاً عنهم، وكانوا يسخرون حتَّى من اسمي (جمال)، وعلى الرغم من أنَّني ابنُ جلدتهم إلَّا أنَّهم لم يتقبَّلوني ولم يصدِّقوني، وبقيتُ ذلك الأجنبيَّ الغريبَ عنهم وكان بعضُالمدرِّسين قساةً معي، فلم يرحموا قلَّة حيلتي، و لا يتمي، ولا فقري. خاصَّة مدرِّس اللُّغة العربية في المرحلة الابتدائية، كان يضربني كلَّما نطقت جملةً خاطئةً، وكثيرًا ما توعَّدني، وهدَّدني، وطلب حضور وليّ أمري عمِّي أو خالي!

ولم أستطعْ إخبارَهم ألَّا أحدَ لي في بلدي وبلد والدي غيرُ جدَّتي (المقيمة)، لم أستطعْ إخبارَهم بأنَّني لا أعرف والدي أبدًا، ولا أحدًا من أقربائي المفترضين!

لم يكنْ لي أصدقاءٌ كثيرون، أو رفاقٌ مثل غيري، المتعاطفون معي كانوا قلَّةً قليلةً! أنا الآن رجلٌ ناضجٌ، تخطَّيت سنواتِ المراهقة المُرَّةَ، ولنْ أسمحَ لأحدٍ بإهانتي بعد اليوم!

قدِم جمالٌ إلى نيويورك، والتحق بالجامعة، كان يدرس،وفي الوقتِ نفسِهِ انهمك بعمل بحوثٍ وواجباتٍ للطلاب الخليجيين؛ لتوفير النفقات وأموره الحياتيَّة، كانوا يدفعون له بسخاءٍ، حيثُ كان يقسِّم يومه بين المذاكرة وعمل البحوث والواجبات؛ ونظراً لتفوُّقه حصل على منحةٍ من الجامعة فانزاح عنه حملٌ ماديٌّ كبيرٌ.

اعتادَ جمالٌ أنْ يجلسَ مع السيِّدة روزالين في أوقات فراغه

ويتبادلانِ الحوار حتَّى يقوِّيَ لغته الإنجليزيَّة، ويتعرَّفَ أكثر على أمريكا وثقافتها، وأيضًا لأنَّ روزالين كانت ثروةً معرفيَّةً بالنسبة له، كانت حواراتُها غالبًا تدور حول أوضاع الشرق الأوسط، وأخبار القتل التي لا تنتهي، والفقر، والتلوث، والاستبداد، وكانت كلَّ يوم تتأسَّف على ما فعلته أمريكا من دمارٍ في العراق، وعلى أطفال العراق ونسائه الثكالى.

وفي إحدى جلسات المساء الممطرة تجرَّأ جمالٌ على السيِّدة روزالين فسألها عن سبب اهتمامها بالشرق، ومن أين لها كلُّ هذه الثقافةِ العميقةِ، فقد كانت مدهشةً في تناولها للأحداث في كلِّ مرَّةٍ.

ابتسمتْ قائلةً:

«إنَّ صحبتَك يا جمالُ أعادت إليَّ ذكرياتي، وفتحت لي على الماضي كوَّةً مدهشةً.

وُلِدت لأبوين أمريكيين، والدي أصوله ألمانيَّة، ووالدتي أصولها فرنسيَّة، ولكنَّها من الجيل الثاني، أي الذين جاؤوا للولايات المتحدة واستقرُّوا فيها بعد الحرب العالميَّة الثانية، و بعد ولادتي انتقلوا للعيش في مصرَ بعد أنْ كان والدي قد ترك العمل كضابطٍ في البحريَّة الأمريكيَّة، فعشتُ حياتي متنقِّلةً بين أمريكا ومصر.. كان والدي جمهوريًّا متعصِّبًا للإنجلوساكسون، ووالدتي ديمقراطيَّة، هناك اشتغل والدي بالتجارة، ووالدتي عملتْ في التدريس في الجامعة الأمريكيَّة في القاهرة في تخصُّص الآثار، و أيضًا كان لديها متجرٌ صغيرٌ لبيع تحف الأنتيك بجانب عملها كباحثةٍ متعاونةٍ مع إحدى هيئات الآثار العاملة في المواقع الأثريَّة المصريَّة.. أجادت والدتي اللُّغة العربيَّة، وأحبَّت كلَّ شيءٍ شرقي، وورَّثتْني حبَّها ولهفتها ولوعتها للشَّرق وسحر الشَّرق، عشتُ طفولتي ومراهقتي وأنا أنهل من أعظم مدرسةٍ وهي أمِّي،

فصرت أمرِّر كثيرًا من خلاصاتها على ذاتي ووعيي وتبقَّى بعضُ التفاصيل التي تعتمد على تجاربي الخاصَّة، هكذا أمضيتُ حياتي وتعلَّمت خلالها أنَّه لا يُوجدُ تطابقٌ للشخصيَّات، ولا تماثلٌ؛ فالتكرار والنمذجة تقتل روح الاكتشاف لديك؛ لذلك جعلت نفسي تمضي دائمًا إلى أقصى ما تستطيع لبلوغ العمق والتغيرات اللَّامتناهية في الزمن.

قال جمالٌ: يعجبني هذا الحسم في حياتك روز والوضوح الذي سارت عليه، انهارت سعادتي الطفوليَّة بولادتي يتيم الأب، ثمَّ بعد ذلك الأم، فأعلنتُ عدائي للحياة، أو هو العكس شنَّت الحياةُ حربها الدائمة عليَّ متمثِّلةً بالعزلة، والفقر، والغربة التي تجدِّد اغتيالها لي كلَّ يوم.

روت روزالين: ولكنْ تعلَّمْ أنْ تلعبَ أدوارك في الحياة، ولا تتمادَ في الاستسلام لها، فهي تحبُّ الأقوياء.

قال جمال: أعترف بأنَّني مبتهجٌ بكلِّ شيءٍ هنا، بالأحاديث، والطعام والشراب، وصوت جرس الباب، ونباح الكلب وملاحقته لي كلَّما خرجتُ من غرفتي، وصوت الريح، وقطرات المطر، كلُّ هذه البهجة حرَّكت قليلاً من مشاعري القاسية والمتحجِّرة تجاه الحياة.

روزالين: لقد عشتُ حياةً حافلةً يا بُني، ومفعمةً بالأحداث، وما زلتُ أجدني إنسانةً عديمة التجربة، وهناك بداخلي شيءٌ لازال يحدِّثني عن ماذا ستكون كلمةُ القدر النهائيَّة يا ترى؟

جمال: القدر يباغتنا فجأةً ولا يستأذننا، أحاول قطف ابتسامةٍ أعيش بها بين الناس، ولم تسعفْني عضلاتُ وجهي، وتظلُّ الذكرياتُ تتوالى فلا تنطفئ، بل تكبر وتتعاظم، وكلَّما ضاقت بي السُّبلُ ألجأ إلى معبد الصمت فهو الذي يحميني من اغترابي.

روزالين: يبدو أنَّك منهمكٌ في كراهية نفسك، أحببْ نفسك يا بني، وابسطْ لها كفَّ الراحة؛ لأنَّك إنْ لم تحبّ نفسك لن تجدَ مَنْ يحبُّها.

جمال: هنا أبدو مرتاحًا وبيني وبين نفسي هدنةٌ، الشيء الوحيد الذي ينقصني هو جدَّتي الحبيبة التي يطلُّ وجهُها كلَّما فتحت النافذة، أفتقد صوتها المحتجَّ وشتائمها المتلاحقة، حتمًا ستحبُّ هذا المكانَ، فسيكون لديها شرفةٌ صغيرةٌ مليئةٌ بالشتلات تعتني بها وتشمُّها إن اصفرَّت أو ذبلت.

روزالين: لقد ترك والدي أثرَه البالغ على طفولتي، ومنحني شعورًا بالضياع والعدميَّة ...! أووه يااااه نعم.. تلك حقيقةٌ أيضًا، يُمكن أنْ يكونَ المرءُ شخصيَّتين في آنٍ معًا، دكتور جيكل ومستر هايد ههه.

قطع حديثهما هزيمُ الرعد، وما هي إلَّا لحظاتٌ حتَّى بدأ المطر بالانهمار الشديد، استأذن جمال وانصرف إلى غرفته ليذاكرَ.

كان جمال قد علَّق على جدران غرفته لوحتين كبيرتين ملأهما بملاحظاته عن الكتب التي قرأها منذ قدومه إلى نيويورك، وقف على كتبٍ كثيرةٍ خلال السنوات الماضية، فالعزلة التي يعيشها إلَّا من دراسته وعمله الإضافي لزملائه، ووجود السيدة روز والتي تتدخَّل؛ لقطع عزلته الطوعية بين فترةٍ وأخرى جعلته ينصرف لعالم الكتب والقراءة في أوقات فراغه وبالذات للموضوعات السياسيَّة والاقتصاديَّة، عشق كتاب الأمير لميكافلي وتوافق معه على الرغم من سُمعته السيئة لدى الكثير من الناس بمُختلف ثقافاتهم، حتَّى أصبح اسم ميكافيلي مرادفًا لعبارة (الغاية تُبرِّر الوسيلة)، والغاية التي تبرِّر الوسيلة في نظر الكثيرين هي الانتهازيَّة الفجَّة وحسب!

وحتَّى لو كان الأمرُ كذلك فلا يصلح لهذا العالمِ الموغلِ في الانتهازيَّة إلَّا سلاحُ الانتهازيَّة. هكذا كان يردُّ جمال علىَ الاعتراضات القاصرة عن فهم ميكافيلي !

لم يقرأ جمال كتاب رأس المال لكارل ماركس، فالمجلَّدات التسعة تحتاج وقتًا لم توفِّره له متطلَّباتُ الدراسة، وقد استعاض عنه بكتابٍ مختصرٍ لأبرز ما احتواه الكتاب.

ولعلَّ رغبتَه في تكوين ثروةٍ تعوِّض سنواتِ البؤس والحرمان جعلته ينكبُّ على القراءات الاقتصاديَّة والسياسيَّة إلَّا أنَّ ما قرأه من طروحاتٍ وآراءٍ لماركس حول العلاقة بين النزاعات الاجتماعيَّة والإنتاج الرأسمالي، ورؤيته لمعنى التطوُّر الصناعي للبلدان، وتحليل البضائع، والاقتصادات السياسيَّة لرأس المال، وقوى البيع والشراء، والعديد من المفاهيم السياسيَّة والاقتصاديَّة والسيسيولوجيا والدينيَّة التي لم يطَّلع عليها إلَّا في أمريكا جعلت أفكاره تتغيَّر وتأخذ طورًا آخر!

كانت فكرتُه عن الماركسيَّة هي الفكرة التقليديَّة ذاتُها في مجتمعه التي تختزل الفلسفة الماديَّة والاشتراكيَّة الاقتصاديَّة برمَّتهما في مجرَّد إلحادٍ محضٍ لا أفقَ له ولا أبعاد!

من هنا بدأ تمرُّدُه على كثيرٍ من الأفكار والمسلَّمات، وبدأت استقلاليَّتُه في النمو، فعن طريق الاطِّلاع فقط سيتمكَّن من الحكم وتكوين القناعات وفهم العلاقات في هذا العالم، خاصَّة وهو رجل الماضي، فما برحت أحزان الماضي ترادف كلَّ أفكاره، وربَّما إصراره فقط هو ما مكَّنه من القدرة على الدأب الصبور والدراسة المنتظمة .

الشيء الوحيد الذي صار متأكِّدًا منه هو أنَّ التاريخَ بدأ في منعرجاتٍ جديدةٍ فرضتها الصيرورةُ والحتميَّة، وأنَّ العالمَ تتسارع

تحوُّلاتُه وتتبدَّل خرائطُه من جديدٍ بعد أنْ بقيت تلك التحوُّلاتُ رتيبةً بطيئةً وغيرَ ظاهرةٍ، والخرائط المصطنعة صامدة لعقودٍ طويلةٍ!

ولا سيَّما أنَّ العالمَ العربيَّ يموج بالحراك والثورات والأحداث الكبرى المتلاطمة! هل هي كما تبدو روح الشباب بدأت تضيء عالمنا، وها هي تعمل على تغييره وتحويله من عالمٍ قائمٍ ظالمٍ ومتصلِّبٍ إلى عالمٍ متدفِّقٍ حرٍّ إلى حدٍّ مقبولٍ؟

كانت هذه إحدى تساؤلاته الكثيرة والكبيرة!

بين قلبين

(٥)

«ذات يوم و في الساعة السادسة صباحًا صحوت على صوتٍ مزعجٍ لآلاتٍ ثقيلةٍ، وأصوات مطارقَ، وهمهمات عمَّالٍ وهم يحفرون الشارع أمام منزلنا؛ لتمديد أسلاك الكهرباء لعمود الإنارة الجديد، عندما قرَّر القوم فجأةً أنْ تُجدَّد إنارةُ الحيِّ بأكمله!

تسلَّلتُ من فراشي بانزعاجٍ وتثاقلٍ وأنا متعبةٌ، وقرَّرتُ على غير عادتي ألَّا أذهبُ إلى المدرسة وأن أقضيَ فترةَ الصباح مع أمِّي، و شعرتُ بالارتياح لهذه الفكرةِ وكأنَّني تخلَّصت من حملٍ ثقيل.

«أعتقد أنَّ سرَّ كآبتي هو عملي، أحسُّ بوحشةٍ هناك في المدرسة، أضيق بساعات الدوام، ولا أطيق الحديث مع أحدٍ، يا لشقاوتي، وبؤسي! ليتني أوفَّق بعملٍ آخرَ بعيدًا عن هذه البيئةِ الموبوءةِ ..!»

في السابعة صباحًا أعددت الفطور والقهوة، وذهبت إلى أمِّي في غرفتها.. تفاجأتُ عندما رأتني:

- كنتُ أعتقد بأنَّك في المدرسة.
- لم يكنْ لديَّ مزاجٌ للعمل هذا اليوم.
- غدًا إجازة نهاية الأسبوع .

فلماذا لم تصبري وتتحمَّلي بدلًا من أنْ تغيبي ويُحسم من راتبك؟!

- عادي لا تشيلي هم أخذها إجازة اضطراري.

أنهت أمِّي فطورها الذي لا تحبَّه ولكنَّها مجبرةٌ عليه، زبادي وخبز أسمر، وتمرتان فقط، أمِّي مريضةٌ بالسكر، وأهتمُّ لأمرها

كثيرًا أراقب طعامها، أخاف عليها كثيرًا من هذا المرضِ المتمدِّد بجسدها كالأفعى.

وبحنينٍ كاد أنْ يفيضَ، التفتُّ إلى أمِّي أطلب منها أنْ تبثَّني شجنًامن حياتها وطفولتها المليئة بالوجع والخوف .

أمتدَّ نظر أمِّي إلى الأعلى، وهي تجلب الذكرياتِ من بئر الماضي.

أرخت غطاء رأسها قليلاً، وفركت أصابعها الملطَّخة بدبس التمر بعد أن بلَّلتها بالقهوة.. ونظرت مباشرةً في عيني قائلةً: كان الناسُ في قريتنا تقليديِّين، دعتهم الحياة القاسية والفقر إلى أنْ يكتفوا بأبسط طرق العيش، تنتشر بينهم الأمراض الوراثيَّة نتيجةً لزواج الأقارب، ولا يعلمون لماذا بعض أطفال القرية كُسّح ؟ هم بسطاءُ جدًّا فطريُّون على سليقتهم، وعرضة لتصديق أيَّة شائعاتٍ أو أقاويلَ.

ـ نعم يا أمِّي:«إذا غاب الوعي ساد الجهل، وتنمَّر الأشرار».. هذا مؤكَّدٌ، فمصادر معلوماتهم من موروث الأجداد الذي تناقلوه مشافهةً، يكفي أنْ يتحدَّثَ عنك أحد الجيران لتنقلبَ حياتك رأسًا على عقب، وإذا كنتِ امرأةً فاقرئي على روحكِ السلام، فلن يبرِّئكِ أحدٌ، وسوف تكونين المخطئةَ دائمًا في نظرهم فمحدوديَّة الوعي، وقلَّة المعرفة تؤدِّي إلى تضخيم الأحداث؛ نتيجةً لأنَّ الناسَ يصدِّقون أيَّ شيءٍ عن كلِّ شيء ..!

ـ كثيرًا يا هياء ما آذيتُ مَنْ أحبُّهم، كنتُ أراهم يتعذَّبون ولا أكترث، هي آثامٌ أدعو اللهَ أنْ يغفرَها لي، لا أستطيع محوها من ذاكرتي، يُخيَّل إليَّ أحيانًا أنَّني شيطانٌ.. فقد أجبرتني لولوة زوجة أبي على أنْ أكونَ مراوغةً وكاذبةً»

ـ كلماتكِ عن نفسكِ تجرحني يا أمِّي ...أنتِ ملاكٌ.

ـ ههه تقولين ذلك لأنَّكِ ابنتي، جرِّبي أنْ تنظري إليَّ بروحٍ باردةٍ خاليةٍ من الحبِّ ولابدَّ أنْ تعيَ بأنَّ الأمَّهاتِ لسن كلَّهن محبوباتٍ.

ـ «الأمَّهات هنَّ الجميلاتُ كما يقول محمود درويش «ما رأيك في أنْ أحضرَ الآيباد ونستمع لقصائد درويش ..؟

ـ «هذا الكلامُ يُوجع قلبي.. الحياة في القصائد قمَّةٌ في التناقض تشبه حياتي المشوَّشة وغير المنظَّمة، قفزت من طفلةٍ إلى امرأةٍ، ثمَّ أمٍّ بشكلٍ متلاحقٍ ولم يعلِّمْني أحدٌ كيف أتعامل مع نفسي وجسدي.. كان الصبرُ صديقي، تعلَّمته من مراقبة النجوم وهي متناثرةٌ في صدر السماء كنت أعدُّها نجمةً نجمةً، أعرفها وأسمِّيها، أرسمها على الرمل، وأتخيَّل أمِّي هناك تبتسم لي».

هياء: يمه أنت حكيمة ... لا أستطيع السيطرة على نفسي ومشاعري مثلك.

الأم: الحكمة لا تأتي إلَّا من التأمُّل يا بنتي... وقريتنا كانت هادئةً واللَّيالي أكثرُ دفئًا، النجوم متألِّقةٌ وأكثر لمعانًا، وحين أحدِّق في فضاء الصحراء، وأستمع لصمت الفضاء الشاسع يبدو الأمرُ أكثرَ روعةً، المدنيةُ أفسدت مزاج الناس.

هياء: فعلًا كنتِ محظوظةً أنَّكِ ولدت في قريةٍ، أتمنَّى أنْ يرزقَني الله صفاء ذهنك، المدنية أرهقتنا بمتطلَّباتها وشهيَّتها المفتوحة على الاستهلاك».

الأم: أنتم المحظوظون يا هياء؛ لأنَّكم جيلٌ انفتح على العالم، كانت لديَّ شهيَّةٌ للتعلُّم، ولكن لم أجدْ مدارس تعلِّمني وتشبع شغفي بالتعليم، كنت ألتقط كلَّ ما حولي كالكاميرا أخزِّن الأحداث والمواقف وأربطها؛ لأتعلَّمَ منها، وعندما تزوَّجتُ والدك كنت أعرف القراءة والكتابة ودخلت مدارس محو الأميَّة عندما جئنا للعاصمة حتَّى أخذت الشهادة المتوسطة.

لم يكن لديَّ حيلةٌ لأكثر من هذا وأنا نشأت وحيدةً مع زوجة أبي (لولوة) التي كانت تعاملني هي وأبي بقسوةٍ ظاهرةٍ !

هياء: غريبةٌ مشاعرُ لولوة تجاهك مع أنَّك يتيمةُ الأمّ، لماذا تعاملك بقسوةٍ أنتِ بمثابة ابنتها؟!

الأمّ: لا تستغربي يا بنتي... لو عرفت لولوة كما عرفتها سوف تشعرين بشيءٍ غامضٍ، وغير مريح سواء في شخصيَّتها أو شكلها، شعرها أرجواني اللَّون لكثرة ما تَصبغه بالمشاط، ولها ملامحُ جامدةٌ، ضيِّقة العينين، واسعة الفم، لها أنفٌ طويلٌ كالغراب متيقِّظة طوال الوقت لكلِّ ما يدور حولها، ولها أردافٌ منتفخةٌ إلى حدِّ البشاعة، وكانت النسوةُ يلقبْنها بـ(السعلوة)، ولا تتحدَّث كثيرًا، أحاديثها عبارةٌ عن أوامر فقط، و كانت ماهرةً في التداوي بالطبِّ الشعبي خاصَّة الأمراض المتعلِّقة بالنساء والأطفال.

هياء: يبدو أنَّها من أعداء الحياة !

الأم: لا تظلميها ربَّما خذلتها الحياة كثيرًا، ولم يعدْ لديها أصابع لعدّ الخيبات التي أحدثها العابرون في حياتها».

هياء: غريب يا أمِّي كيف تبرِّرين لها ؟

الأم: على الرغم من أنَّ خوفي منها لدرجة الهلع، إلَّا أنَّني بعد ما كبرت تعلَّمت أنْ أختلقَ الأعذار للآخرين ...حياتُها بائسةٌ، وربَّما كان لدينا نحن الاثنتان شيءٌ مزعجٌ لا نبوح به، يُخيَّل إلى أنَّها تنتحب بصمتٍ، وغاضبة من الحياة»

هياء: كلُّ إنسانٍ يا أمِّي نتاجٌ لأفكاره ومعتقداته.

الأم: كانت غريبةً لدرجة أنْ يبست ابتسامتُها على وجهها، أراقبها، غالبًا ما تمكث في غرفة التداوي، تعيش مع أعشابها ذات الروائح النتنة، ربَّما فضَّلت هذه الروائح على البشر من حولها، دائمًا تردِّد حكمتها (مايضام حر وفي البيت مر)، أما أنا فكنتُ

أهـرب إلـى غرفـةٍ مليئـةٍ بالقـشِّ صنعـت منـه فراشًـا أرقـد عليـه، وغالبًـا مـا كنـتُ أحلـم بالذهـاب للمدينـة، وتـرك هـذه الخرائـب!

هياء: تلومينني يا أمِّي إذا قلت لك سوف أهاجر؛ لأعيشَ بسلام.!

الأم: سـافري واطـوي الأرض، ولكنَّـكِ لـن تجـدي السَّـكينة المفقـودة لأنَّهـا بداخلـك... كان مسـكني دائمًـا في قلـب أختـي نـورة ومـن بعدهـا أختـي موضـي.

هيـاء: تأكَّـدي يـا أمِّـي أنَّـه عندمـا تكثـر أسـباب الفـرح تتصاغـر أمامَهـا المشـكلات، وربَّمـا لولـوة لـم تحـظَ بالفـرح والحـبِّ كحـال النسـاء دائمًـا!

الأم: لـم تكـنْ تفـوح مـن منزلنـا روائـح البخـور مثـل جيراننـا آل عبـد الكريـم، منزلنـا تفـوح منـه دائمًـا روائـح المـرّة والحلتيـت والصـبر و العشـرق، وهـذه الأعشـابُ كانـت تـداوي بهـا لولـوة الأمـراضَ والجـروحَ المتعفِّنـةَ والمغـصَ أيضًـا، ولطالمـا تلصَّصـت عليهـا وهـي تكـوي الأطفـال، فأكيـل لهـا الشـتائم و الدعـوات بالمـوت وسـط صرخـات الأطفـال الموجعـة، فهـي لا تحسُّ بألمهـم ربَّمـا لأنَّهـا لـم ترزقْ بأطفـالٍ، وجههـا خـالٍ مـن التعابيـر، فالأطفـال يحضـرون البهجـة معهـم لأمَّهاتهـم أينمـا وجـدوا».

هيـاء: «يبـدو أنَّ لولـوة إحـدى عذابـات أمِّـي، فكلَّمـا تَحدَّثـت عنهـا يُخيَّـل إلـيَّ أنَّ بابًـا مـن الجحيـم قـد فُتـح».

تستطرد أمِّي في حديثها:

كنـتُ أشاكسـها وأصـرخ بهـا: لا تـؤذي الأطفـال، فتعاقبنـي بحبسـي داخـل الغرفـة الضيِّقـة المظلمـة (غرفـة القـش)، هـي لا تعلـم أنَّهـا مـكاني المفضَّـل، وإنَّنـي صنعـت لـي فراشًـا هنـاك، كنـتُ أجلـس القرفصـاء بالحجـرة الضيِّقـة، أغلـق عينـي وأتحسَّـس ماحولـي، أسـحب ثوبـي وأغطِّـي جسـدي، وأضـع رأسـي بيـن ركبتـي، ثـمَّ أحلـم أنَّنـي في حضـن أختـي نـورة، وهـي تسـرِّح شـعري وتغنِّـي لـي:

نامي نومة الهنيَّة على مرقد وزوليَّة نامي نومة الغزلان في البرية
نامي نومة أمك وهي ابنية نامي ولك رب لا ينام .

ثمَّ يأخذني النعاس وأنام، وعندما تفتح لولوة الباب في الصباح، أبتسم لها وأقول وين الفطور يـ (اللولو) ؟ فتغلق الباب في وجهي مرَّةً أخرى، أحيانًا كنتُ أهرب منها إلى سدرةٍ بجانب بيتنا من الخلف وأبكي وبعدها أنسى وأجمع العبري، ثمَّ آكل ما جمعته ويغشاني النعاس وأنام.

هياء: ههه وأنا أقول طالعة لمين بعنادي ... على مين.. عليك يا أحلى أم ... لكن فعلاً كنتِ وحيدة ؟

الأم: في ليالِ الشتاء الحزينة لم يكن يعزِّيني في وحشتي ووحدتي إلَّا تراتيلُ المطر في السماء الموشومة برمادٍ داكنٍ له صوت الدفء».

- أمسك بيد أمِّي المرتجفة وأضعها على خدِّي متسائلةً: متى تكسر أمِّي كأس عتاب الحياة... أنفاسها وهي تبثُّني حياتها أو حزنها صدى لحكاية امرأةٍ عربيَّةٍ تتكرَّر كلَّ صباح.

ـ نفضتْ يدها بشدَّةٍ وأشارت إلى جهة القلب، ثُمَّ التقطتْ فنجان قهوتها، وأغمضت عينيها عن شيءٍ لا تريد البوح به.

«أحسُّ بأمِّي وأتفهَّم صمتها وألمها، فأحيانًا الحياة تصبح مبعثرةً ومتكرِّرةً ويصعب جمعُ خيوطها، ويصعب فهمُها».

هياء: « على الحياة أنْ تجثوَ على ركبتيها طالبةً المغفرة منكِ يا أمِّي».

الأم: لا تحزني يا بنتي، كلُّ الأشياء المؤنَّثة موسومةٌ بالنقصان؛ لذلك كان والدي سعدٌ ناقصًا لأنَّه لم ينجبْ إلَّا البنات!!وعلى الرغم من قسوته الخارجيَّة وصمته الدائم وعدم اكتراثه الظاهر إلاَّ أنَّه كان يرتوي طيبةً من الداخل، كان حريصًا عليَّ ولكن من

بعيدٍ، دون أنْ يظهرَ ذلك، لا يريد كسر كبريائه، أو هكذا يعتقد، دائمًا أتوق إلى حضن منه يرتق مشاعر فقدي لأمِّي، الجميل أنَّه لم يكنْ رجلًا أمِّيًّا كغيرِه فقد درس عن طريق الكتاتيب، وواظب على تعليم نفسه ما تيسَّر له، والكتاتيب كانت مثلَ المدرسة الآن، حيث كانوا يبنون دكَّةً ملحقةً بالمسجد وهي عبارةٌ عن غرفةٍ صغيرةٍ لا يزيد طول جدرانها الأربعة المبنيَّة من الطين والحجر عن مترٍ واحدٍ تقريبًا، وكانت مسقوفةً بالجريد وجذوع النخل والشجرِ، ويقوم سقفها على أعمدةٍ أربعةٍ، هي جذوع شجرٍ أو نخيل، فيمكن اعتبارُها غرفةً مكشوفةً من كلِّ الاتجاهات، وبداخلها موضعٌ مرتفعٌ من الأرض للجلوس مثل الكرسي، ويكون بيد كلِّ طالبٍ لوحٌ من الخشب يقوم بالكتابة عليه، أمَّا المدرِّسُ فكان يُسمَّى (بالمطوّع) وغالبا هو إمامُ المسجد».

هياء: «يبدو أنَّ أمِّي وضعت أمتعتها العاطفيَّة كلَّها في حقيبة طفولتها، ويظهر لي أنَّه كلَّما كبرنا صرنا أكثرَ تطرُّفًا في مشاعرنا، وكأنَّها في إعادة ترديد قصَّتها تعيد اكتشاف نفسها من جديدٍ... وهاهي بعد نوبةٍ من ذكرياتٍ تعود مكتظَّةً بالرغبة في الحديث أكثر».

الأم: «الذي نفعني كثيرًا أنَّ والدي كان مؤمنًا بالتعليم، وقد علَّمنا مبادئ القراءة والكتابة، وقد كان رجلًا جادًّا جدًا وله هيبتُه، حرص على تعليمنا، وقد عاند مجتمعَه الصغير، وتحمَّل الهمز واللَّمز، ولكنَّه لم يكترثْ لأحدٍ، غير أنَّ البخلَ هو أسوأُ صفاته، فبعد وفاة أمِّي تزوَّج (لولوة) وتوافقت معه تمامًا، فكانت تعمل وتحبُّ جمع المال وتعرف القراءة ومستقلَّة، واستقلاليَّتها الماديَّة جعلت كلمتها مسموعةً عند والدي، يحترمها وأحيانًا أحسُّ بأنَّه يخاف منها، أحبُّ والدي جدًا وكلَّما سمعت صوته تنشقُّ بداخلي اثنتا عشرة عينًا من الطُّمأنينة، على الرغم من قسوته».

« تغزو قلبي قشعريرةٌ كلَّما تألَّمت أمِّي، لها عادةٌ جميلةٌ فهي تحرِّك يديها حين تتحدَّث، أراقب أصابعها المرتجفة المخضَّبة بالحنَّاء والمليئة بأسرار الزمن! يبدو أنَّه وحده القلبُ المتصدِّعُ بالحبِّ ينشقُّ عن الحزن».

ـ يا بنتي، صعبٌ أنْ تعيشي في منزلٍ يسيطر عليه شخصٌ محشوٌّ قلبُه بالكراهية، لولوة تكرهنا منذ أنْ وطئت قدماها منزلنا الصغير بلا أسبابٍ تذكر، كانت تعاملنا كالخادمات، إلَّا أنَّ أختي نورةَ كانت تدافع عنَّا كثيرًا قدر ما تستطيع، ولكن خبث (لولوة) لا قِبل لنورةَ الواضحة والصريحة جدًّا به، كانت كثيرةَ الوشاية بنا عند أبي والذي يصدِّقها كثيرًا، ولا يرحمنا عند الخطأ، فيجلب العصا ويضربنا تباعًا على ذنبٍ لم نقترفْه، ولكن ما كان يعزيني هو حنان أخواتي».

هياء: ليت لي أختًا تجبر كسور وحدتي، وأبثُّها همِّي!

الأم: فعلاً .. لم يمهلني القدر لأنجبَ لكِ أختًا أو أخًا، أعرف قيمة الأخوات فهنَّ مَنْ يضعْنَ صدق مشاعرهن بينك وبين وجه الحياة القاسي».

أسترجع ذكرياتي الآنَ وأنا ممتنَّةٌ لله فقد كنتُ محظوظةً بالأخوات؛ لأنَّه بعد وفاة أمِّي اعتنتْ بي أختي (نورة)، وكأنِّي ابنتُها مع أنَّها كانت صغيرةً ولا تكبرني إلَّا بسبع سنواتٍ، وكان عقلُها يسبق عمرها، إذ كانت من النوع المسؤولِ جدًّا والنبيه، أمَّا والدي (سَعد) فلم يُحسّ بعظمة فقد أمِّي؛ لأنَّ نورةَ قامت بدور الأم لنا، وكفتْه همَّ (موضي) و همِّي، إلَّا أنَّني استأثرتُ بكلِّ حنانها وعنايتها؛ لأنَّني الصغرى ،»قاطع حديثَنا رنينُ هاتف أمِّي الجوال كانت خالتي موضي، ارتبكتْ أمِّي عندما بادرتْها خالتي قائلةً: مرحبًا يا لولوة.

ـ لولـوة ميـن ؟ ههـه الله يسـلِّط علـى إبليسـك، واسـتمرَّت الضحـكات وتجـاذب أطـراف الحديـث لدقائـق قبـل أنْ تبادرَهـا خالتـي:

ـ أرغب في زيارتكم بعد العصر.

ـ الله يحييك، زارتنا البركة.

انشـغلت أمِّـي بإقفـال هاتفهـا؛ لتسـتعدَّ لصـلاة الضحـى، اسـتأذنتُها وذهبـتُ إلـى غرفتي لأرتـاحَ قليـلاً.

«اسـتلقيتُ علـى سـريري وأنـا حائـرةٌ أفكِّـر في أمِّـي وهـي تفـرط عقـدَ مشـاعرها علـى بـاب قلبـي، وحزنهـا المسـتقر كالجبـل جعـل حجـم دهشـتي يتعاظـم كحلـوى القطـن، أرغـب في أنْ أزيـلَ تجاعيـد اسـتفهامات الوجـع التـي اسـتباحت قلبهـا الصغيـر، وأنهـي قصَّتهـا بفـرحٍ صـارخ الألـوان».

بعـد العصـر بسـاعةٍ وفي صالـة المنـزل انتظرنـا خالتـي موضـي حتَّـى جـاءت ومعهـا هديَّـةٌ لأمِّـي عبـارةٌ عـن سـجَّادةٍ- مـن الحصيـر الأصلـي- خفيفـةٍ وخشـنةِ الملمـس، فرحـت بهـا أمِّـي كثيـرًا (علـى الرغـم مـن أنَّهـا لـم تسـتخدمْها، وبقيـت وفيَّـةً لسـجَّادتها الأثيـرة)، ذهبـت لأجـل أنْ أحضـرَ القهـوة والشـاي المطعَّـم بالحبـق المديني ذي الرائحـة الأخَّـاذة. أقبلـت وهمـا تتهامسـان وسـكتتا فجـأةً، لـم أسـألْ بمـاذا تتهامسـان، ووضعـت القهـوة والشـاي في طاولـةٍ أمـام خالتي موضـي، واسـتأذنتُ بالانصـراف، إلَّا أنَّ أمِّـي رفضـت وطلبت منِّـي أنْ أصـبَّ القهـوة.

التفتت لي خالتي موضي قائلةً:

- تعرفين سلطانة المحمد؟

- نعم أعرفها، كانت تدرس معي أيَّام الجامعة.

- طلبتكِ للزواج بأخيها سلطان.

حشرتُ جسدي داخل مرتبة الأريكة، ولا شعوريًّا رفعت رأسي للسقف ولأوَّل مرَّةٍ أتمعَّن في الإضاءة البيضاء وكأنَّني في عيادة طبيب أسنان، أدرت بصري بسرعةٍ شطر أباجورة صفراء أمامي كسرت حدَّة البياض، ربتت على كتفي خالتي قائلةً:

- ما رأيك؟

قلت بتردُّدٍ:

لا أعرف ..!

-كيف لا تعرفين؟ ... الزواج يا بنتي ضروريٌّ، وخاصَّة في وضعك الحالي.

«استفزَّتني كلمات خالتي رددتُ عليها بعصبيَّةٍ أغضبت أمِّي: أي وضع شايفتني معاقة؟»

صمت الجميع، وبعد فترةٍ أظنُّها لم تتجاوزْ العشر دقائق استأذنت خالتي لتغادرَ، ولكن رفضتْ أمِّي مغادرتها إلَّا بعد العشاء، اعتذرت خالتي بشدَّةٍ فقد كان لديها موعدٌ في عيادة السمنة بعد المغرب، ولم تخرجْ إلَّا بعد أنْ طوَّقتها أمِّي بأغلظِ الأيمان أنْ تزورَنا الأسبوع المقبل.

بعد أنْ غادرت خالتي توسَّدت ذراع أمِّي، أعرف أنَّها غاضبةٌ منِّي، طلبتُ منها بدلالٍ أنْ لا تؤاخذَني..

هياء: تدرين يمه أن خالتي موضي تسوى عيوني.

الأم: واللي يسوى عيونك تعاملينه بقسوة ؟

هياء: بصراحةٍ، استفزَّتني واختفت كلُّ الصور والكلمات، ولم يتبقَّ في مخيِّلتي المتعبةِ سوى أنْ أصرخَ بها بصوتٍ عالٍ... مخطئةٌ أعلم ذلك وسوف أعوِّضها في المرَّات القادمة، لا تخافي خالتي قلبها أبيض.

ذهبتُ إلى غرفتي وأطرقت أفكِّر في كلام خالتي وتصرَّفي معها:

«مسائي ينساب بهدوءٍ كأفعى، وصوتٌ داخليٌّ يلوكني هو الآخر، وذرَّاتٌ من ملح الألم عالقةٌ على شفاهي، لا تطرق ذهني فكرةُ الزواج أبدًا .. أنا أحبُّ أمِّي، ولا أستطيع تركها وحيدةً تصارع الاكتئاب والوحشة».

أتأمَّل غرفتي، وأتمعَّن بتلك اللَّوحةِ المعلَّقةِ على أحد جدرانها صورةٌ لفتاةٍ هنديَّةٍ تحمل آلةً موسيقيَّةً، وعلى سريري بعضُ الشعر المتناثر، وأوراقٌ مكوَّرةٌ ملقاةٌ على الأرض، وزهورٌ ماتت ويبستْ بجانب النافذة، حرَّكت الستارة - يا الله الجوُّ غائمٌ هذه الليلة - خطرت في بالي فكرةٌ، حيث مللت من شراء الأزهار التي تموت بعد يومين أو أسبوع؛ لذلك قرَّرتُ أنْ أزرعَها بجانب الشرفة التي تجلس فيها أمِّي كلَّ مساءٍ، فالأزهارُ هي قوام الطبيعة، وروحُها وهي رمز الحبِّ عند العشَّاق، وأظنُّ أنَّها تُوضع في الكنائس والمعابد؛ لأنَّ حياتَها القصيرة تشبه دورة حياة الإنسان وتذكر بها أيضًا مع البعد الجمالي الذي تضفيه طبعًا، أذكر أنَّني اشتريت كتاب (أزهار الشر لبودلير) توقَّعتُ أنَّه يتحدَّث عن الأزهار، إلَّا أنَّني دخلت في عالم آخرَ عندما بدأتُ بقراءته، هذا الديوان الشعريُّ مختلفٌ، أقولُ: سحقًا كما قالها في نهاية ديوانه.. لماذا لم أقرأْه قبل ذلك ؟

الأكيد أنَّني وقعت في غرام هذا الكاتب الغاضب والرافض للتبعيَّة.

تَحْتَلُّ أَرْوَاحَنَا وَتَسْتَوْلِي عَلَى أَجْسَادِنَا، وَنُغَذِّي نَدَامَاتِنَا الْمَحْبُوبَة، مَثْلَمَا يُغَذِّي الشَّحَّاذُونَ هَوَامَّهُم.

خَطَايَانَا عَنِيدَةٌ، وَنَدَمُنَا بَلِيد؛وَنَدْفَعُ ثَمَنًا بَاهِظًا لاعْتِرَافَاتِنَا وَنَعُودُ مُبْتَهِجِينَ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُوحِل، مُعْتَقِدِينَ أَنَّ دُمُوعًا زَهِيدَةً تَغْسِلُ أَوْسَاخَنَا.

عَلَى وِسَادَةِ الشَّرِّ إِبْلِيسُ الْمُعَظَّم الَّذِي يُهَدْهِدُ طَوِيلاً أَرْوَاحَنَا الْمَسْحُورَة، وَمعْدَنُ إِرَادَتِنَا النَّفِيس تَبَخَّرَ تَمَامًا عَلَى يَدِ هَذَا الْكِيمِيَائِيِّ الْعَلِيم.

هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يُمْسِكُ بِالْخُيُوطِ الَّتِي تُحَرِّكُنَا!(قصائد إلى القَارئ / بودلير)

يا لَهذه القصيدة! التي دخلت أعماقي بلا استئذانٍ، يبدو أَنَّني أشبه بودلير كثيرًا، فكلانا يرى في أمِّه صورة حبيبته، بل نرى فيها طهر الكون مجسَّدًا، نريد أنْ ننفذَ إلى باطن المخلوقات، وعمق الروح، إلى ما وراء هذه الأغلفةِ الخارجيَّة للإنسان، وما هو السرُّ الأبديُّ الذي يربط الإنسان بالكون، فالحياةُ عندنا غيرُ مكتملة النمو، ولا نرى منها إلَّا القبحَ ولا نسمع غير صليل سيوف الشرِّ، ولكنِّي سوف أعيش وأتغاضى، وسوف أزرع زهورًا أخرى، ولكنَّها ليست مجازيَّةً بل حقيقية، سوف أعرض فكرتي على أمِّي ربَّما تساعدني في زراعتها فهي ابنة فلَّاح.

ذهبت إلى غرفة أمِّي، ولم أجدْهاً وسمعت صوت قعقعة الصحون والقدور، واتَّجهت ناحية المطبخ فوجدتُ أمِّي تحاول تنظيف الصحون، أبعدتها وعاتبتها:

هياء: الطبيب منعكِ من الحركة، وأنتِ تجهدين نفسك.

الأم: مللتُ يا بنتي من الجلوس الطويل، ونظري ضعيفٌ لم أعدْ أستطيع القراءة وأردتُ أنْ أصنعَ لي قهوةً وأتحرَّك قليلاً (حج وقضيان حاجة).

أثناء حديثنا سمعنا صوت نقراتٍ على نافذة المطبخ... مطر مطر.

ذهبنا وفتحنا الباب المطلَّ على فناء المنزل نراقب المطر، فأحضرتُ كرسيَّين وطاولةً، ووضعتها قرب الباب، ثمَّ أحضرتُ صينيَّة القهوة، وجلسنا وبعد لحظاتٍ من التأمُّل عرضتُ عليها

فكرة زراعة الأزهار في البيت، ضحكتْ أمِّي طويلاً على فكرتي وقالت: ذكرتيني بأوَّل مرَّةٍ أرى فيها أزهارًا كثيرةً غير النفل والزهور البريَّة التي كانت تنبت في قريتنا بعد سقوط المطر.

«كانت ترتشف قهوتها وبصرُها شاخصٌ نحو انهمار المطر، بينما كان ذهنُها ينطلق إلى نقطةٍ أخرى بعيدةٍ لا يستطيع رؤيتها أحدٌ غيرها..

ـ الحياة يا ابنتي تغرقنا بآمالٍ زائفةٍ !

«أدركت أنَّ أمِّي ستسألني سؤالًا ـ كعادتها ـ لا أستطيع الإجابة عنه بنعم أو لا».

قاطعتها قائلةً:

كلُّنا يا أمِّي جملةٌ من كلِّ قصَّةٍ في هذا العالم، أقدارُنا مكتوبةٌ، بشرٌ لا نتكرَّر، إمَّا أنْ نكونَ ومضةَ ألمٍ، أو ومضةَ بصيرةٍ، لكن مَنْ عساه يفهم نفسه أو واقعه، طالما تمنَّيتُ أنْ أعرفَ كيف أكونُ مرحةً مستبشرةً مثل الجوهرة بنت خالتي موضي، لكنَّني لا أملك خفَّة روحها ولا عدم مبالاتها».

جاء صوت أمِّي ضاحكًا، وكأنَّني فعلاً قلتُ شيئًا يثير الضحك..!

ـ أنتِ الوحيدةُ يا هياء مَنْ يستطيع إضحاكي، كنتِ طفلةً مدهشةً ومبتسمةً دائمًا.

على نقيض ما كنتُ عليه في صغري، فقد كنت ساخرةً جدًّا وعنيدةً، ذات مرَّةٍ اتَّهمت لولوة -وأنا باكيةٌ- بأنَّها تعتبرني حمارة، فهي لا تتحدَّث معي، وعندما تفعل لا أردُّ عليها، وبعض الأحيان أحاول اختراع أكاذيبَ؛ لكي أتحدَّثَ معها، كنتُ أراقبها مراقبةً لصيقةً؛ لأنَّني كنتُ أتمنَّى أنْ أعرفَ لماذا هي صامتةٌ، ووالدي صامتٌ ومتفاهمان دائمًا..؟!

ربَّما والدي يحبُّ لولوة مثل حبِّي لأختي نورة، أحسُّ بوحشةٍ كبيرةٍ بداخلي كلَّما مرَّ طيفُ نورة، فبعد زواجها دبَّ الحزن في نفسي، وأصبحت صامتةً لا أتحدَّث كثيرًا، أنتظر آخر الشهر؛ لتصلَنا برقيَّةٌ من نورة، نجتمع حول والدي وهو يقرأها وعيناي مغرورقتان بالدموع.

ذات صيفٍ ألححتُ على والدي كي نسافرَ لرؤية نورة، فقد كانت غصَّةُ الفقد تكبر في قلبي مع كلِّ يوم يمرُّ عليَّ وهي بعيدةٌ عنّي، كنتُ أحبُّها كثيرًا فهي نافذتي على الحياة التي أحكمَ أبي إغلاقَ أبوابِها في وجهي، تزوَّجتْ نورة من تاجرٍ اسمه (حسن) يشتغل في تجارة الأقمشة، ورحلت معه إلى غرب المملكة في مدينة الطائف ولم تزرْنا بعد زواجها إلَّا مرَّةً واحدةً.

وددتُ لو أستطيع تجاوزَ غيابها عن المنزل، ولكنَّ غيابَها ولَّد لديَّ تساؤلاتٍ وفضولاً حول أمِّي التي كان لا يستطيع والدي ذكرها في حضور لولوة.

لم أستطعْ تحمُّل قدري، وأصبحت أشكُّ في كلِّ شيءٍ حولي، كنتُ لا أصلّي ولا أريد أنْ أصلِّيَ، مع أنَّني بدأت أدرِّس بنات الجيران الكتابة وأحفِّظهن بعضَ السور القرآنيَّة والأحاديث، إلَّا أنَّني أحمل بداخلي غضبًا كبيرًا على الحياة، كيف أعيش بلا أمٍّ و لا أجد صدرًا حنونًا يحتويني ؟ أين الرحمةُ التي يتحدَّثون عنها عن طفلةٍ نشأت يتيمةً بلا رعايةٍ بعد زواج أختيها المراهقتين وانشغالهما بحياتهما ؟!

كان هناك صوتٌ بداخلي يحثُّني على رفض كلِّ شيءٍ حولي بما في ذلك والدي، خاصَّة إذا تذكَّرت إحساس الخديعة؛ لأنَّه تزوَّج بعد وفاة أمِّي بأسبوعين، يبهت هذا الشعورُ السيِّئُ ويتلاشى لفتراتٍ عندما أسمع دعاءه وترحُّمه الخافتَ عليها في بعض خلواته بنفسه.. !!

أكبر وأكبر يا هياء و لا شيءَ يتغيَّر مثل مواعيد الصلاة الثابتة، استيقظت ذات ليلةٍ والجميع نائمون، فسمعت تمتمةً تأتي من جهة مكان نوم والدي، حاولتُ أنْ أصغي فعرفت أنَّه كان يصلِّي ويدعو لوالدتي بنغمةٍ كلُّها شجنٌ وتوسُّلٌ، رحتُ أصغي مندهشةً إلى صوته الذي بدا وكأنَّه صوت العصافير المسكونة بالجمال، كانت تلك المرَّةُ الأولى التي أحبُّ فيها والدي، و أدرك فعلاً أنَّ روحَه عميقةٌ ورقيقةٌ.

أذكر مرَّةً أنَّنا كنَّا متحلِّقين حول الغداء فرفع رأسه والدي قائلاً:

شيخة، ورمقني بنظرةٍ حنونةٍ لأوَّل مرَّةٍ، ماذا تفعلين لو علمتِ أنَّ نورةَ ستزورنا بعد أيَّام ؟

-كانت بيدي لقمةٌ فرميتها على السفرة، صحيح وإلا تمزح؟!

نطقتها لا شعوريًّا.

- ومنذ متى وأنا أمزحُ يا بنتي؟ لولوة، موضي استعدُّوا للضيوف، نورة وزوجها.

«أذكر أنَّني في تلك اللَّيلةِ التي سبقتْ مجيء نورة لم أنمْ، كنتُ أستحضر ذكرياتِنا معًا، وصوتها الرقيق الذي كأنَّه دهن بزيت زيتون، تحوَّلت أفكاري إلى حديقةٍ حوتْ كلَّ أصناف اللَّعب والمرح والحبِّ».

وبعدها بأيَّام، وذات عصريَّةٍ لا أنساها وصلتْ نورة وزوجها، وعندما وقعتْ عيني بعينها اختنقتُ بدموعي، حضنتْني بقوَّةٍ دون أنْ تقبِّلَني كعادتها، أحسستُ بأنَّها مختلفةٌ متغيِّرةٌ، والطابع الرسميُّ يغلب على تعامل الجميع معها، الكلُّ يتعامل معها باحترامٍ ظاهرٍ .

كانت لولوة ترحِّب بها وتقدِّم لها القهوة والتمر، نظرت إلى نورة باستغراب..قالت لي بصوتٍ خافتٍ: عندما تتزوَّج الفتاة تصبح محترمةً في نظرهم .

فتحتُ فمي و عيني بشدَّةٍ، فنكزتْني نورة بأطراف أصابعها: أنْ أقفلي فمَكِ وهي تغمز لي، الغريب يا هياء أنَّ خالتَكِ نورة تأقلمتْ بسرعةٍ مع حياتها الجديدة؛ لأنَّها كانت ذكيَّةً وسريعة الاستجابة لأيِّ حدثٍ يمرُّ بها، فقد تزوَّجت وعمرها ثلاث عشرة سنةً، كانت طفلةً، كيف لأبي أنْ يقبلَ أنْ يزوِّجَها وهي لم يكتملْ حتَّى نموها الجسدي، ولكن كان حظُّها وافرًا من حيثُ نوعيَّة زوجها كرجل، فقد كان زوجُها رقيقَ القلب وصبورًا، وعلَّمها أشياءً كثيرةً، عَلَّمها الخياطة والطبخ الحجازي، آآآه لو تذوَّقتِ السليق الحجازي الذي أجادته يا هياء !

والطبخ عمومًا إحدى مواهبِها فقد كانت شغوفةً بالمطبخ وما تطهوه كان محبَّبًا إلى النفس، حاولتُ تعليمي بعضًا من طبخاتها، ولكنِّي لست من هواة الطبخ مثلَها ولم أشجِّعْها على ذلك كثيرًا، وعندما زارتنا أحضرت الكثير من صناديقَ مليئةٍ بالفاكهة، مثل (التين والعنب والبرشومي والرمان).

أتأمَّل نورة، لازالت على نشاطها وحيويَّتها وحرصها، وحيث اعتادت على الترتيب والعناية بالمكان بدأت في ترتيب بيتنا، أمسكتْ بيدي مرَّةً قائلةً: كوني نظيفةً، الرجال يحبُّون المرأة النظيفة، وكنتُ لا أكترثُ لكلامها».

«كانت تنظِّف البيت وتقصُّ عليَّ يومياتِها في الطائف قائلةً: كنت أدوس على النباتات الصغيرة التي تنمو وسط الممرَّات في بيتي فأتذكَّر مزرعتنا وبيتنا الطينيَّ وأشمُّ رائحة أمِّي كيف استطاعت أنْ تتحمَّلَ قسوة أبي وعصاه الغليظة وكلماته الجارحة

ونقده المستمر، فبعد زواجي من حسن اكتشفتُ أنَّ الرجالَ ليس كلُّهم مثلَ أبي».

لقد رزقني اللهُ زوجًا لطيف المعشر ومنزلًا واسعًا، أتمنَّى أنْ تزوريني في بيتي يومًا ما، حتمًا سيعجبك البيت وبالذات الروشان لتراقبي المارَّة منه.

دهشتُ وفتحتُ فمي كعادتي ....!

استطردت نورة:

منزلي ذو طرازٍ حجازيٍّ، حيث الشبابيك مصنوعةٌ من خشب الزان والعرعر، وجدرانه الداخليَّة مطليَّةٌ بالجير الأبيض أعتقد بأنَّه مثلُ (الجص) ومن المنزل أخرج إلى فناءٍ جنوبيٍّ شرقيٍّ واسعٍ زرع فيه الكثير من التين الشوكي والعنب، سوف تذهلين عندما تشاهدين جمال كرمات العنب .

– أتمنَّى أنْ أزورَ قريتكم، يبدو أنَّها جميلةٌ؟

– ههه هي ليست قريةً، هي مدينةٌ محاطةٌ بالمزارع و بالجبال من جميع الجهات تقريبًا، والمنازل والبيوت متشابهةٌ، حيث كان بعضُها مبنيًّا من الحجر أو الطين أو منهما معًا، ويُلاط البناءُ بمادَّة النورة و الرخام، أمَّا أسقف المنازل فكانت تُبنى بخشب العرعر أو الطلح أو الزان، وتغطَّى واجهاتُ هذه المنازلِ والرواشين والمشربيَّات والنوافذ الخشبيَّة بالزخرفة، وعندما تمشين بين البيوت والأحياء ستجدين بعض الممرَّات ضيِّقةً، والأزقَّةُ كثيرةٌ متعرِّجةٌ تنتهي إلى برحاتٍ، والمتاجرُ صغيرةٌ مرصوصةٌ بجانب بعضها البعض .....هه لقد اجتهد حسن ليشرحَ لي مدينته التي أحببتُها من حبِّي لحسن.

«تخيَّلي يا ابنتي أنَّني ما زلتُ أشمُّ كلَّ ليلةٍ رائحةً أعرفها، تأتيني لتشعرَني بالاطمئنان، دبَّ الشيب في رأسي ولا زلت أنتظر، يُخيَّل إليَّ أنَّ والدكِ يلقي السَّلام عليَّ كلَّ ليلةٍ».

اقشعرَّ بدني: ما أقوى أحاسَيسك يا أمِّي! ألهذه الدرجةِ تحبِّين أبي؟

ـ والدك كان عكس والدي تمامًا، فقد كان معتدًّا بذاته كريمًا طموحًا وبشوشًا، وُلد في القرية، ولكنَّه انتقل وهو في التاسعة من عمره إلى الشمال قرب الحدود ليشتغلَ بالتجارة مع عمِّه، فهو من العقيلات الذين كانوا يتنقَّلون طلبًا للرزق والتجارة.

«عندما التقيتُه أوَّل مرَّةٍ كنتُ طفلةً في الحادية عشرة من عمري، وهو ابنُ عشرين سنةً رأيتُه عند (قليب الفيضة)، كان هذا المكانُ مكانَ التقاء النساء بعضهن ببعض، ومكانًا خصبًا للشائعات، و عندما التقت عينيّ بعينيه وقع في نفسي شيءٌ غريبٌ و أحسست بارتياح، وغمرتْني مشاعر لم أستطعْ تحليلها وقتها دخلتُ ذات مرَّةٍ الغرفة التي يجلس فيها والدي ليستقبلَ الضيوف، كانت مظلمةً تمامًا، على الرغم من أنَّنا في وقت الظهيرة، والنوافذُ الصغيرة العالية قرب السقف مغلقةٌ، حاولتُ تسلُّق الجدار؛ لأفتحَ النافذة، ولكنَّها شديدةُ الارتفاع فعلقتُ بحافَّة النافذة، نظرتُ إلى الأرض فأصابني الدوار وأدركتُ بأنَّني أسقط لا محالة، انفلتت يدي وسقطتُ على ظهري، حاولتُ أنْ أنهضَ فتحرَّكتُ بصعوبةٍ، ثمَّ فتحت باب الغرفة على مصراعيه، ولمحت لولوة جالسةً في الفناء منشغلةً بملاحقة الذباب بمروحة السعف وساهيةً تفكِّر، يبدو أنَّها تفكِّر بمكائدَ جديدةٍ حيثُ أنَّ مكائدَها لا تنتهي للتخلُّص منِّي.

و سمعت صوت والدي، ولكنِّي لم أستطع الخروج خفت أنْ يضربَني؛ لأنَّني دخلت مجلسه، وبقيتُ واقفةً صامتةً في مكاني أترقَّب الوضع.

أقبلَ على لولوة وجلس بجانبها، وتلفَّت يمنةً ويسرةً، ثمَّ سرق قبلةً من خدِّها، صدمتُ من الموقف، لأوَّل مرَّةٍ أرى والدي يتخلَّى عن وقاره، بدت الحياة أمامي ضبابيَّةً ... !

ثـمَّ سـمعتُها تتحـدَّث مـع والـدي بـدلالٍ وتطلـب أنْ يبنـيَ لهـا مجلـس قهـوةٍ لاسـتقبال النسـاء .

قال لها والدي: أبشري.

قالت بشرط: أنْ يبنيه أخي عبدالله.

ولـي قصَّـةٌ مـع أخيهـا عبـدالله، فهـو بنَّـاءٌ يعمـل في بنـاء البيـوت و زخرفتهـا، وخاصَّـة المجالـس فقـد كانـت تأخـذ أكـبر نصيـبٍ مـن الزخرفـة بالأشـكال المختلفـة.

كلَّـف والـدي أخاهـا فعـلاً، وبـدأ البنـاء بسـرعةٍ، إلَّا أنَّ نوايـا عبـدالله لـم تكـنْ سـليمةً، فقـد كانـت فرصـةً ليدخـلَ بيتنـا كلَّ يـوم، ويبـدو أنَّ لولـوة اتَّفقـت مـع عبـدالله على شيءٍ لـم أفهمْـه في البدايـةً، وكلَّمـا حضـر عبـد الله تتعمَّـد أنْ تطلـبَ منِّـي أنْ أحضـرَ لهـا أيَّ شـيءٍ مـن الخـارج مـن أجـل أنْ أمـرَّ أمامـه، و عبـد الله لـم يكـنْ أقـلَّ لؤمـاً مـن لولـوة، وكلَّمـا مـررتُ على عجـل يستوقفني محـاولاً سـؤالي أو الحديـث عـن أيِّ شـيءٍ، وإذا لـم أجبْـهُ يرفـع صوتـه عاليًـا بالهجينـي، أو يعـترض طريقـي محـاولًا الإمسـاك بيـدي، فأهـرب منـه وأنـا أبكـي وأذهـب إلـى حـوش النخـل وأختبـئ خلـف الـزرع.

ما المغزى من حياةٍ كلها معاناة ؟!

كنـتُ أعـذِّب نفسـي بهـذا السـؤالِ دائمًـا، وأسـكب دموعًـا غزيـرةً وأنـا أرتعـد خوفًـا مـن كلِّ شـيءٍ حولـي، أخـاف الخديعـة والفقـد».

« أعلـمُ أنَّ أمِّـي غاضبـةٌ بسـبب الكثيـر مـن أحـداث طفولتهـا وصباهـا؛ ممَّـا أدَّى لقنوطهـا ممَّـن حولهـا، مـا زالـت تسـترجع كلَّ حياتهـا بـأدقِّ التفاصيـل، لا أعلـم عمـق المشـاعر التـي تحـسُّ بهـا، حيـث تفـرد ذكرياتُهـا الأليمـةُ أجنحتَهـا أكثـر ممَّـا يفـرد سـرب طيـورٍ أجنحتـه» ..!

تستطرد:

في أوقات الشتاء، كنَّا نجلس في الخارج بجانب النخيل والأرض الطينيَّة المغطَّاة بالقليل من الأعشاب، وبجانب النخيل يمتدُّ حوضُ الماء، وكلَّما رفعتُ رأسي أرى تداخل سعف النخيل بعضه ببعض وحركته الأنيقة بفعل الهواء وهو يتمايل ويلوح بالفضاء وكأنَّه يهدينا التحيَّات، كنتُ أنقِّل البصر فيما حولي، وكنتُ آنس بالنار التي نوقدها أحيانًا أمامي خاصَّة صوت فرقعاتها ودفئها الذي يتسلَّل لأطرافي فيصيبني بالخدَر ...!

«أحيانًا يغمرني شعورٌ بأنَّني ابنةُ النخيل، فأحاول جاهدةً أنْ أصلَ إلى ضوء الشمس».

ولا يقطع أفكاري عادةً إلَّا صوتُ لولوة !

رأتني مرَّةً مستغرقةً في التأمُّل فقالت:

بماذا تحلمين يا شيخة ؟.

يبدو أنَّها كانت تقرأ أفكاري..!

ـ هاه.

ارتبكتُ، هل أقول لها: إنِّي أحلم بأنْ أتحوَّلَ إلى نخلةٍ، أو طائرٍ حتَّى أطيرَ إلى نورة ؟» فأقبِّل والدي من بعيدٍ وهو يناديني بأعلى صوته: شيخة... شيخة.

لم أخفْ منه في هذه المرَّةِ؛ لأنَّني أحسستُ أنَّ نبرةَ صوته مختلفةٌ، اعتدلتُ في جلستي، وقف والدي بجانبي قائلاً:

استعدُّوا سوف نسافر إلى مكَّة؛ لأخذ عمرةٍ، فتحت فمي مندهشةً، وقلت: عمرة ؟!

نعم، سوف نذهب إلى الطائف ثمَّ إلى مكَّةَ لأخذ عمرةٍ، فقد دعانا زوج نورةَ وألحَّ عليّ كثيرًا متكفِّلاً بكلِّ شيءٍ.

لم أصدِّقْ أنَّ والدي وافق على السفر، حتَّى لولوة كانت مستغربةً جدًّا.

«في تلك اللَّيلةِ كنتُ أرقد في فراشي، ورأيت وجه نورة ينبثق من الظلمة وكأنَّها مختبئةٌ داخلي على الدوام، هاهي تحدِّق بي، أحسستُ بالقلق لوهلةٍ من تجربة السفر، ثمَّ ما لبثتُ أنْ شعرتُ بالحنين، وأخذني النوم بعد ذلك».

صوت لولوة من بعيد: شيخة استيقظي، وساعدي والدك في حمل الصناديق لتعبئتها بالتمر.

صحوتُ من نومي وأنا أحسُّ بالخفَّة والنشاط، وكأنَّ ثقلًا انزاح من على صدري، سمعتُ أصواتًا تجلجل داخل المنزل، إنَّه صوتُ موضي وزوجها جاؤوا لوداعنا، ثمَّ شرعتُ في رصِّ التمر في الصناديق، كانت أربعة صناديقَ متوسطة الحجم، ثمَّ بدأ والدي بإغلاقها بإحكام، ثمَّ طلب منِّي إحضار حبل لربطها حتَّى لا تتفكَّك، ذهبت للبحث عن حبل لكنِّي لم أجدْ.

سألت لولوة: أين وضعت الحبل؟

ـ أعطيتُه لأخي عبد الله عندما كان يبني المجلس الجديد، ولكن لا عليك اذهبي إلى جارتنا (أم صالح) واطلبي منها حبلًا، واسأليها إذا كانت قد انتهت من صنع (الكليجا و الإقط)».. لا تنسي المرور على (قماشة) فقد طلبتُ منها أنْ تخيطَ لنا ثيابًا جديدة.

ولأوَّل مرَّةٍ أحسستُ بالامتنان لـ لولوة..!

A+

(٦)

لـم أعـدْ مشـوَّشَ التفكيـر طـوال الوقـت، وأحـسَّ بالعرفـان لـروزالين التـي بفضـل أحاديثهـا المتواصلـة معـي تعلَّمـت كيـف أتحـدَّث اللغـة الانجليزيَّـة بطلاقـةٍ، وكيـف أحـاور بمنطـقٍ وإقنـاع ؟ وكيـف أكـون منظَّمًـا على كلِّ المستويات، ومدينـاً للوحـدة والعزلـة بإتاحـة الفرصـة للانفـراد بالكتـب والقـراءة، ومدينـاً أيضًـا لقسـوتي؛ لأنَّهـا سـاعدتني في ضبـط نفسـي وكبـح نـزواتي، وعندمـا أكـون في تجلِّيـات حالتـي الطبيعيَّـة أجلـس وأحتسـي الشـاي وأدخِّـن وأتابـع الأخبـار فقـط، فأحـسُّ أنَّنـي أفلتُ مـن الحاضـر إلـى زمـنٍ آخـرَ، وفي مـرَّةٍ وبينمـا أنـا جالـسٌ مسترسـلٌ في تأمُّـلاتي فاجأتْني طرقـاتٌ سـريعةٌ علـى بـاب غرفتـي، و صـوتُ السـيِّدة روزالـين جـاء مُتعبًـا:

– هل تسمح لي بالدخول.

– تفضَّلي.

–افتحْ قناةً تلفزيونيَّةً عربيَّةً.

– تفضَّلي بالجلوس أوَّلاً.

–حسنًا.

« فتحـت التلفـاز علـى قنـاة الجزيـرة، فبـدت السـيدة روزالـين مشـدودةَ الأعصـاب وهـي تسـتمع لمقـدِّم البرنامـج وهـو يحـاور ضيفـه، بـدا لـي الموضـوع عـن مصيـر الثـورات في العالـم العربـي ابتـداءً مـن ثـورة الياسـمين في تونـس، وثـورة مصـر في ٢٥ ينايـر، ثـمَّ ليبيـا، وسـوريا ..أعطتني السـيِّدة روز إحساسًـا فيّاضًـا بالامتـلاء والرضـا الـذي لا أحسُّـه إلا نـادرًا».

التفتت إليّ السيدة روز ورشقتني بابتسامةٍ هازئةٍ وهي تقول:

– يـا لهـذا العالـم الماكـر المبعثـر! و المكفَّـن بالكثير من الأسـرار، عالـم أوهـن مـن بيـت العنكبوت .

جمال: ولماذا تصدِّقين السياسيين؟

روزالين: أنا لا أصدِّقهم، أنا أتفرَّج على لعبتهم، وأتعجَّب من احترافيتهم ومهارتهم في إقناع العالم بوجهة نظرهم الكاذبة.

جمال: الفرجة نوعٌ من اليأس، وهدؤك العظيم يوحي بشيءٍ.

روزالين: آه.. تدهشني أحيانًا ببعض الحكمة ههه، أحيانًا أحسُّ بأنَّه قد حكم عليَّ بقدرٍ مشؤوم، هو أنْ أكونَ متفرِّجةً فقط.

جمال: هل جرَّبت أنْ تستدعيَ العَالم إلى مخيِّلتكِ، وتقومي بمحاكاته؟

روزالين: لا.

جمال: جرِّبي وسوف تتخلَّصين من كلِّ هذا الهراءِ.

روزالين: هراء... هل تسمِّين التضامن مع البشر ومشاكلهم هراءً ...! لن أردَّ عليك، ولكنِّي سوف أجرِّب نصيحتك العظيمة، ولكن هل سبق وقرأت عن سبب سقوط الإمبراطوريات على مرِّ التاريخ؟

جمال: الحقيقة أنَّني أصاب بالصداع كلَّما أطلت الحديث عن السياسة والتاريخ، أجد الامتلاء في عزلتي عن البشر.

روزالين: يا بُني ..

ما دورك في هذا العالمِ المتغيِّرِ ..هل فكَّرت قبل ذلك ؟

عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري كنت أعيش صراعًا بين رغبتي في تغيير هذا العالم الذي يضطهد بعضه بعضًا، وبين أنانيَّتي كفردٍ؛ فأميل دائمًا لرغبتي الأولى، وإنْ كان تحقيقُها متاحًا لي في عالم الخيال فقط والأماني، وهذا الميلُ مردُّه شعوريٌّ بالقرب من الفقراء والمعذَّبين والمطحونين، وعندما كبرت أدركت أنَّ التغييرَ يأتي من داخلي بإيماني بأنَّني فعلًا أستطيع الإسهام في التغيير، وكانت الكلمة هي سلاحي، فبدأت بمراسلة

الصحـف والكتابـة عـن قضايـا المسـحوقين والمسـتعبدين في هـذا العالـم، وبعدهـا بـدأت بالإسـهاماتِ الماديَّـة، حيـثُ اسـتطعت أنْ أكـونَ شَـريكةً ومسـاهمةً في بنـاء العديـد مـن المـدارس في إفريقيـا؛ لأنَّ التعليـمَ هـو الـذي يغيِّـر الحيـاة، ولا تتوقَّـع أنِّـي لا أجـد تحدِّيـاتٍ، بـل أجـد مقاومـةً مـن المتنفِّذيـن وأصحـاب المصالـح، وعنـد نقطـةٍ معيَّنـةٍ أصطـدم بجـدار الواقـع فيحبـط الإنسـانُ بداخلـي، ولكنِّـي لا أتوقَّـف مـن أجـل العاجزيـن والمهمومين.. الحقيقـة أنَّ الجشـعَ والأنانيَّـةَ تجعلـك بدائيًّـا و متوحِّشًـا و لا إنسـانيًّا.

جمـال: أنـا لا أكـترث كثيـرًا لهـذا العالـمِ، ولكنِّـي أعـترف بأنَّـكِ هزمتنـي الآن..

روزاليـن: الاعـتراف بـدون قناعـةٍ مثـل الحقيقـة ذات الوجهيـن تُولـد مشـوَّهةً كالمسـخ ذي الرأسـين.

جمـال: دائمًـا تصعِّبيـن عليَّ الأمـور، وبصراحـةٍ أنـا لا أسـتوعب تفاعلـكِ مـع النـاس دون مقابـل.

حدجتْني روز بنظرةٍ غاضبةٍ، ثمَّ غادرت دون أنْ تنطقَ بكلمةٍ !

أحسسـتُ بالذنـب، فخرجـتُ في إثرهـا، ولكنِّـي بعـد خطـواتٍ قليلـةٍ آثـرتُ تركهـا حتَّـى تهـدأ وعدلـت مسـاري نحـو الخـارج، فأطلقـتُ العنـان لقدمـي دون هـدفٍ. أردتُ طـردَ مشـاعري السـلبيَّة وحسـب، بـدت نيويـورك مغمـورةً بالضبـاب ومغتسـلةً بالمطـر، وأنـا أجـول بنظـري ويجـول بـي فكـري، فتذكَّـرتُ موعـد حفلـةٍ موسـيقيَّةٍ دعـاني إليهـا السـيِّد إدوارد صديـق روزاليـن، ويلزمنـي عـدم التخلُّـف عـن موعدهـا ..

عندمـا أسـير في الشـوارع تسـتلمني المفارقـات والمقارنـات بيـن الشـرق والغـرب ويجتاحنـي أحيانًـا حنيـنٌ جـارفٌ إلـى غرفتـي المتقشِّـفة الشـبيهة بغرفـة زاهـدٍ أو ناسـكٍ، وقهـوة جـدَّتي وخبزهـا،

وصوت جارتنا صالحة، أفتقد حياتي هناك فعلاً، ... هانت .. قريبًا سوف أعود!

عليَّ إنهاءُ بعض الواجبات قبل موعد الحفلة، وضميري يؤنِّبني والشعور بالذنب يلازمني؛ لأنَّني قرَّرت حضور هذه الحفلةِ مجاملةً لروز ولصديقها!

أذكر أوَّل مرَّةٍ قابلت إدوارد، كنتُ عائدًا من الجامعة متعبًا، ولكنِّي في الوقتِ ذاتِهِ كنتُ سعيدًا جدًّا فقد تحصَّلت على علامة (A+) في مقرَّرٍ بالغ الصعوبة كنتُ متخوِّفًا من إخفاقي فيه، وكان من عاداتي غيرِ المنتظمة التعريجُ على مقهى (آرت) لتناول الغداء، ولم يكنْ من عادتي الارتباطُ بأحدٍ أو مواعدة أحدٍ، وفي المقهى أتناول غدائي أو القهوة وأدخِّن، كنتُ أختار مكانًا منعزلًا و حركة العاملين والزبائن و دخول الناس وخروجهم، و لم أصادقْ فيه إلَّا النادلةَ البدينة إيميلي ذات الشعر الذهبي المسترسل، والعينين الصغيرتين الحادتي النظرات، و التي لم تكنْ تبدِّل تنوُّرتها البيج، ولا تغيِّر تسريحة شعرها المرفوع إلَّا من خصلةٍ تتدلَّى على يمين وجهها البيضاوي، ونادیا عاملة النظافة اللَّاتينيَّة، دخلتُ مسرعًا واتَّجهتُ ناحية إيميلي، وطلبتُ منها تجهيز وجبةٍ خاصَّةٍ لي، فسوف أحتفل مع نفسي وعندما استدرتُ متوجِّها نحو طاولتي المعتادة لمحتُ في الجهة المقابلة روزالين وهي تناديني وتلوح لي بيدها مبتسمةً، فتوجَّهت نحوها فإذا بجانبها رجلٌ خمسيني ممتلئٌ قليلًا اختلط السواد والشيب في رأسه فبدا شعرُه رمادي اللون، ولمَّا وصلتُ إليهما وقفا لتحيَّتي ..

روزالين: مرحبًا يا جمال، أعرِّفك على صديقي ومحرِّر كتابي إدوارد.

إدوارد: مرحبًا يا صاح، تشرَّفنا أهلاً وسهلاً.

ـ مسرورٌ جدًّا بلقائِكما.

روزالين: تفضَّل يا جمال بالجلوس، بإمكانك الانضمامُ إلينا.

ـ بكلِّ سرورٍ، وجلست مقابلًا لإدوارد.

روزالين: ماذا لديك يا جمال هذا اليوم؟ تبدو سعيدًا على غير العادة ههههه، يبدو أنَّك وقعت في الحبِّ .. وغمزت لي ثمَّ أكملت: هكذا يكون الإنسانُ في بداية الحبِّ وعذوبته.

جمال: هه.. لا، ولكنِّي حصلت على علامة (A+) في مادَّةٍ صعبةٍ.

روزالين: أخبرتكَ مرارًا بأنَّ لديك قدراتٍ، ولكنَّك لا تريد الاستفادة منها .

جمال: أرجوك ياروز لا تفسدي مزاجي الجيِّد ههه.

روزالين موجِّهة الكلام لإدوارد: غالبًا ما أدخل في نقاشاتٍ حول أحوال الشرق الأوسط، وبالذات العالم العربي والثورات التي هزّت كيانه مع جمال، لكنَّ جمال يستكثر أو لا يصدِّق أنْ يجدَ في الغرب مَنْ يهتمُّ بأحوال الناس في الشرق وتسيطر عليه نسبيًّا نظريةُ المؤامرة عندما يسمع تصريحاتِ الناشطين أو بعض السياسيين في وسائل الإعلام.. جمال يعتقد أنَّه ليس من حقِّ أحدٍ أنْ يتدخَّل بين الحكومات وشعوبها والغرب بالذات!

إدوارد: أتمنَّى أنْ يقرأ جمال كتابك يا روزالين بعد أنْ ننتهي منه.. حتمًا سيفتح شهيَّته للبحث والقراءة المتعمِّقة عن المنظَّمات الحقوقيَّة و عن دور مؤسسات المجتمع المدني في نصرة قضايا الإنسان دون هدفٍ أو منفعةٍ خاصَّةٍ .

جمال: لم تخبريني أنَّكِ عاكفةٌ على تأليف كتابٍ، ولكن ما موضوعُ الكتاب بالضبط ؟

روزالين: كنتُ أعمل طوال الوقت على كتابي (ذل وتوحش) هذا الكتاب الثالث لي يا جمال، الأوَّل والثاني كانا متخصِّصين

في الآثـار، أمَّـا هـذا الكتـابُ فهـو يتطـرَّق إلـى عـدَّة محـاور، منهـا الأسـبابُ وراء ظهـور هـذه الفاشـيةِ الدمويَّـة وتوحشـها في العالـم العربـي، و لمـاذا جعلـت الثـوراتُ العسـكريَّةُ العالـمَ العربـيَّ يتأخَّـر، وأحـد المحـاور كان يسـعى لتحليـل الشـخصيَّة العربيَّـة بنـاءً علـى دراسـاتٍ ومقابـلاتٍ مـع مختصِّيـن.

إدوارد: ولا تنسي المحور الأخير، استشراف الرؤية المستقبليَّة للعالـم العربي.

جمـال: يبـدو أنَّـه كتـابٌ مليءٌ وثـريٌّ، ولكـن يجب ترجمتُه للَّغة العربيَّة حتَّى يصلَ للكلِّ.

إدوارد: فكـرةٌ جيِّـدةٌ، سـوف أدوِّنهـا وأضعهـا مـع خطَّـة تسـويق الكتـاب لاحقًـا.

روزاليـن: لا يُمكـن للإنسـان أنْ يعيـشَ ويربـطَ حاضـرهُ بـكلِّ تداعيـات الماضي، يجب عليه امتلاكُ أدواتٍ؛ للنفـاذ إلى الحاضر لإعـادة الحيـاة لـه والبحـث عـن وسـائلَ لإصـلاح عالمـه االـي والتطلُّـع لمسـتقبلٍ أفضـل .

إدوارد: أحسـنتِ روزاليـن أنـت تسـتخدمين التحليـل الواعـي للاسـتفادة مـن المشـاعر والإسـقاطات في اللَّاوعـي، وعندمـا يلتقـي البشـر عنـد نقطـةٍ واحـدةٍ، فـكلُّ مـا هـو مدفـونٌ باللَّاوعـي يتشـابه عندهـم، فتكـون ردَّةُ فعلهـم متشـابهةً، ويُمكـن التنبُّـؤ بهـا أحيانًـا.

جمـال: ومـع أنَّنـي أحـاول مجاراتكمـا، لكـن مـاذا لـو لـم ينجـح الكتـاب؛ خاصَّـة أنَّـه سـيمسُّ أطرافًـا كثيـرةً ؟!

روزاليـن: لا عليـك، فالمعارضـون كثيـرون في هـذه الحيـاةِ، والمتهكِّمـون أكثـر، وأنـا لا أهتـمُّ أنـا أسـجِّل رأيـي بنـاءً علـى واقـعٍ وإحصـاءاتٍ، وأعتـبر هـذا جـزءًا مـن المسـؤوليَّة الأخلاقيَّـة تجـاه هـذه المجتمعـاتِ المطحونـة، والتـي يحـقُّ لهـا أنْ تعيـشَ بسـلامٍ وكرامـةٍ وأمـانٍ.

انتهى حديثُنا بالابتسامات و بعبارات الوداع المعتادة، قمتُ وأنا شارد الذهن، و أحسستُ بجفافٍ في حلقي وشيءٍ من المرارة، ولا أعلم لماذا تغيَّر مزاجي بعد حديثهما؟ وتغشاني شعورٌ بالخجل يعتريني عادة مع السيِّدة روز وأحاديثها .. وأبدو أمام نفسي كمَنْ لا يعرف ماذا يريد من هذه الحياةِ، أو لا يعرف حقيقة نفسه، ويحتاج بشدَّةٍ لفهم مَنْ يكون !

ما أعرفه عن نفسي هو أنَّ الغبارَ يسبِّب لي تحسُّسًا و أزمةً صدريَّةً، و قد أرقد في المستشفى على أثرها، والشمس تسبِّب لي الكآبة، والشعور بالذنب وبالظلم هما صديقاي اللَّذان يلازمانني طيلة الوقت، أتذكَّر أصدقائي في المدرسة وفي الجامعة وأتساءل كيف يشعرون بالاستحقاق لكلّ شيءٍ حولهم؟ أريد أنْ أجرِّبَ شعورهم وهل أنا أستحقُّ كلَّ الأشياء الجيِّدة في الحياة، كيف أتغلَّب على مشاعري الكريهة هذه ؟!

ذات يوم سبتٍ من مايو عام ٢٠١٢ وعند الساعة السادسة مساءً، كنت قد وصلت إلى الشارع رقم ٥٢ على مقربةٍ من مسارح «برودواي»، حيثُ ظهرتْ أمامي منتصبةً قاعةُ روزلاند بولروم « الموسيقيَّة للحفلات، كانت هي مكان الحفل الذي دعاني إليه إدوارد، ولمَّا دلفتُ إلى القاعة أصبتُ بالذهول فقد كانت القاعةُ مبهرةً وكبيرةً، دخلت وأنا بين الانبهار وبين الخوف من الأماكن الواسعة، و بدأ العرق يُرى وهو يرطِّب شعري، وعيناي تتَّسعان، أمَّا عضلات وجهي فقد تشنَّجت، أحسست بحرقةٍ في حنجرتي، وبدأتُ أتحسَّسها بأصابعي التي تيبَّستْ و لم أستطع الاحتفاظ بمرونتها وليونتها، ووسط أحاسيسي الهائجة وتوهاني ووقوفي مشدوهًا لأعرفَ لي اتجاهًا، أمسك بكتفي فجأةً إدوارد ضاحكًا مرحِّبًا، ووجَّهني نحو مقعدي في الصالة،

جلست في مكاني وأنا لا أعرف من سيحيي الحفل ولم أهتمّ في الواقع وبقيتُ مرتبكًا ومشدوهًا، ومشاعري متضاربةٌ بين أنْ أستمتعَ بوجودي في هذا الحفل وبين ما تعوَّدت عليه من رغبةٍ في الانعزال والانطواء والبعد عَن الأضواء والصخب!

لن يفهمَ إدوارد و روزالين، و لن يستوعبا أو يتفهَّما مشاعري الخجلة الوجلة ورغبتي في الهروب من هذا المكانِ المليء بالآثام كما صوَّرت لي تربيتي بأبعادها الدينيَّة والاجتماعيَّة.

وبعد قليل انضمَّ إلى روز وإدوارد وجلسا عن يميني ويساري، بدأ إدوارد يتحدَّث ببطءٍ وبدا شغوفًا وهو يشرح تاريخ القاعة، وكيف بدأت ومّنْ من المشاهير أحيا حفلاتٍ فيها، بدا لي كشخصٍ أقابله لأوَّل مرَّةٍ !

روزالين: أحاول يا إدوارد انتزاع جمال من تقاليده المتقشِّفة ههه و إيقاظه سياسيًّا، وتغيير أحكامه الجاهزة تجاه الحياة، و تفكيره الحاد المشوَّش؛ لأنَّه إذا استسلم فلن يعيشَ بسلام في هذا العالم القاسي، تذكَّرْ يا جمال كنت قد أخبرتك بأنَّني أتنبَّأ لك بحياةٍ ناجحةٍ بعد عودتك لبلدك، كنتُ مرتبكًا ومشوَّشًا وتتظاهر بتصديقي، وأخيرًا وثقت بي..

إدوارد: تبدو لي على قدرٍ من الغموض الإرادي إلَّا أنَّك كما يظهر لي من الشخصيَّات التي لا تعيش إلاَّ بتحدٍّ عالي التوتُّر؛ لتثبتَ وجودَها في هذا العالم، لا تنقصك القدراتُ بل تحتاج كشابٍّ إلى الثقة المشوبة بالحذر في هذا العالم .

لم أهتمّ لحوارهما، فقد كان هناك وخزٌ في صدري ونبضاتي تتسارع وأنا أترقَّب حضور المغني وبداية الحفل الغنائي الصاخب، وماهي إلا دقائق ليعلنَ المنسَّقُ حضور المطرب وسط صخبٍ وهتافٍ يصمُّ الآذان، وبدأ المطرب يصدح بالغناء

وسط ضجيج الجمهور والفرقة الموسيقيَّة، فبدأت أنفاسي تتسارع وأصابني الهلعُ مع ارتجاج الأرض من تحتي على وقع الإيقاع المدوي ورقص الجمهور الهادر، و لا أعلم لماذا خشيتُ أنْ تخسفَ بنا الأرض فنهضت و خرجت مسرعًا لا ألوي على شيءٍ، و النفس اللَّوامة تحرِّكني، تخيَّلت منظري تحت ركام زلزالٍ سيحدث !

ودون وعيٍ انتهيتُ مختبئًا في سريري في تلك اللَّيلةِ و خلدتُ للنَّوم وكأنَّني طائرٌ كفَّ عن التحليق وسقط في الفراغ الموحش.

سَـفر ورحيل

(٧)

ياه ها هو إذن اليوم الموعود للسَّفر يا نورة !

أعـددتُ مع لولـوة طعـام الإفطـار، وفي الوقـت نفسِـهِ كان والـدي يحـزم أمتعتنـا الكثيـرة في سـيَّارة عبدالعزيـز الابـن الوحيـد لصديـق والـدي فهـد بـن صالـح، كمـا قالـت لـي لولـوة حينئـذٍ.

كانـت تلـك أوَّلَ مـرَّةٍ أركـب سـيَّارةً، والسـيَّارة كانـت عبـارةً عـن وانيـت كبيـرةٍ مرتفعـةٍ عـن الأرض ذات كبينـةٍ مزدوجةٍ وحـوض أمتعةٍ كبيـرٍ، ركبـتُ في المقاعـد الخلفيَّـة أنـا ولولـوة ووالـدي في المقعـد الأمامـي بينمـا وقفـت موضـي وزوجهـا وبعـض الجيـران ملوِّحيـن مودِّعيـن، التفـت عبدالعزيـز نحـو والـدي ليسـتأذنَهُ في الانطـلاق، وليديـرَ محـرِّك السـيَّارة ورأيـت وجهـه في التفاتتـه تلـك، نعـم وجهُـهُ مألـوفٌ لـديَّ وعيناه العسـليَّتان لا أسـتطيع نسيانهما، نعـم إنَّـه هـو ..!

تذكَّـرت أنَّنـي التقيـت بصاحـب هـذه النظـراتِ الدافئـةِ عنـد قليـب الفيضـة قبـل أربـع سـنواتٍ، وهـا هـو أمامـي الآن !!

انطلقنـا و بعـد حديـثٍ قصيـرٍ بيـن والـدي وبيـن عبدالعزيـز، سـاد صمـتٌ طويـلٌ داخـل السـيَّارة، ومـع أنَّنـي لـم أنـمْ جيِّـدًا إلاَّ أنَّنـي كنـتُ في غايـة النشـاط والسـعادة، كنـت أراقـب الطريـق، وكلَّمـا مـرَّت سـيَّارةٌ أوشـوش لـلولوة معلِّقـةً تعليقًـا سـاخرًا فتنكـزني لولـوة في خاصـرتي لتسـكتني!

وفجـأةً قطـع عبـد العزيـز هـذا الصمـتَ بسـؤاله لوالـدي عـن عمـر مقـبرة القريـة التـي مررنـا بهـا قبـل قليـل.

التفت والدي ناحية عبدالعزيز قائلاً:

هـذه المقـبرة ابتلعـت كلَّ أحبابـي، والـدي و والـدتي، وأخـي عمـر الـذي تُـوفي بالسـل، ثـمَّ أم بنـاتي.

أحسست بحركةٍ لا إراديَّةٍ من لولوة عندما ذكر والدي أمي، يبدو أنَّ لولوة فعلاً تحبُّ والدي، وإلَّا كيف تغار من ذكره أمِّي المتوفَّاة ؟

أخذ الحوار بين والدي وعبدالعزيز يتشعَّب، وكنتُ أراقب عبدالعزيز هذا الغريبَ القريبَ، شخصيَّته ظريفة جدًّا، كان باسمَ الوجه طوال الوقت ويحكي قصصًا كثيرةً ممتعةً، فيها الكثير من الحكمة، حكمةٍ من خبر الدنيا وجرَّب الناس.

أراقب ملامح والدي وقد تغيَّرت وانفردت انبساطًا، والدي يضحك كثيرًا مع عبد العزيز، ما أجمل والدي عندما يضحك! تتهلَّل ملامح وجهه، و يبدو مغتبطًا جدًّا.

«يُخيَّل إليَّ أنَّ والدي وجد فيه الولد الذي لم ينجبْه، فقد كان يعتقدُ أنَّنا نحن البناتُ عبءٌ عليه و لو لم يتحدَّث».

عبدالعزيز يبدو في الخامسة والعشرين من عمره ومقبلٌ على الحياة وجُلّ أحاديثه تدور حول العمل والسفر؛ لأنَّه سافر كثيرًا، لذلك توافق مع والدي الذي يقدِّس العمل.

رحلتنا كانت طويلةً، ولكنَّها ممتعةٌ، في بعض الأوقات كنتُ أغفو قليلاً على كتف لولوة، وأصحو وهي تدفعُني لأجلسَ باعتدالٍ وهي تهمس غاضبةً:

عيب .. لا تنامي بحضرة رجلٍ أجنبيٍّ !

فأعتدل في جلستي ولا أردُّ عليها، وبعد يوم طويل شاقٍّ ومشوّقٍ وصلنا إلى مشارف الطائف قُبيل الغروب، عبرنا مدخل الطائف وبعدما سلكنا أكثر من طريقٍ مررنا بقصرٍ جميل أخبرنا عبدالعزيز أنَّه قصر شبرا، كنت أتأمَّل المباني والأضواء والفوانيس الجميلة.

دهشتُ من حجم البيوت الكبير والشوارع المعبَّدة ومن الجبال وخضرة الشجر التي تلقي بطابعها الخلَّاب على المكان

والهـواء المنعـش الرطـب، ثـمَّ بـدأت بطـرح الأسـئلة علـى والـدي، إلَّا أنَّـه نهـرني قائـلاً: أنـا مثلـك أزور الطائـف لأوَّل مـرَّةٍ ولا أعـرف فيهـا شـيئًا.

أحسسـتُ بالخجـل مـن عبدالعزيـز وودتُ لـو اختفيـت في تلـك اللَّحظـاتِ، توقَّـف عبدالعزيـز علـى جانـب الطريـق وفتـح نافـذة السـيَّارة واسـتوقف أحـد المـارَّة و سـأله عـن حـيٍّ قـرويٍّ (الخالديـة فيمـا بعـد) حيـث تسـكن نـورة، فدلَّنـا عليـه و انطلقنـا حسـب وصفـه، وبعـد دقائـقَ دلفنـا إلـى الحـي، كان منظـرُ الجبـال المحيطـة – وقـد بـدا يكسـوها الظـلام – مهيبًـا ومخيفًـا، وبعـد توقُّفـاتٍ عديـدةٍ وسـؤالٍ للمـارَّة عـن المنـزل أرشـدنا أخيـرًا للعنـوان المطلـوب صاحـبُ دكَّانٍ في طـرف شـارعٍ متعـرِّجٍ ضيِّـقٍ، وهـا قـد وصلنـا يـا نـورة !

ذهلـتُ عندمـا توقَّفنـا عنـد بـاب المنـزل، فقـد كان المـكانُ جميـلًا محاطًـا بالشـجيرات والـزروع مـن عـدَّة جهـاتٍ والشـارع نظيـفٌ وهـادئٌ.

كان البـابُ مواربًـا، طـرق والـدي البـابَ بيـده، ثـمَّ دخـل ودخلنـا وراءَه، بـدأتُ ألتفـتُ يمنـةً ويسـرةً، هنـا أبـوابٌ جميلـةٌ مزخرفـةٌ، وحديقـةٌ داخليَّـةٌ صغيـرةٌ، كان بيتًـا أنيقًـا لـه شـبابيك كثيـرةٌ ذات فتحـاتٍ صغيـرةٍ متداخلـةٍ، بعضُهـا مفتـوحٌ، وبعضُهـا مغلـقٌ ولـم أتمكَّـن مـن مشـاهدة شـيءٍ خلـف الفتحـات ! كان منظـرُ الأشـجار الرفيعـة الطويلـة الأسـطوانيَّة الشـكل في الحديقـة غيـرَ مألـوفٍ بالنسـبة لـي، طلـب منَّـا والـدي الدخـول إلـى غرفـةٍ كبيـرةٍ قـرب المدخـل كانـت هـي المجلـس، كان قلبـي يخفـق بشـدَّةٍ لأنَّنـي سـألتقي نـورة، وماهـي إلَّا لحظـاتٌ حتَّـى خرجـت لاسـتقبالنا هاشَّـةً باشَّـةً مرحِّبـةً بابتسـامتها الجميلـة ووجههـا الشـاحب المتعـب مـن آثـار الحمـل الـذي حـوَّل جسـدها الرشـيق إلـى مـا يشـبه البطيخـة الصغيـرة!

وقفت نورة أمامي ولم أستطعْ أنْ أضمَّها، فقد كان بطنُها المتكوِّرُ عائقًا بيني وبين ذلك، تحسَّست وجهي بأصابعها الطويلة، ثمَّ أمسكت بيدي وانطلقنا لتريني منزلها و الغرفة التي سوف أنام فيها.

و كانت ليلةً مبهجةً على الرغم من التعب!

وفي اليوم التالي أخذتنا نورة في جولاتٍ على أسواق ومحلَّات الطائف العديدة، وبالقرب من شارع - أخبرتنا أنَّه شارعُ السلامة - توقَّفنا عند متاجر صغيرةٍ تبيع الذهب الخالص، واشترت لي عقدًا صغيرًا و إسوارةً وخاتمًا، نورة كغيرها من النساء تحبُّ اقتناء الذهب، وكانت لا تخلع البناجر (أساور ذهبية ذات استدارة مضلَّعة) إلَّا للضرورة، ومع أنَّها حاملٌ ومتعبةٌ إلَّا أنَّها كانت قويَّةً كالعادة أو قاومت الإجهاد والتعب من أجلنا وفرحت بنا.

مكثنا عند نورة قرابة عشرة أيَّام مرَّت سريعًا، كانت هذه الأيامُ بالنسبة لي مثل أيَّام في الجنة، هذه الأيَّام أعادت لي الأمان النفسي والسكينة، فنورة ماتزال على الرغم من تعبها ومسؤولياتها واستقلالها بحياتها بعيدًا عنَّا تعاملني كطفلتها الوحيدة .

«كلَّما أمسكت بيد نورة تنشال مشاعري وتزهر، ليتني أعيش مع نورة هي أمِّي الحقيقيَّة، فأنا وعيت على الدنيا وهي أمامي ترعاني وتعلِّمني وتحنو علي».

كنتُ شغلَ نورة الشاغل وكلَّ يوم تُكرِّر وصيَّتها للولوة بي، وتؤكِّد عليها أنْ تعتنيَ بي وبوالدي جيِّدًا، كان خوفُها عليَّ وعلى أبي وعلى حسن ظاهرًا جدًّا .

وفي كلِّ مرَّةٍ تردُّ لولوة بكلِّ جفاءٍ، شيخة الآن كبيرةٌ، ولا خوفَ عليها !

أعرف لولوة أكثر من أيِّ أحدٍ وأعرف الغيرة التي تنتابها من

كلِّ أنثى حولها، فلم أستغربْ غيرتَها من نورة وحياتها السعيدة.

بعدما وصل الملل بلولوة مداه، بدأت تلحُّ على والدي برغبتها في العودة إلى قريتنا، إلَّا أنَّ والدي كان يمهلها ويقول:

– بعد العمرة إن شاء الله سنعود.

ذهبنا إلى مكَّةَ لأداء العمرة مع حسن زوج أختي نورة، على الرغم من رفض والدي في البداية؛ لأنَّ نورة كانت في شهرها الأخير، لكن حسن أصرّ على مرافقتنا، وبعدما أدَّينا العمرة مكثنا في مكَّةَ يومين، ثمَّ عدنا في اليوم الثالث إلى الطائف كنت خلالها قلقةً على نورة، فالتَّعب والإنهاك كانا يلازمانها، وعندما وصلنا إلى الطائف وجدنا نورة طريحة الفراش منهارةً وفي البداية لم نتبيَّنْ أهي بوادرُ المخاض، أم أنَّ خطبًا ما ألمَّ بها !

وازداد خوفُنا عندما عرفنا من الخادمة أنَّها منذ يومين وهي على هذه الحالة الصعبة.

ارتجّت أرجاء المنزل وامتلأت بالضوضاء، كان والدي قلقًا جدًا، نظرتُ إليه بحثًا عمَّا يطمئنني فوجدت ملامحه قد تجهَّمت وأطبق عليه الضيق، جلس على هذه الحالِ في زاوية المجلس والصمت يخيِّم عليه، ولأوَّل مرَّةٍ تمنَّيت أنْ أرتميَ بأحضانه، كان محتاجًا إلى مَنْ يحنو عليه».

أمَّا حسن فقد كان في حالةٍ يرثى لها، يضجُّ صوته في الأنحاء والقلق على نورة يسيطر عليه، وبين الخوف والرجاء خرج مسرعًا لا يلوي على شيءٍ، وبعد قرابة الساعة عاد ومعه الطبيب واتَّجها فورًا إلى غرفة نورة، أمَّا لولوة فأخذتْ تحاول تهدئتنا أثناء تحضيرها لبعض الأعشاب والخلطات مثل منقوع القرفة وكانت تردِّد: إنَّ الوضعَ طبيعيٌّ فهذه حالة ولادة، وطبيعيٌّ ما يحصل لنورة في هذه الحالةِ.

أسقط في يدي فليس لدي خبرة أو معرفة أو ماذا يمكن أنْ أفعلَ في هذه المواقفِ، كاد قلبي أنْ يخرجَ من صدري جزعًا وهلعًا، فلا أريد أنْ أرى نورة تتألَّم أو أنْ يمسَّها الضرُّ، كانت صرخاتُها تزداد، فيزداد ألمي ومازال الطبيبُ عند نورة، مضت قرابة الساعة وهي لا تزال تئنُّ تارةً وتصرخ تارةً ومع صوتها المتألِّم يتصاعد الرعب في المنزل، كنت أذرع المنزل مقبلة مدبرة، وأبكي وأدعو وأتوسَّل أنْ ينجيَها الله ممَّا هي فيه، الحالة كانت صعبةً، ويبدو أنَّ الولادةً متعسِّرةً ووضعها الصحي حرجٌ جدًّا، بعد ذلك انتظرنا ستَّ ساعاتٍ، وهي ما بين متيقِّظةٍ وغائبةٍ عن الوعي وبدا جسدُ نورة المنهكُ غيرَ قادرٍ على التحمُّل، ... وقُبيل الغروب وكحمامةٍ كفَّت عن الطيران، فارقت روحُها الطاهرةُ جسدَها المتعبَ هي وجنينها الذي لم يرَ النور !!

وبعد نوبات صراخٍ وبكاءٍ وعويلٍ، خيَّم الوجوم والذهول على كلِّ مَنْ في المنزل، الكلُّ كان غيرَ مصدِّقٍ، الوجوه متجهِّمةٌ والدموع تغطِّي المآقي ..آه يا نورة يا حبيبةَ قلبي أتتركينني لِمَنْ؟! للوحدة والعذاب؟!

ولنفسي التي تتوعَّدني بألف طعنةٍ من الوجع بدونك؟!

أحسستُ أنَّ بداخلي شعورًا يتثاقل يجذبني نحو الأرض بقوَّةٍ، وكلُّ الأشياء حولي تتحرَّك، وتزيد سرعتَها، أهوي بتثاقلٍ وخطاي جامدةٌ، مُؤلمٌ أنْ تفقدَ ذاتك في الوقت الذي تحتاجها فيه وبشدَّةٍ لا شيء حولي يُنبِّئ أنَّني بخيرٍ، توقَّف كلُّ شيءٍ بالنسبة لي، ولم أعدْ أرغب في الاستمرار في الحياة !

توقَّف عمري هناك عند ذكريات نورة ..!!

«انهمرتْ دموع أمِّي حارَّةً، وكأنَّ نورة قد ماتت للتو» ..!!

مسحتُ دموع أمِّي وحضنتُها بقوَّةٍ، وكأنِّي أحاول حمايتها

مـن الألـم، ناولتهـا شـراب الزنجبيـل لتبـلَّ ريقَهـا، وطلبـتُ منهـا أنْ تتوقَّـفَ عـن الحديـث، ولكـنَّ أمِّـي رفضـت واسـتأنفت قصَّتهـا بأبيـاتٍ مـن الشـعر:

يا إلهي خذ بيد قلبٍ سـليم ... عن عذابك يوم للخلق ازدحام
من بحر مجدك وجودك ياكريم ... نفحة نَسعَد بها دوم الدوام
أنا دُست الخطايا من قَـديم ... طالبك صفحك وعفوك لي ختام
الهوى والنفس أغواها الرجيم ... ونشر فضلك واسع ذا والسلام
ذا وصلى الله على طه اليتيم ... وآله والصَحب ما هل الغَمام
عدد من طاف بالبيت القديم ... بين زمزم والحجر هو والمقام
كل ابن أنثى ولو طال سليم ... لا زم يشرب بكاسات الحِمام[1]

ثـمَّ أسـندتْ رأسـها ونظـرتْ إلـى الأعلـى وكأنَّهـا تهـرب مـن شـيءٍ غامـضٍ وأكملـت قصَّتهـا:

عدنـا إلـى قريتنـا بعـد دفـن نـورة بأيَّـام، ليقيـمَ والـدي العـزاء في بيتنا، انزويـتُ بيـن بـكاءٍ و ذهـولٍ، وطويـلًا جـدًّا لـم أصـدِّقْ أبـدًا مـا حـدث !

أمَّـا أختـي موضـي فقـد انهـارت تمامًـا فلـم تفقـدْ أختًـا وحسـب، بـل فقـدت تـوأم روحهـا، كانتـا متقاربتيـن بالعمـر وبكلِّ شـيءٍ تقريبًـا، وكلُّ ذكرياتهـا منـذ وعـت علـى الدنيـا تشـكِّل نـورة جـزءًا منهـا.

مضـت الأيـام والأشـهر وأوقـاتي رماديَّـةٌ، والحيـاة ذابلـةٌ في عينـي ألمًـا علـى نـورة ! وفي صبيحـة يـوم جمعـةٍ لا أنسـاه جـاءني والـدي يخـبرني أنَّ عبدَالعزيـز (سـائق الوانيـت) قـد جـاء يخطبنـي، لـم أرفـضْ ولـم أقبـل، اكتفيـتُ بالصمـت حتَّـى لـم أفكِّـرْ كثيـرًا بالأمـر، فقـط فكَّـرت في نـورة، هـل يحـقُّ لـي الفـرح بعدهـا !!

---

(١) للشاعر محمد القاضي رحمه الله ، ولد في عنيزة عام ١٢٢٤ هـ وتوفي بها عام ١٢٨٥ هـ عاش حوالي ٦١ سـنة كان مشـهورا بالخصال الحميدة و حسـن الخلق والكرم

ثـمَّ فكَّـرت في أنَّهـا ربَّمـا لـو كانـت موجـودةً كانـت سـتفرح مـن أجلـي كثيـرًا، حلمـت قبـل مـوت نـورة كمراهقـةٍ بعبـد العزيـز زوجًـا لـي ذات يـوم، إلَّا أنَّـه يـأتي الآن وأنـا مثقلـةٌ بسُـحُب الحـزن، بكيـت وقتهـا بـكاء العاجـز عـن الشـعور بالفـرح الكامـل أو الاسـتمتاع بـه، أحسسـتُ بـأنَّ كلَّ شـيءٍ في الكـون يمـدُّ لسـانه سـاخرًا منِّـي، وجسـدي ينـزّ عرقًـا، إلاَّ أنَّ والـدي دنـا منِّـي وقـرَّب شـفتيه مـا بيـن أذني وعنقـي ووشـوش لـي أنْ لا أخـافَ مـادام حيًّـا و همـس لـي بعاطفـةٍ جيَّاشـةٍ نـادرةٍ أنَّـه يخـاف عليَّ كثيـرًا!

لأوَّل مرَّةٍ بعد سنواتٍ عجافٍ يبوح بمشاعره كأبٍ عطوفٍ!

شـعرتُ بالراحـة قليـلاً، وأطرقـتُ قليـلًا، ثـم هـززتُ برأسـي موافقـةً دون أنْ أنبسَ ببنـت شـفةٍ، مـرَّ كلُّ شـيءٍ بعدهـا سـريعًا فمـا هـو إلَّا شـهرٌ مـن الزمـان تقريبًـا حتَّـى تزوَّجـت والـدك! كان والـدُك رجـلاً طيِّبًـا وكريمًـا واسـع الأفـق ولا تهزمـه الدنيـا، ينتصـر علـى الصعـاب بابتسـامةٍ جميلـةٍ، وعيناه تشـعَّان بالحيـاة وتغطِّـي قسـمات وجهـه ملامـح الطيبـةً والإصـرار بالوقـتِ ذاتِـه، وبعـد سـنةٍ علـى زواجنـا رزقنـا الله بـك يـا هيـاء، وأصـرّ والـدك علـى تسـميتك سـلوى إلَّا أنَّنـي حاربـت رافضـة هـذا الاسـم وأخيـرًا وافـق تحـت إلحاحـي علـى تسـميتك هيـاء، اسـم سـلوى لـه قصَّـةٌ مـع والـدك ...!

يقول والدكِ:

في عصريَّـةٍ ماطـرةٍ كنـتُ أقـود سـيَّارتي وسـط طريـقٍ ضيّـقٍ متجهًـا لإحـدى القـرى، حيـث اتَّفقـتُ مـع رجـلٍ مـن أهلهـا علـى نقلـه للمدينـة، وأثنـاء سـيري حاصرتنـي الأمطـار وعلقـت سـيارتي بالطيـن، ولـم أسـتطعْ إخراجهـا، مكثـت يوميـن علـى هـذه الحـال ولـم يكـنْ معـي طعـامٌ ولا شـرابٌ وتجمَّـدت أطرافي مـن البـرد، وهـدَّني الإعيـاء ولـم أعـد أشـعر بنفسـي، ثـمَّ غبـت عـن الوعـي، ولـم أفـقْ إلَّا وأنـا في

مستشفى المدينة وكانت تعتني بي ممرِّضةٌ عربيَّةٌ اسمها سلوى ذات شعرٍ ناعمٍ أسود لامعٍ وعينين عسليَّتين و ممتلئة الجسم، كثيرة الكلام وخفيفة الدم وتتحدَّث معي كلَّما دخلت علي محاولةً التخفيف عنِّي ودعمي نفسيًّا، كنتُ ممتنًّا لها كثيرًا وكان اسمُها مميَّزًا جدًّا بالنسبة لي، فقرَّرتُ أنْ أسمِّي على اسمها إذا تزوجتُ و رزقتُ ببنتٍ.

« مع أنَّ والدك كان رجلًا حنونًا ولطيفَ المعشر دائمَ التبسُّم، إلَّا أنَّني كنتُ أرى في عينيه همًّا وحزنًا دفينًا، سرًّا أو حزنًا لم أعرفْ كنهه»..

مضتْ أيَّامي وأنا سعيدةٌ معه، وبدأتُ أنسى آلامي وأحزاني بالتدريج، إلَّا أنَّ القدر كان لي بالمرصاد، ولم يمهلْني هانئة كثيرًا.. كما تعوَّدت منه!

في يومٍ مشؤومٍ دخل عليَّ والدي ووجهه مسوَّدٌ، وبالكاد يتمالك نفسه و يستطيع الوقوف، تشبَّث بيدي وقال متلعثمًا: البقاء برأسك في عبد العزيز يا ابنتي ....

كُنتِ يا هياء في الثالثة من عمرك وكنتُ شابَّةً جدًّا على لقب أرملةٍ، يا لَهذا الموت الذي يلاحقني ويحاصرني من كلِّ مكانٍ !

وعادت إليَّ أيامُ الحزن والوجوم، والحياة الآنَ باتت أصعبَ جدًّا!

وبعد ستَّة أشهرٍ تقريبًا قرَّر والدي الانتقال للمدينة، ولم أعلم سبب قراره المفاجئ حينئذٍ، على الرغم من مرضه البادي وتعبه الظاهر، وخمَّنت أنَّه الهروبُ من الذكريات !

فيما بعد وبعد سنواتٍ طويلةٍ، قال لي والدي ذات مرَّةٍ حينما كبر و أحسَّ بدنو أجله: حاولتُ أنْ أزيح ثقل الزمن والفقر عن صدري، حملت الأمل بين كفي، تحدَّيت مرضي وتعبي، أردت

هـواءً جديـدًا حتَّـى تتَّسـعَ رئتـي مـن جديـدٍ، و ظللـت وفيًّـا للفـلاح الـذي بداخلـي مـع أنَّ الحيـاةَ وقفـت ضـدِّي بـكلِّ قسـوةٍ، تركـتُ أرضـي، وأرضـي هـي حيـاتي».

وفعـلاً بعـد ستَّة أشـهرٍ مـن وفـاة عبدالعزيـز انتقلنـا إلـى المدينـة وسـكنَّا في البدايـة في حيٍّ صغيـرٍ يُدعـى (مليهـم) في بيـتٍ شـعبيٍّ ضيـقٍ قديـمٍ، والـدي وأنـا الشـابَّة الأرملـة وطفلتـي اليتيمـة وزوجـة أبـي لولـوةً، كانـت لولـوة بعـد انتقالنـا مشـغولةً بوالـدي المريـض، وكفَّـت عنِّي الكثيـر مـن أذاهـا، وفيمـا بعـد انتقلنـا الـى حيِّ (الربـوة) و لحقت بنـا موضـي هـي وزوجهـا وأبناؤهـا الصغـار وسـكنوا بجوارنـا، بـدأت أعلِّمـكِ القـرآن وأنـتِ في الرابعـة مـن عمـرك، وقـرَّرتُ بينـي وبيـن نفسـي أنْ أجعـلَ مصيـرك مختلفًـا .. ولـو كان عبدالعزيـز حيًّـا لـكان وافقنـي في أنْ تكـوني إنسـانةً متعلِّمـةً، وهـا أنـتِ يـا هيـاء مدرسـة أفخـر بـك في كلِّ مـكانٍ، ولـن أرتـاحَ إلَّا بعـد أنْ أرى أبنـاءكِ يـا بنتـي ...!!

قاطعتُهـا مبتسـمةً: لمـاذا لا تأخذيـن قسـطًا مـن الراحـة بينمـا أجهِّـز وجبـة الغـداء ؟

نظرتْ إليَّ نظرةَ مَنْ خبرني وفهمني قائلةً:

لـن أتحـدَّثَ عـن الـزواج يـا عزيـزتي، ولكـن أنـا كـبرتُ ولا أريـد أنْ أتـركَكِ وحيـدةً، المـرض يـأكل جسـدي يـا بُنَيَتـي، لا أريـدُ أنْ يأخـذَ الله أمانتـي إلَّا وأنـا مطمئنَّـةٌ عليـكِ.

كانـت أمِّـي تقلقنـي كلَّمـا رفعـتْ يديهـا بالدعـاء لـي، وكأنَّهـا تعـرف أمـرًا مـا لا أعرفـه، أفكِّـر كثيـرًا فيهـا وفي حيـاتي، أدوِّر حـول ذاتي وفي ذهنـي أسـئلةً كثيـرةً و تفاصيـلَ صغيـرةً، أحـاول أنْ أتحلَّـى بالحكمـة و تملـؤني مشـاعرُ الحـبِّ والعرفـان لهـذه الأم العظيمـة التي وقفـتْ حياتهـا كلَّهـا مـن أجلـي .. أسـميتُ أمِّـي بالموجـة علـى الرغـم مـن أنَّنـي لا أرى البحـر كثيـرًا، وأكاد لا أعرفـه وعلاقتـي بـه ليسـت

واضحةً إلاَّ أنَّ أمِّي تشبه الموجة فهي تمدُّ فتغرقني بالحبِّ لأيَّام، ثمَّ تجزر وتبتعد وتنكفئ على ذاتها، فتجفُّ سواحلي، لا أستطيع تفسير ذلك، وهل تُسأل المَوجةُ عن طبيعتها المُتقلِّبة؟

ربَّما؛ لأنَّ حياة أمِّي كانت كلَّها فقدٌ وألمٌ، لم تعدْ تثقُ بالظروف والحياة، فهي دائمًا على عجل.

أحسُّ بكِ يا أمِّي وأشعر باليتم مثلكً مع أنَّكِ حاولتِ تعويضي عن وجود الأب في حياتي إلَّا أنَّني ما أزال أرى في كلِّ رجل يمرُّ من أمامي صورة الأب الذي لم يكنْ في حياتي ..!!

اعذريني يا حبيبة القلب، كنتُ أرى عذاباتِكِ وأحسُّ بها ولم يكنْ بيدي حيلةٌ، من المؤكَد أنَّني معكِ دائمًا وأنتِ في القلب، لن أتركَكِ أبدًا... !!

مضت ثلاثُ سنواتٍ على رحيلها، وصورتها المضيئة ما زالت شاخصةً أمامي وهي مستلقيةٌ على سجَّادة الصلاة، كم أفتقدكِ يا أمِّي ! ..

كيف لها أنْ تتركَني باكرًا للغياب والألم.

بلا وداع... بلا قُبَل... بلا دعوات؟

اعتدتُ أنْ أصنعَ قَهوتي آخر اللَّيل وعندما أمرُّ بجوار المطبخ أسمع صوتها يلهج بالدعاء، يا الله ،، ما أصعبَ هذا الحنينَ الجارف! الذي يمزِّق قلبي،،، ما عساها هذه الذكريات أنْ تصنعَ بي؟

مازلتِ يا أمِّي تلك الشمسُ التي أفرطتْ في الغياب.

أتذكَّرها وأحسُّ أنَّني أهوي وأهوي من شاهقٍ إلى وادٍ سحيقٍ، أتنفَّس بعمقٍ، ثمَّ أرتطم باللَّاشيء، الشروخُ في داخلي ما بين الوريد والوريد سأظلُّ أحملُها ... الحزنُ مكتوبٌ عليَّ، مشاعري مثلُ السحاب يتلبَّد ثمَّ يتبدَّد، هناك ألمٌ لا أقوى عليه يفيض منِّي كالماء، تعلم يا الله أنَّ لكلٍّ منَّا أنا والحزن طريقته في إكرام وفادة الآخر!

يـاَ الله: أكـرمْ منـزل أمِّـي، لا أعـرف ماهيـة المـوت، وهـل يشـعر بنـا الموتـى ؟ هـل يسـمعوننا؟ هـل ... وهـل ... ... اختصـرت أمِّـي بالنسـبة لـي كلَّ نسـاء الكـون واختزلتْهـن بشـخصيَّتها القويَّـة، أخفـت كلَّ عذاباتهـا عنِّـي، كـم أفتقدهـا الآن، في صـدري عصفـورٌ مبلَّـلٌ بالشـوق يهـزُّ جناحيـه لهـا، أصبحـتُ أرى طيفهـا في كلِّ مـا يمـرُّ بـي فأرغـب أنْ أقبـضَ عليـه متلبِّسـةً بجريمـة الفقـد.

هـل يكفيـكِ منِّـي يـا أمِّـي أنْ أهديَـك صلـواتي و دعائـي بلا شـروطٍ أو قيـودٍ، أنـا وأنـت امرأتـان تجاوزتـا المألـوف، عشـنا حياةً مختلفـةً متشـابهةً، ومـع أنَّهـا غريبـةٌ وحزينـةٌ، إلَّا أنَّهـا لـم تخـلُ مـن السـعادة مـن وجهـة نظـري؛ لأنَّـكِ كنـت و مازلـت معي، هـو قـدرُك وقـدري أنْ نعيـشَ وحيدتيـن، قدرنـا أنْ نكـونَ علـى هـذه المسـافةِ أنـا فـوق الأرض، وأنـت تحتهـا ومـا مـن طريـقٍ لنلتقـي. قـدري أنْ يكـونَ هـذا الحـبُّ الصـادق في حنيـنٍ دائـم و اشـتياقٍ يجعـل مـن الشـعور بـكِ فاكهـةً لذيـذة التنـاول علـى شـفاه العشَّـاق، أو علـى صـدور الأوراق، كنـتُ أبحـث يـا أمِّـي عـن الضمانـات في الحيـاة أسـألك وأتسـاءل هـل في الحيـاة ضمانـات .. ؟

ولا أنسـى جوابـكِ: لا يُوجـد ضمانـاتٌ في الحيـاة، الضمـان الوحيـد هـو المـوت!

دارسين بالعسل

(٨)

في ليلةٍ فوضويَّةٍ حملتُ مشاعر البرود والكآبة كانت هياءُ عائدةً من سفرٍ مرهقٍ بمعية خالتها موضي وابنتها الجوهرة .. وليس من طبع هياء حبُّ السفر كثيرًا؛ لأنَّ الترحالَ بالنسبة لها مربكٌ ومخيفٌ، المسافات الممتدَّة تصيبها بالهلع ومتع السفر لا تستهويها كثيرًا، وضعتْ حقيبة سفرها على السرير وبدأتْ في تفريغ محتوياتها إلَّا أنَّ التعبَ الشديد ثبَّط من عزمها وهمَّتها، وتركتْ ما بيدها وخلدتْ لنومٍ عميقٍ مستسلمةً للإجهاد.

وفي الصباح استيقظتْ وهي تشعر بتثاقلٍ في جسدها، وأطرافها كأنَّها خارجةٌ للتو من بركة سباحةٍ، و لاً تقوى على الحراك، وآلامٌ في أسفل الظهر تنبئ بيومٍ طويلٍ مملٍّ، فتمنَّتْ أمُّها بشدَّةٍ !

« يا الله.. لو كانت أمِّي هنا لبادرتني بمشروباتها الدافئة من مغلي النعناع واليانسون والدارسين بالعسل، كانت تحسُّ بتغيُّراتي النفسيَّة بسرعةٍ، وتتحسَّس مكامن الألم في روحي وجسدي.

يااااه .. كم هي لعنةٌ أنْ تكوني أنثى !

لطالما تساءلت: هل كلُّ النساء على وجه الأرض يصبن بهذا الاكتئابِ الحادِّ كلَّ شهرٍ؟!

أذكر أنَّني كنت أسأل زميلاتي المعلمات كلَّما سنحت الفرصة هل يكتئبن ويزهدن بكل ما حولهن في هذه الفترةِ ؟

كنْ يتضاحكن وينعتنني بالمدلَّلة، ويصفْن هذه الحالةَ بالشيء العارض !

ولا يعانين عند حضورها ولمدَّة أسبوعٍ من نوبات البكاء وكراهية العمل مثلي، ولا يشعرن بوجود حاجزٍ بينهن، وبين العالم الخارجي.

ولا تتكوَّن لديهن المشاعرُ العدائيَّة الغاضبة من كلِّ شيءٍ !
أما أنا، فأنفعل حتَّى من صوت وطريقة أكل تلميذةٍ مثلًا !
وقد أتوتَّر من أيِّ صريرٍ أو من بعض الحركات والإيماءات !
يا لَهن من مسكيناتٍ، أولئك التلميذاتُ اللَّاتي يصادفن أسبوع بؤسي هذا!

كنت أفضفض للزميلات بما يعتريني عندما تدهمُني هذه الحالةُ، عندما تصبح كلماتي متقطِّعةً، والزمن يطول بين ما أفكِّر به وبين ما أقوله، فأصبح كالمتخلِّفة لا أقوى على جمع الكلمات، ومع أنِّي في كلِّ شهرٍ أعد نفسي بأنْ أكونَ قويَّةً، ولا أستسلم لكلِّ ما يسلبني طاقتي وقدراتي، إلَّا أنَّني بمجرَّد حضورها أنسى وأنهار تحت ضغط التقلُّبات الهرمونيَّة، وعبثًا في كلِّ مرَّةٍ أحاول الضغط على نفسي ومقاومة مشاعري المتقزِّزة من كلِّ ماحولها «

طاف كلُّ ذلك في ذهن هياء وهي تنفض وتعيد ترتيب المفرش الدانتيل الثقيل، وتعيد الكتاب الذي كانت تقرأ فيه قُبيل سفرها إلى الرفِّ الأبيض الصغير فوق سريرها المليء بالكتب طوال الوقت، وتجمع المخدَّاتِ المتناثرةَ على الأرض وتعيدها إلى السرير، وكان من عاداتها التي لا تستطيع تركها تجميعُ الوسائد الصغيرة والكبيرة فوق سريرها، فإذا أرادت النوم أزاحتها بفوضويَّةٍ ورمتها كلَّها على الأرض مع ما تطاله يدُها من كتبٍ موجودةٍ على السرير ماعدا وسادةٍ بيضاءَ ناعمةٍ اعتبرتها المتَّكأ الآمن عندما تضع رأسها وتعصف به الذكرياتُ قُبيل النوم !

قرأت ذات مرَّةٍ أنَّ الإنسانَ يقضي تقريبًا ثلث عمره نائمًا، و خلال النوم لابدَّ أنْ يسندَ رأسه و رقبته، و اختيار الوسادة المناسبة سيجعل الرأس والرقبة في وضعيَّةٍ صحيحةٍ، وسيحظى الإنسان بنومةٍ هانئةٍ وفي أمانٍ من آلام الرقبة و العمود الفقري، وآمنت

بذلك تمامًا فكانت تجتهد عند اختيار وسائدها كلَّ فترةٍ، اشترتْ مرَّةً وسادةً من ريش البطِّ الناعم ومعظم الناس لا يفرِّقون بين وسادة الريش الناعم الذي يُسمَّى "Down" أي الريش الناعم أو الخفيف الذي يغطِّي جسم الطيور، وبين وسائد الريش العادي "Feather" أي الريش الموجود في جناح أو ذيل الطير، والأفضل بالطبع الوسائد ذات الريش الناعم؛ لأنَّها لا تحوي حوافَّ قاسيةً أو قصبات ريش كبيرة مؤذية .

تعتقد هياء أنَّ من النعم الكبيرة التي حظيت بها عدا والدتها شيخة: تخصُّصها في اللُّغة الإنجليزيَّة، فكانت نافذتُها على العالم، وشبكة الإنترنت التي جعلتها تطوف العالم بضغطة زرٍّ وهي فوق سريرها.

بعدما أنهت ترتيب سريرها التقطت مرآةً صغيرةً على الكومودينو بجانبها، وقرَّبتها إلى وجهها، وتأمَّلتْه، شعرتْ بأنَّ وجهَها في تلك اللَّحظةِ مختلفٌ، وأنَّ ملامحَها في المرآة صورةٌ عاثت بها كاميرا رديئةٌ و زاويةُ تصويرٍ سيِّئةٌ اختارها مصوِّرٌ مبتدئٌ!

حملقتْ في صورتها أكثر و تحسَّست وجهها، وحدَّثت نفسها:

«لماذا لم أستطعْ أنْ أتجاوزَ فقْدَ أمِّي مثلما تجاوزت هي يتمُها المبكِّرُ، على الرغم من أنَّها بقيت تجرُّ ذيولَهُ بداخلها طوال عمرها و أينما ذهبت، لكنَّها أتقنت التعايش معه ومحو أثره من على ملامحها ؟ !»

لا شكَّ أنَّ فقْدَها حمْلٌ ثقيلٌ جدًّا أرهقني حتَّى أدَّى بي إلى الهروب من الواقع، وكأنَّ حياتي لم يبقَ فيها إلاَّ قشعريرةٌ ومرارةٌ يجب أنْ أبتلعَها مثل الدواء المرِّ يوميًّا».

أقنعتْني أمِّي أنَّ الإنسانَ يجب ألَّا يختلفَ عمَّن حولَه، فكنتُ أحاكي الناس من حولي وأحاول ألَّا أختلفَ عنهم في العلن، بينما

كنتُ ألعنُهم في الخفاء؛ لأعيشَ شخصيَّاتٍ أخرى مستقلَّةً، كنتُ نساءً كثيراتٍ في واحدةٍ، فأعيش وكأنِّي كليوبترا، هيباتيا، زنوبيا، شجرة الدر، عشتار، وكنتُ أيضًا العديدَ من العاشقات اللَّاتي يمُتنُّ بالسُّم كلَّ يوم»

جلستْ على الكرسي الوحيد في غرفتها، ودسَّت يديها في جيب الروب الأزرق الذي ترتديه دائمًا، ولا تغيِّره إلا نادرًا وهي تتمتم:

«لو أردت كتابة سيرة حياتي كروايةٍ وسردتها على أعظم الأدباء، فلن أنجوَ من فخِّ التضخيم والأنانيَّة والشعور الرهيب بالخوف من كلِّ شيءٍ حولي، أشعر بأنَّني أنانيَّةٌ بشكلٍ بشعٍ غالبًا، ومغرورةٌ أحيانًا، وضعيفةٌ دائمًا، حاولتُ مرارًا التخلُّص من هذه الصفاتِ، ولكنِّي أفشل مع اجتهادي الذي أبذله»هههه المقرود تدوره القرادة ». كما كانت تردِّد أمِّي.

عادتْ مرَّةً أخرى وأمسكت بمرآتها، وهي تزيح عن جبينها خصلةً تدلَّت قائلةً:

يا لَهذه المرآة! لقد فقدتُ تلك الملامحَ، كما يفقد الرجل العجوز أسنانه، الحقيقة أنِّي أكرهني !

انتابها توتُّرٌ شديدٌ بعد أنْ نطقت هذه العبارةَ المروِّعة، وبدأتْ تردِّدها بصوتٍ عالٍ: أكرهني نعم أكرهني !

وخيَّم الوجوم على ملامحها للحظاتٍ، ثمَّ اعتدلت في جلستها وأسندتْ رأسها على الكرسي، وحملقتْ في السقف، وأكملتْ حديثها الداخلي: عندما ألاحق رغباتي كلَّ يوم، وعندما أنزلق خلف مشاعر الازدراء والاستخفاف بالآخرين، وعندما تنتابني مشاعر الضعف الشديدة...!!

قاطعَ حديثَها مع نفسها طرقٌ متوالٍ على الباب، كانت الطَّرْقاتُ سريعةً ومزعجةً.

- يبدو أنَّها منيرةٌ التي تخفِّف بؤسي دائمًا كلَّما تحدَّثت معها، حديثنا معًا يجفِّف رأسي من المخاوف، فأتجاوز شلل المشاعر الذي يقبض علي كلَّ حينٍ ويمنعُني أحيانًا من تجاوز عتبة داري.

- وبتثاقل فتحت هياء لها الباب قائلةً:

- أهو أنتِ ؟!

- ألم تتعلَّمي التهذيب حتَّى الآن... ؟!

- نحن صديقتان منذ ثماني سنواتٍ، ولكنَّك حتَّى الآن تتصرَّفين وكأنَّه لا يُوجد إلا أنتِ على وجه الأرض.

«تعبتُ وأنا أعلِّمك الذوق»

ضحكت منيرة بصوتٍ عالٍ وهي تبعد يد هياء من على الباب متَّجهةً نحو الصوفة الزرقاء والتي اشترتها هياء خصِّيصًا من أجلها حتَّى تستلقي عليها في وقت استراحتها أثناء العمل، فمنيرة تعمل ممرِّضةً بمستشفى قريبٍ من منزل هياء.

رمت نفسها على الصوفة طالبةً منها شرابَها المفضَّل الموكا، وعلى غير عادتها صرخت هياء قائلةً: help your self لقد مللت خدمتكِ أنتِ لستِ ضيفةً.... لازلتِ كما أنتِ مزعجةً وعندما تتحدَّثين يتوتَّر كلُّ مَنْ حولك .. ارحميني قليلاً...!!

ـ لا تنكري أنَّكِ مغرورةٌ ومتعاليةٌ...!!

ـ بالله عليكِ يا منيرة هل يعدُّ الهدوءُ غرورًا وتعالِيًا...؟!!

غريبةٌ هي نظرتُك للأمور..!

نظرت هياء لمنيرة بنصف ابتسامةٍ، وهي تتذكَّر ذلك اليومَ كانت فيه مهمومةً ومكتئبةً، مقرفصةً بجانب نافذة الطائرة المتَّجهة إلى دبي وحدها للَّحاق بوالدتها وخالتها وبناتها اللَّاتي سبقنها إلى هناك .. يومها اندفعتْ منيرة بعباءتها الملوَّنة وحقيبة

يدها البنيّة وارتمتْ على المقعد بجانب هياء وهي تلهث، أزعجت حركاتُها و تأفُّفاتُها المستمرُّ هياء، فرمقتْها بحنقٍ فإذا هي مرَّةً تربط الحزام، ومرَّةْ أخرى تلقي به، وكانت لا تستقرُّ على حالٍ، تتذكَّر هياء عدم ارتياحها لمنيرة أوَّل وهلةٍ، لدرجة أنَّها طلبتْ من المضيفة أنْ تغيِّرَ مكانها لتبتعدَ عنها، وسط نظرات الاستهجان التي اكتسحت منيرة هياء بها، ولكنَّ المضيفةَ رفضت بحجَّة أنَّ الطائرةَ ممتلئةٌ بالركَّاب، ولا يُوجدُ مقاعدُ شاغرةٌ.

« حينها وضعتُ السَّماعاتِ على أذني، وفتحت كتابي، وغرقت في عالمي حتَّى لا أصطدمَ بها، ولكنَّها قطعتْ عليَّ ذلك فجأةً طالبةً منِّي منديلاً مع ابتسامةٍ لطيفةٍ تطوِّق وجهها، فهمتُ لحظتَها أنَّها ترغب بالحديث معي، قرأتُ عينيها، ومشكلتي في أنَّني أتعاطف مع بنات حوَّاءَ دائمًا، بعدها تحدَّثنا كثيرًا وضحكنا حتَّى قاطعَنا صوتُ كابتن الطائرة بضرورة ربط الأحزمة استعدادًا للهبوط، في تلك اللَّحظةِ أمسكت منيرة بيدي وشدَّت عليها، فشعرتُ بأنَّني أعرفها منذ مدَّةٍ طويلةٍ، كنتُ قلقةً ووحيدةً، وكانت تحاول جبر خاطري بحماقاتها الجميلة....! »

قالت هياء: حضورك يا منيرة في حياتي ـ على الرغم من أنَّك ما زلتِ كما أنتِ فوضويَّةً لا تكترثين كثيرًا لمن حولك ـ أنبت السوسن بين شقوق روحي و شكَّلتِ الأرض الثابتة والحائط الذي استندتُ عليه خاصَّةً بُعيد وفاة أمِّي، لم أنسَ كيف احتويتِ ألمي ووجعي، ولكنْ اعذريني لا أستطيع أنْ أكونَ مثلَكِ، أعلم أنَّ شخصيَّتي كئيبةٌ، وأنتِ تحبِّين الضحكَ كثيرًا؛ لأنَّكِ تعتبرينه أفضل وسيلةً للردِّ على الألم، ولا تحبِّين الكذب على الآخرين واللَّف والدوران؛ لأنَّه بالنسبة لكِ شيءٌ غامضٌ من الناحية الأخلاقيَّة.

أتساءل دائمًا: من أين تأتين بهذه الابتساماتِ الناريَّة، والمرح الممزوج باللَّامبالاة، وهذا المزاجِ الرتيبِ غيرِ المتقلِّب.

مَنْ لا يعرفك يظنُّ حياتكِ تسير بخطًى ثابتةٍ كالسلحفاة غيرَ أنَّني أعرفكِ، وأعرف كيف تعيشين.

- الضحك في نظري يا هياء يمثِّل ثروةً قوميَّةً ينتج أفرادًا أصحَّاء، وأعتبره محرِّكًا في سياسة الصحَّة العامَّة ..!

وبابتسامةٍ ماكرةٍ أردفتْ: هل أعتبر هذا اعترافًا متأخِّرًا بأنَّني شخصٌ مهمٌّ في حياتك، طبعًا بعد الأحبَّة الراحلين ؟؟

ـ لا تذكِّريني بالراحلين أرجوكِ يا منيرة.

و التفتتْ إلى هاتفها النقَّال، وكأنَّها تبحث عن شيءٍ مفقودٍ، وقاطعها صوت منيرة: هل ستتركيني بلا ضيافةٍ ؟!

وتمتمتْ بصوتٍ خافتٍ: بخيلةٌ من يومك.

اتَّجهت هياء نحو المطبخ، و مطبخُها عبارةٌ عن كاونتر صغيرٍ وضيِّقٍ لا يتَّسع إلَّا لحركة شخصين أو ثلاثةٍ، وجدرانه مغطَّاة بالسيراميك الأحمر المزجَّج بإطاراتٍ من السيراميك الذهبي، وضعتُ الماء داخل الغلَّاية (الكيتل) وأخرجت كوبًا كبيرًا (mug) ووضعت به ملعقة سكَّرٍ، وملعقة كاكاو والقليل من الحليب السائل كامل الدسم، وهي صامتةٌ تفكِّر، ومنيرة تقلِّب قنواتِ التلفزيون تبحث عمَّا يشغلها لحين فراغ هياء من إعداد الموكا ...أحضرت هياء شراب الموكا وبلهجةٍ آمرةٍ قالت لها: تفضَّلي، وبعد أنْ تنتهيَ من شرابك سوف نخرج للمكتبة أحتاج شراء بعض الأدوات والأوراق، فعندي درسٌ نموذجيٌّ بعد غدٍ.!!

أتقنت منيرة قراءة لغة عيني هياء، فكانت هياء تتحاشى أنْ تنظرَ إليها مباشرةً ..أحسَّتْ منيرة بوخزات الضمير وبالذنب تجاهها؛ لأنَّها ربَّما ذكَّرتْها بالأحبَّة الغائبين، وهي التي تحاول

جاهدةً منذ مدَّةٍ طويلةٍ أنْ تنسى، وما الخروج للمكتبة أو للتبضع أو .. إلاَّ إحدى ميكانزمات الإلهاء و التناسي ...!!

ـ حتَّى أنا أحتاج بعض الحاجيَّات من المكتبة للأولاد.

«ساد صمتٌ طويلٌ في الغرفة ولا صوتَ غيرُ صوت التلفاز الخافت و صوت ارتشاف الموكا».

قطعتْ هياء الهدوء كعادتها عندما أحسَّتْ أنَّ عليها أنْ تغيِّرَ المزاج والجو من حولها : لابدَّ أنْ آخذ حمَّامًا باردًا الآن، أستأذنك لربع ساعةٍ فقط.

فطلبت منيرة مبتسمةً جهاز اللاب توب الخاص بهياء؛ لتتصفَّحَ إيميلاتها، فقالت هياء: هو على مكتبي وفي وضع الاتصال.

ذهبت هياء إلى غرفتها، بينما أحضرت منيرة «اللاب توب» لتتصفَّح الإيميلات، ولكنَّها وجدتْ أنَّ هياء لم تغلقْ صفحة إيميلها، فأغراها ذلك بالقراءة المتلصصة.... فوجدت رسالةً تنزُّ حروفُها جمالاً وحبًّا....!

اتَّسعتْ حدقتا عيني منيرة وهي تقرأ وتسترسل في تلصُّصها، وبداخلها صوتٌ يقول: يا إلهي، تعلم أنَّ ضميري فاسدٌ فلا أستطيع تجاهل رغبتي في القراءة فلتسامحْني يا الله، وأكملت القراءة !

كان عنوان الايميل: (إلى زهرة القرنفل السمراء)

المرسل (ر.أ)

انزلقتْ حروفك يا طاهرة وانسلَّت مع لحن الحياة من بين غابات ماضيكِ المترع بالأسرار؛ لتُدَثِّرَني بفرحٍ شحَّ، فتسكب في نهر روحي نشوةً عذبةً تهطل عليَّ من شواهقكِ الباذخة بالأمنيات، أحببتكِ وأسميتكِ زهرة القرنفل السمراء... يا لكِ من عظيمةٍ!

لم تكوني تلك الفاسقةَ التي تؤجِّل توبتها كلَّ ليلة، و لم تلجأي لخطوط دفاعٍ رجعيَّةٍ تدافعين بها عن موقفك؛ لذلك لم تفقدي مصداقيَّتكِ أبَدًا، أتفهَّمك عندما سافر جسدُك إلى رجلٍ يسكن قلبكِ، وليس هناك ما هو أجمل من أن تتكوَّمي بحضن مَنْ تحبِّين كالأطفال، أنْ تستمعي لهدير صوته بلا أسوارٍ، أن تخفي وجهكِ بين يديه المفعمة بالتعقُّل كماتحسبينها، يا الله، لن يتفهَّمَ أيُّ رجلٍ بمَنْ فيهم أحببته وسلَّمْتِه قلبكِ طواعيةً ورغبة إحساسكِ الجميلً هذا، فعندما يتمعَّن رجلٌ تحبِّينه بجسدكِ العاري إلَّا من خيط توهُّجكِ به، تهبُّ عواصفُكِ نحوه؛ لتبعثرَه وأصابعه التي تعبث بكلِّ ما يمرُّ به تحيلك إلى كتلة نارٍ ملتهبةٍ من رغبةٍ بهِ، ولهُ، ومعه، لتعيدَ لكِ صرخة الحياة في جسدكِ المهجور، وتتفجَّر شمسُكِ خضرةً وزهرًا، رافعين شفةً لشف، راقصين عبر القيود مندفعين بعنفوان الشباب، وهو يطوي خصرَكِ الطريَّ بيديه القويَّتين، تخضرُّ روابي روحكِ، وهو يقول لكِ:

وجهكِ مرمرٌ ينبض الياقوت فيه، في شَعركِ حريرٌ صارخٌ، تعالي لأمرِّغَ شفاهي به، هم لا يعلمون يا طاهرة أنَّ المرأةَ تموسق حبَّها، فتعيد ترتيب نفسها وترغب أنْ يقرأها من تحبُّ كما هي، يقطِّرها ويعتِّقها ويسكبها في كأس العشق يا قاطفة العنب من فم الحبِّ:

عندما يتلظَّى الجسد بين تيهٍ من الشبق وبين تيهٍ من القلق، تختلُّ بوصلة المحبِّ فيسلك طريق الغواية وهو يطمع بالغفران، ولكن هيهات أنْ يُغفرَ لامرأةٍ يا زهرة القرنفل السمراء، امرأةٌ سكنت وطن الحبِّ، امرأةٌ تواري سوأتها بأوراق الحبِّ يا طاهرة في نظري، وملعونة في نظر مجتمع عُبَّاد القبيلة حتَّى في نظر مَنْ أحببته يومًا وأسلمتِه قلبكِ الطَّاهرَ؛ ليتميزَ هذا الرجلُ بكِ، ليتكِ

طلبتِ منه أنْ يضعَ يده على صدرك، وسألته: هل يسمع شدَّة خفقانه، وتواصل نبضه؟ ثمَّ طلبتِ منه أنْ يرخي يَده، ذلك المستدير الذي لا يعرف الرِجالُ منه إلَّا جمالَه وإغراءه، وما يجلبه لهم من لذّةٍ، لا يفكِّرون ما يختبئ تحت هذه البشرة الغضَّة اللَّدنة من مشاعر وجروح، هل تُسوّل له نفسُه أنْ يكشفَ ما تحت الأكمة؟؟ هو يعتقد أنَّه يهجر وقار الرجل إنْ سأل ما تحت ثمرة الخوخ، فلديه نفسٌ ترغب الإفلات من إسارها، فأنتنَّ معشرُ النساء لم تحظين بلقاء رجالٍ مكتملي العاطفة، فأغلب مَنْ تلتقون بهم، هم رجالٌ لا يعرفون حتَّى كيف يحتضنوا أنفسهم، رجالٌ غارقون في حضن؟؟؟؟

والاقتتال عليها، وفي ركنٍ قصيٍّ هناك نساءٌ متعطِّشاتٌ حائراتٌ مثلك يا قرنفلتي السمراء، هناك بشرٌ لا يتفتَّحون كالزهر إلَّا في الأحلام، وأنتِ أحلاهم، تعلمين أنَّني أحسُّ بكِ وبصوتك الذي يشبه الريح حينما تتوغَّل بين النخيل فجرًا، وأشاهد نرسيس الموجود في أعماقك مكسورًا، ومحشوًّا بالخوف، وبشوقٍ أخَّاذٍ، وبحنينٍ جارفٍ لكِ، أرغب بحمايتكِ من نفسكِ ومن هلعكِ.

يا لَلحياة العجيبة! مازال ذلك الرجلُ باقيًا مخلِّفًا بقايا من حلوى الشوق له، أعلم

أنَّكِ تنتظرينه من وراء ثقب الباب، سحقًا له.

الجسر (ر.أ)

٩

بعد أن انتهت منيرةُ من قراءة الرسالة أحسَّت بقشعريرةٍ، ونوع من خيبة الأمل، كيف يُمكن لهياء أنْ تتواصلَ مع هذا الإنسانِ بهذا الإسهابِ دون أن تخبرها!

سألت منيرة نفسها: هل قرَّرتْ أنَّها ستخبرني لا حقًا...!!

أغلقت اللاب توب ووضعته في مكانه، وأصلحت من ماكياجها وهندامها، وأخذتْ حقيبتها، ووقفتْ في الصالة تنتظر.

بينما هياء في غرفتها ترتِّب حقيبة يدها استعدادًا للخروج للمكتبة، فتذكَّرت أنَّها لابدَّ من أنْ تبدِّل الكاميرا التي اشترتها قبل أيَّامٍ، فبحثتْ عن فاتورة الشراء، فلم تجدْها، فرمت حقيبتها على السرير بحنقٍ قائلة:

«مازلت فوضويَّةً، والأشياءُ تضيع منِّي بسهولةٍ، وهذه الفاتورةُ اللَّعينة تدفعني لبعثرة كلِّ صناديقي وملفَّاتي، وكأنَّني طفلةٌ في المرحلة الابتدائيَّة».

سحبتُ أحد الصناديق من على الرّف فوجدتُ فيه رسالةً مكتوبةً بخطِّ يدها، وتذكَّرت أنَّها كتبتْها في ظهيرة يوم الثلاثاء وهي في عيادة الأسنان تنتظر دورها.

فتحت الرسالة، وقد كانت بلا مقدِّمات:

إلى عبد العزيز:

اسمك مثل اسم أبي الحنون، خلتُ كلَّ مَنْ يحمل هذا الاسمَ مكتملَ الرجولة مثل أبي حدَّثتني أمِّي عنه كثيرًا، عن كرمه وإحساسه وعاطفته المتدفِّقة كنهرٍ جارٍ، عن روحه التي تشبه سماءً رائقةً صافيةً، أمَّا أنتَ فأراكَ جافًّا كصخرة الوديان، في دنياك المرتبكة ما يزال قلبُك مغلقًا على كلِّ شيءٍ مثل المحارة.

عندما كنتُ في السابعة عشر من عمري، كانت الحياةُ إمَّا شديدة البياض أو حالكة السواد، والخطيئة كانت في نظري لا تبرَّر، كنتُ فتاةً جامحةً ومتعنِّتةً معتدَّةً بعقلي ولا أستمع لأحدٍ، والحياة هي ما أرسمها أنا وأعيشها، لم يكنْ هناك مَنْ يقودني ويوجِّهني إلَّا أمِّي لغياب الرجل في حياتي، الرجل الأب والأخ، كنتُ واقعةً في فخِّ المثاليَّات تمامًا، ولم أكنْ أغفر لأحدٍ خطيئتَه مهما كانت فلا يُوجد عندي له ما يبرِّر خطيئتَه، وكلَّما أصابني الخذلان ألوم الناس والحياة، ربَّما هو الخوف وعدم الأمان الذي يتلبَّسني، شعورٌ مقلقٌ ومربكٌ مثل ذلك الشعورِ المخيفِ الذي نشعر به عندما نقف في مكانٍ لا نستطيع أنْ نتَّكئَ فيه على شيءٍ، نحسُّ بعمقٍ ولا نلمس القاع وكأنَّنا نسبح في بحيرةٍ عميقةٍ ولا نتقن السباحة، لم أكنْ استطيع أنْ أستعرضَ ضعفي أمام أيِّ أحدٍ، وأستحي من كلِّ شيءٍ حتَّى من أنوثتي، ولكنَّها حداثةُ السن وقلَّة التجربة، أغلقوا علينا منافذ الحياة وحصرونا في زوايا العادات والتقاليد والعيب الاجتماعي والدين الذي فسَّروه على حسب أفهامهم، وها أنا أحاول أنْ أخفيَ وجهي بين الكتب؛ لتوقظَ روحي من غفوة الحزن، أمَّا أنتَ فلم تتركْني أتروَّض وأعوم في بحر عينيك، وتركتني تتقاسمني الهواجسُ، وتتوزَّعني الدهشةُ، وسؤالٌ طريدٌ على شفتي: مابالك عجَّلت بموتي مبكِّرًا؟

أوجاعي المتوالية رقَّق بعضُها بعضًا، يكفي أنَّني أتألَّم من حرارة يتمي، ظننتك الدعوةَ المستجابة كما كانت تقول أمِّي، و هديَّة الربِّ التي يمنحها للصالحين من عباده، حدَّثْتني كثيرًا عن علاقة والدك بوالدتك وحبِّهما الشديد لبعضهما ولم تقدِّرْ نعمة وجود أب في حياتك، اعتقدتُ أنَّ هذا الأمرَ من المسلَّمات، وما أغبانا نحن البشر! عندما لا نفكِّر بما بين أيدينا، ما أنت

إلَّا نتيجةَ علاقةٍ صحيَّةٍ متوازنةٍ بين والدك ووالدتك، ومع هذا كثير الشكوى، دائمًا كنت تشتكي لي سوء حظِّك وتعتقد أنَّك مصابٌ بلعنة (سوء الطالع)، ولكن تأكَّدْ أنَّك من المحظوظين في الحياة؛ لأنَّك جئت في وسط أجمل مشاعر يُمكن أنْ تحصلَ بين رجلٍ وامرأةٍ، كثيرون من الأبناء يأتون للدنيا ولكن بلا حبٍّ، بلا متعةٍ، أمَّا أنت فأتيت وأنت تختصر الجمال في أرقى علاقةٍ بين رجلٍ وامرأةٍ، علاقة قامت على حبٍّ صادقٍ مدهشٍ، هل كنت تتمنَّى أنْ تأتيَ من علاقةٍ بين رجلٍ وامرأةٍ من الفاقدين الإحساس بالحياة ؟! مثل جارنا وزوجته اللَّذَين توقف دورُهما على تكديس الأطفال وترك الحياة لتتولَّى أمرهم، أولئك الأطفالُ المساكين الذين جاؤوا للحياة في وقت قيلولة المشاعر ثم انضمُّوا إلى قائمة الأسرة ككائناتٍ بلا قيمةٍ! اعذرْني فأنا أتوجَّع مثلك وأوجاعي معوَّجة كأعقاب السجائر، ولكنَّ الأوجاعَ والمصائب والحظوظ نسبيَّةٌ، و هأنذا أمامك لا أستطيع أنْ أمارسَ حياتي بشكلٍ واضحٍ فحياتي مشبَّعةٌ بالهوامش، أفتقد الأساسيَّات في الحياةَ، أفتقدُ العائلة (الأم، الأب، الأطفال)، آمنتُ بالحبِّ كثيرًا وراهنت على أبراج الفرح القليلة، وكلَّما قلت استقام ظهر الدنيا وفتحت ذراعيها لي، فجأةً تنحني وتتركني مكسورة القلب، ولو بحثت في كلِّ إيميلاتنا السابقة ستجد نفسك تعارضني لمجرَّد المعارضة، وربَّما لأنَّني امرأةٌ متنوِّرةٌ، ورجلٌ مثلُك يهمِّش مشاعري دائمًا، لم أنسَ محاضرةً طويلةً كتبتها لي توضِّح لي وجهة نظرك عن الحبِّ وعن تفاهته، وإيمانك بأنَّ الرجلَ لا يحتاج للحبِّ، أعلم أنَّك لم تعرفْ كيف تغلِّب البسمةَ على سواد الأيَّام، ولكن هل تعلم أنَّ أبشعَ ما نفعله هو ألَّا نتركَ مساحةً لحبٍّ بين قلبين يلتقيان... !!

كانت الرسالةُ مذيَّلةً بتوقيع (عاشقة مخذولة)، أحسَّت هياء بازدراءٍ شديدٍ لمشاعرها البيضاء المنفرطة كعقدٍ تناثر لؤلؤُهُ،

أرادتْ أنْ تمزِّقَها، إلَّا أنَّها فكَّرت أنْ تأخذَ صورةً للرسالة من هاتفها النقَّال، وبعد أنْ أخذت الصورة مزَّقت الرسالة وطيَّرتها في الغرفة فوق السرير وبدأت الوريقاتُ تتطاير وتتساقط بعيدًا، أخذت نفسًا عميقًا وكأنَّ شيئًا كان يجثم على صدرها وقد زال الآن.

اتَّصلت بسائقها ليُحضرَ السيَّارة وارتدت عباءتها، وخرجت مسرعةً ووقفتْ أمام منيرة قائلةً: هيَّا بنا!

وبعدما ركبتا السيَّارة، قالت منيرة: إلى أيِّ حدٍّ تثقين بي يا هياء؟

استغربت هياء السؤال وقالت: ولِم هذا السؤال ؟

ألديك شكٌّ أنَّني لا أثق بك ؟

حسنًا، لأؤكِّدَ لك ثقتي بك سأبوح لك بما لم أخبرْك به من قبل، بعد وفاة أمِّي كنتُ متعطِّشةً للرِّعاية والحنان، كنتُ مصابةً بالهلع، وليس لديَّ حصانةٌ عاطفيَّةٌ بعد موتها، والحياة لم تكنْ عادلةً معي أبدًا، حضر رجلٌ في حياتي كالغيث الذي أنبت النوار على أرض قلبي، وكلامي عنه ليس لأخذ رأيك إنَّما هي حاجتي لمن يشاركني همومي وآمالي، رأيته شيئًا ساحرًا جدًّا مثل النَّغمة الأولى لترنيمة فرح في الهواء الطلق المشبع بالسعادة، يصبح صوتي عذبًا مثل فراولةٍ يانعةٍ كلَّما تحدَّثت معه، أمَّا صوته فكان يأتي مثل روافد نهرٍ متَّجهةٍ معًا، حرَّةٍ، عميقةٍ، عكرةٍ؛ لتصبَّ في بحر قلبي المفتوح، لم تكنْ حالتي مستقرَّةً، كنتُ أعيش صدمةً نفسيَّةً، ولكنِّي لم أرد الاعتراف بها.

متظاهرة بالتفاجؤ قالت منيرة: هلا هلا ههههه يبدو أنَّ هناك حنينًا ملتهبًا وأنا حبيبتُك آخرُ مَنْ يعلم .... ؟

ضحكتْ هياء بصوتٍ عالٍ قائلةً:

« لا أظنُّ! وليس لهذا النوعِ من الرجال!

اسمه عبد العزيز.

رجلٌ لا يؤمن بالحبِّ، وذو شخصيَّةٍ مزدوجةٍ، وأنانية يعشق المساجلاتِ والحواراتِ القائمة على النديَّة و يرفض قبول الجملة الأخيرة، ولا ينضب شغفه في التفتيش عمَّا لا يعرف، يتحدَّث كثيرًا عن الإنسان وحقِّه وكرامته في العيش. وعندما يحين الحديث عن دور المرأة وحقِّها... يصمتُ، فالحقوق لديه غير مرتبطةٍ بالمرأة، فهي شيءٌ غامضٌ وبويهيمي بالنسبة له ولا يؤمن بقدراتها وأهمِّيتها في الحياة، ويكره أنْ تناقشَه أو تجادله، لا أنكر أنَّني أحببته كثيرًا، لديه صفاتٌ جيِّدةٌ، ولكنَّ الحبَّ لا يخضع لشروطٍ أو قوانين».

- يعني الحب أعمى ... !!

ـ الحبُّ أعمى في البداية، لكنَّه يصبح بصيرًا في النهاية، عندما التقيته في مقابلة عمل كنت مستميتةً على أنْ أعملَ بعد العصر في أيِّ مجالٍ، فتقدَّمت إلى إحدى الشركات كمترجمةٍ بنصف دوام، وكان هدفي هو إشغال نفسي فيما يفيد على أكثر من صعيدٍ، وخاصَّةً إشغالها عن الوحدة وذكريات الفقد والألم.

في ذلك اليوم توقَّفتْ ساعةُ حائطي هناك، على تلك الكنبة الصغيرةِ الضيِّقةِ، أدخلت يدي تحت عباءتي لإحساسي بالبرد والقشعريرة تسري بين جسدي وملابسي. بدأتُ أعبث بخصلات شعري، ولم أعدْ أعي ما أقول، استغربتُ من نفسي ولكنِّي سمعتُ صوت مزلاجٍ يفتح، فهناك بابٌ داخل قلبي فتح بعنفٍ، وهواءٌ باردٌ تسلَّل إلى داخل روحي، كنتُ قبل المقابلة عازمةً على السفر لقرية أمِّي رحمها الله، فمازالت حكاياتُها - في بيئتها الأولى وحياتها أيَّام صباها ويفاعتها- حاضرةً بقوَّةٍ في وجداني أردت أنْ أشمَّ رائحة طفولتها الكسيحة، كان بداخلي ألفُ سؤالٍ وسؤال ..

كنتُ أنوي السفر في أقرب فرصةٍ مع أنَّني لا أحبُّ السفر كثيرًا كما تعلمين، و منطويةٌ داخل عالمي كثيرًا، إلَّا أنَّني فكَّرت في أنَّ السفرَ لقريتها قد يبلسم وينقِّي شيئًا من وجعي، مع ما في السفر من مواقف ومصادفاتٍ و أسرارٍ، فهو يكشف لنا أجزاءً غائبةً عنَّا من ذواتنا، فنحسُّ بأنَّ لدينا قناةً جديدةً خاصَّة للاتصال بالكون، ويكون فهمًا جديدًا للحياة.

توقَّفتْ هياء قليلاً عن الحديث، وأمسكتْ بيد منيرة وضغطت عليها، ثمَّ قالت: «إنَّني أعرف أنَّ قصَّتي هذه لا علاقة لها بالعقل أو بالمنطق، ولكنِّي عندما أكون معك لا أشعر بالخوف، وتتراقص ذكرياتي أمامي السيِّئة منها قبل الجيِّدة».

قالت منيرة بابتسامةٍ عريضةٍ: « أنا سعيدةٌ حقًّا أنَّني مصدرُ أمانٍ لكِ!

ثمَّ زمَّت شفتيها، وهي تغمز لها: ستنتهي مشكلاتك، ذات يوم ستتوقَّفين وتضحكين من نفسك، وستسخرين من هذه التجارب يومًا ما « ... ولكن لديَّ فضولٌ قاتلٌ للاستماع لباقي القصة ...أكملي أكملي.

ــ وصلنا إلى المكتبة، دعينا ننزل وننجز ما جئنا من أجله، وللحديث بقيَّةٌ فيما بعد ...

وطن وحضن

(١٠)

كان المشهدُ في المطار وأنا متَّجهٌ للطائرة كمشاهد النهايات السعيدة لأفلام الحركة

الـ (ACTION)، كانت الساعةُ تشير للخامسة مساءً، و هأنذا أعود بعد أنْ أنجزتُ المهمَّة، وأنا أحمل شهادتي التي لطالما كافحت للحصول عليها، وقشعريرةٌ تغزو جسدي لا أعرف كيف أصفها ..!!

كنتُ أفكِّر فيما يتمُّ تداولُه عن شحِّ فرص العمل في البلد للخريجين من الداخل أو للعائدين من الابتعاث، ووفرة الفرص للوافدين، لكن بأجورٍ زهيدةٍ !

ولكن كما تقول جدَّتي: (رزق بني آدم تحت رجليه).

استويت في مقعدي على متن الطائرة و في مكاني المفضَّل بجانب النافذة المطلَّة على الفضاء؛ لأسرحَ ببصري في ملكوت الله.

وفجأةً بدأت أصواتٌ تتعالى، أشبه بزعيقٍ حيوانيٍّ جاء من مقدِّمة الطائرة، جاء صوتٌ حاسمٌ: لن أبدِّلَ مقعدي معك !

ثمَّ هدأت الأصوات إلَّا من بعض همهمات الركَّاب، وبينما أنا أربط حزام المقعد، جلس بجانبي رجلٌ ضخم الجثَّة و متبسِّمٌ التفتَ إليَّ قائلاً : سلامو أليكم.

رفعت بصري نحوه: وعليكم السلام .

وإذا به رجلٌ مستدير الوجه ذو عينين زرقاوين غائرتين قليلاً، وشعره رماديٌّ تتخلَّله خصلاتٌ بيضاءُ ناعمةٌ، وبعد أن استوى على مقعده، وأغلق هاتفَهُ النَّقَّالَ، التفت ناحيتي قائلاً:

- أنا ديريك جونسون من ولاية أريزونا.

- أنا جمال عبدالعزيز من السعودية .. الرياض.

– يُقال: إنَّ الرياضَ تطوَّرت كثيرًا خلال السنوات القليلة الماضية، وتضاعف حجمها عدَّة مرَّاتٍ .. و هأنذا أعود إليها بعد سنواتٍ طويلةٍ!

لم يعطني فرصةً حتَّى لأعلِّقَ على كلامه، بل أكملَ حديثَه بعربيَّته ذات اللَّكنة الشامية المكسَّرة بكلِّ شغفٍ.

– أنا عشت في شمال السعودية كنتُ طبيبًا في القوات المسلَّحة، مكثتُ مدَّة ٢٣ عامًا في مع أناسٍ طيبين .

لقد وصف لي المنطقة الشماليَّة وصفًا أسطوريًّا بتضاريسها و قبائلها وثقافتها، وحكى لي كيف أنَّه عاش بينهم، وتعلَّم منهم حتَّى الطبخ، ووصف كيف تعلَّم حلْبَ الإبل ولذَّة حليب النوق.. إلخ.

كان يتحدَّث بحبٍّ وحنينٍ جارفٍ لأيَّامه هناك، تعجَّبت من هذا الخواجة المستعرب !

حضرتْ في ذهني تلك الصحارى الواسعةُ في الشمال، وتساءلت بيني وبين نفسي:

ترى ماذا اكتشف في تلك الصحاري؟ هل جال فيها وزارها كما يفعل عادةً الأجانبُ عندما يزورون بلادنا؟ و ما الشيءُ الذي عرفه، و لا نعرفه عنها؟

ما الذي لامس روحَهُ وجعله شغوفًا بأرضٍ ليست أرضَهُ، ومع أناسٍ ليسوا من أهل لغته، ولا من بني جنسه إلى هذا الحدِّ؟ كان يتغنَّى بأصدقائه الشماليين أبي عقاب، وأبي مطلق ....إلخ.

ويسرد لي حكاياتِهم، وشجاعتهم، وكرمهم، وحكمتهم. كان معجبًا جدًّا بقِيمهم الأخلاقيَّة ومقدرتهم على الصبر.

بشرٌ عالقون في ذاكرته، وهو رجلٌ ــ كما يظهر ــ تسكنه الإنسانيَّة، اكتشفتُ من حديثه اطِّلاعَهُ الواسعَ على اللَّغة العربية،

وإنْ بقيتْ لثغةُ لسانه والعلوم الشرعية الإسلاميَّة، يحفظ الكثيرَ من الآيات القرآنية، ويردِّدها كأمثلةٍ عند حديثه، الغريب أنَّه كان يتذمَّر من حياته في وطنه وطريقة عيش المجتمعات الغربية، وهذا أثار دهشتي كثيرًا.

يقول:أنا من المحظوظين في الحياة، فقد أتاح لي القدرُ العيشَ في الصحراء وبين رجالٍ شجعان مضيافين، أحببتُ حياة الصحراء في بساطتها ونقائها ووضوحها و في حرِّيَّتها وخشونتها، مثلما أحببتُ قيم أهلها ومنظومتهم الأخلاقيَّة، وعاداتهم وتقاليدهم... أنتم البدو كرماء ومحبُّون للحريَّة.

هدأ اندفاعُهُ قليلاً وتغيَّرت نبرة صوته، وانشغل بفتح الشاشة التي أمامه، توقَّفتْ أصابعُه عن الحركة وقال:

– في الصحراء لا يفكِّرون بالموت كثيرًا؛ لأنَّه يُعدُّ جزءًا من الحياة، هو ليس نقيضًا لها بل مكمِّلًا بوصفه ضرورةً للحياة، أو امتداداً طبيعيًّا لها!

«لم أستوعبْ فعلاً ما يقول، ولكن خالجني شعورٌ مبهجٌ من خلال حديثه الشائق الشغوف».

عاد يتحدَّث عن الموت وقد حدَّق للأعلى واستقام ظهرُهُ قائلاً:

– في قلب الحياة، كلُّ شيءٍ يدور حول الموت.

قطع حديثنا مرورُ المضيفةِ وتقديمها لبعض المشروبات.

أكمل حديثَهُ بعد أن ارتشف من الكولا التي تناولها.

– أعرف الكثير عن حياة الصحراء وأهلها يا بُني، بينما لا أعرف سوى القليل عن أجدادي أو لا أكاد أعرفهم، يرجع أصل عائلتي إلى البرتغال، هم بالنسبة لي شعبٌ غامضٌ مقارنة بالبدو، و لا أستطيع التعرُّف على ملامحهم بسهولةٍ، تبدو عاداتُهم غريبةً،

و يشكِّلون أحجيةً عاشت على الأرض وذهبت للفناء دون أنْ تكشفَ أسرارهم، جاء أجدادي بعد أنْ استدارت الأرض بهم إلى الأراضي الأمريكيَّة ربَّما دافعهم الفضول، أو الوضوح، أو ربَّما الحرب، جاءُوا؛ ليموتوا على سواحلها المكشوفة.

«تخيَّلتُ نفسي داخل روايةٍ من روايات أجاثا كريستي، وكأنَّني أحاول فكَّ رموز لغزٍ عصيٍّ عن الحلِّ».

وبدون مقدِّماتٍ ضحك الرجل بصوتٍ عالٍ وهو يصفِّق بيديه.. التفت إليَّ يقول: تخيَّلْ أنَّني كنتُ أعتقد أنَّ الحياةَ تتمركز حولي، وأنَّني أستطيع إصلاح كلِّ شيءٍ، إلاَّ أنَّ الحياةَ سرعان ما خذلتْني، وأدارت لي وجهها، فبعد وفاة ابني جوش، انغلقتُ على نفسي، وأحسستُ بالوحدة، على الرغم من وجود الأصدقاء حولي، كنت أكافح من أجل رؤية أيِّ ضوءٍ في قلبي، كلُّ شيءٍ انطفأ بموته في حياتي، فيحدث أنْ تموتَ، وأنت حيٌّ!

ثمَّ استطرد قائلاً:

طليقتي كانت محاميةً تعمل في شركة تأمين، لم يعجبْها العيش معي، امرأةٌ طموحةٌ جدًّا، هجرتني أنا وجوش ولم تسألْ عنَّا.. كان ابني متعلِّقًا بها جدًّا و وعدته مرارًا أنْ تزورَه نهاية كلِّ أسبوع، وتأخذه في الإجازات والأعياد، ولكنَّها خذلته كثيرًا، اضطرَّت أمِّي إلى الانتقال؛ لتقيمَ معنا أنا وجوش الصغير ليس حبًّا فيَّ، ولكن حبًّا في جوش، وكعادة الجدَّات بدأت تفرض قوانينها على كلِّ الموجودين في البيت، لم يتحمَّلْ جوش فقدانَ أمِّه وقوانين جدَّته وغيابي المتكرِّر، وفي مساءٍ حزينٍ كنت مسافرًا، و كانت أمِّي خارج المنزل، تسلَّل جوش إلى المرآب، حيث كنتُ أركن سيارتي فيه كلَّما سافرت، و قام بإيصال خرطوم مطاطيٍّ من عادم السيارة وأدخله من النافذة وأحكم إغلاق منفذ الخرطوم بأن

وضع عليه لاصقًا، وجلس في المقعد الأمامي وأدار المحرك (ولا أعرف أين تعلَّم طريقة الموت تلك) كانت جدَّتُه تعتقد بوجوده عند أحد أصدقائه، وعندما تأخَّر أبلغت الشرطة، ووجدوه بعد بحثٍ قصيرٍ ممدَّدًا داخل السيارة، وقد ترك قصاصة ورقةٍ مكتوبٌ فيها (الآن تنتهي معاناتي).

« كنتُ متأثِّرًا و مشدودًا له وهو يتحدَّث، ورأيتُ في عينيه حزنًا كالجبل، حديثه عن الموت أثار تساؤلاتي التي لطالما لجمتها بالسكوت والهروب والتغافل، حتَّى هذه اللَّحظةِ كنتُ أفهم أنَّ الموتَ شيءٌ بعيدٌ، ولا يزور إلَّا كبارَ السنِّ أو المرضى ومعدومي الإرادة، ولكنَّ الحقيقةَ أنه بين أيدينا وتحت أمرنا نستحضره متى أردنا!»

انقطع ديرك عن الكلام، و انشغل بتقليب القنوات التي أمامه، ثمَّ توقَّف عند محطَّة CNN الإخباريَّة و زمَّ شفتيه، وعقد حاجبيه، وصرخ نحن كمواطنين لا نأبه للمآسي الإنسانيَّة التي تجري و يختلقها الساسة، أنا لا أنتمي لأحدٍ، برأيي السياسة أصابها العفن، والسياسيُّون أكبر المنافقين، فلا أحد يرجع للأخلاق والمبادئ الإنسانيَّة، بل يحتكمون إلى رجال المال والاقتصاد، أولئك المتوحِّشون !

كان غاضبًا جدًّا، والمؤكَّد أنَّه حزينٌ أيضًا ممَّا يشاهده من فواجع وجنونٍ في جميع أنحاء العالم، ليتني أعطيه قليلًا من تبلُّدي وبرودي، فأنا لا أفكِّر إلاَّ بنفسي، أو ربَّما حتَّى نفسي لا أعيرها الاهتمام الكافي والصحيح، ولا أريد إشغالها بشيءٍ آخرَ غير أهدافي، يكفي ما عشته من بؤسٍ في طفولتي، ولسان حالي دائمًا: دع الآخرين يعانون مثلما عانيت تبًّا لي!

أدرك بأنَّني رجلٌ واقعٌ في فخِّ الماضي، ولا أقدِّر على التفاعل بشكلٍ إيجابيٍّ مع أيِّ شأنٍ عام أو خاصٍّ بالآخرين، ولا حتَّى التفكيرِ فيه، و يبدو أنَّ الكلَّ مثخنٌ بالجراح والازدواجيَّة ..!

ـ قلت لديرك: هدِّئ من روعك، مهما انفعلتَ لن يحسَّ بك أحدٌ، ولن تسمعَ إلَّا صدى صوتك، ماذا تتوقَّع من هذا العالمِ السيِّئ الأخلاق؟

ما كان يحدث هو ذلك الذي يؤجِّجني من الأعماق، أعماق اللَّاوعي الذي حاولت خنقه بيدي حتَّى لا يطلَّ برأسه المدبَّب ويفسد عليَّ حياتي، في عالم اللَّاوعي البشر يبدون متشابهين في غرائزهم و وحشيَّتهم واندفاعهم تجاه الحياة.

أُطفئت الأنوارُ داخل الطائرة، و لاذ ديرك بالصمت واستسلم للنوم، تناولتُ حبَّتي بنادول نايت، وبدأتُ بمتابعة فيلم أمريكي على إحدى القنوات، وسرحتُ بخيالي بعيدًا عنه، اختلط عندي الواقعُ بالأحلام، أحبُّ هذه اللَّحظاتِ، هنا تبدأ مرحلة الهروب من هذا العالمِ والعيش في ملكوت الذات.

الطفلة المدلَّلة

(١١)

ـ في ذلك اليوم يا منيرة اجتاحتني رغبةٌ شديدةٌ في الدخول إلى عالمه، كان بالنسبَة لي وقتئذٍ كالقدر السعيد، بل القدر السعيد بعينه. في البداية كان يتحدَّث معي بشكل آليٍّ كالذي يرسم شيئًا بزوايا حادَّةٍ وواضحةٍ، كنتُ كالذي يغرقُ في أبجديَّةٍ لم يفهمْها، وكأنَّني طفلةٌ مدلَّلةٌ تتلمَّس العالم المحجوب عنها وتكبِّلها الدهشة، في ذلك اليوم رغبت أنْ أهديَه السماء بنجومها وأقمارها، ارتعش قلبي كجناحيَ طائرٍ جريح يرفرف آملًا في الطيران من جديدٍ، كانت هناك كلماتٌ ومعانٍ تتراقص في أفقي البعيدِ، ولا أقدر على تحديدها، أحسستُ بمشاعر جارفةٍ تقترب .. مشاعر تطوِّقني كتلك التي كانت قبل فقْدِ أمِّي، ولكنَّها هذه المرَّة بطعمٍ آخرَ وخارج ما ألفته وبعيدًا عن أعراف أبجديَّة الحروف... !

ـ يبدو أنَّكِ أحببتِه بصدقٍ يا هياء.

– كُنتُ.

– أنا أعرفكِ جيِّدًا وأعرف عمق مشاعرك عندما تمنحينها الإذن بالهطول، ربَّما هو فقط رجلٌ لا يستحقُّكِ... وتدركين أنت ذلك.

– أعلم ولكن .. سلطان الحبِّ (يَا مِن شَرا لهَ مِنْ حَلاَلَهَ عِلهَ).

لم أستطع النوم في ليلة تهجّم علي فيها بأقذع الألفاظ .. وتأكَّدتُ فعلًا أنَّه لا يناسبني، ولو أحببتُه، لم أفهمْ ما المشكلةُ في اختلاف وجهة النظر والرؤى في موضوعٍ جدليٍّ يحتمل أكثر من معنًى، وأكثر من تفسيرٍ..!

ـ يُخيَّل إليَّ أنَّكِ لامستِ قصورَهُ المعرفيَّ أو النفسيَّ، ولكن هذا لا يُبرِّر له الانفلاتَ عليك وكسر حاجز الاحترام بينكما».

– غضبت منه لفترةٍ، ولكنِّي عدتُ إليه بكلِّ حبٍّ وشوقٍ، لا أعرف كيف أصِفُ تصرُّفي ذاك .. أأنا محبَّةٌ عاشقةٌ، أم امرأةٌ طيِّبةٌ، أم غريرةٌ ساذجةٌ ؟!

– في الحبِّ فقط ..!!

– ربَّما عشقتهِ، لكنَّه لم يفتحْ لك ذراعيهِ، ولم يجهدْ نفسه في احتوائك، بل حاول كسركِ، ربَّما وإخضاعك كما يفعل معظم الرجال إذا أدركوا تعلُّقنا بهم، وكعادة أيِّ رجل مغرورٍ، ربَّما بينكما الكثيرُ من التفاصيل الصغيرة من ضحكاتٍ وأحاديث وذكرياتٍ لم تنقطعْ عن ذاكرتك، وصدِّقيني لو قلتُ لكِ أنَّني أخاف عليكِ منكِ، لا أرغب في تقمُّص دور العرَّافة وأستبصر ما يخبِّئه لك القدر، وماهي إلا سِنةٌ من النَّوم فقط؛ لأتمكَّنَ من رؤيتكِ في المستقبل معه، فالحبُّ يا هياء ليس له شريعةٌ ولا دينٌ.

– لا أنكر أنَّني اختلطتُ به كالسكر بالماء، وكانت فكرةُ غيابه عنِّي تقتلني، كان كلُّ شيءٍ بداخلي مسجونًا قبله، لقد حرَّر أفكاري وروحي وقلبي من قيودٍ كثيرةٍ، ملأ عقلي قبل قلبي، ولكنَّه هزَّ يقيني وثقتي بنفسي بتعامله القاسي المتعالي معي، في البداية شعرتُ تمامًا بأنَّنا كائنان خُلقنا لبعضنا بلا تردُّدٍ، فكلُّ الحنين له وهو معي.

أحيانًا يسألُني بتهكُّم: لِم كلُّ هذا الحنين يا هياء؟ هذا مدمِّرٌ وقاتلٌ، هذا استعبادٌ لروحكِ، كنتُ أجيبُه أنَّ هناك شيئًا يقودُني نحوه بشكلٍ أعمى، أسأله: ماذا فعلت بي؟ وما السرُّ في ذلك ؟ ماذا أكلتُ مِن يدك؟ أحيانًا أخاف عليه من حماقاتي وارتباكي، وكنتُ أسأل نفسي فعليًّا:

لماذا باب سعادتي مواربٌ معه؟

ولماذا هو أوَّلُ رجلٍ يخترق مشاعري بسرعة الضوء؟

ولماذا يكون أحيانًا غيورًا على نفسه أكثرَ منِّي؟

كنتُ أحسبهُ هديَّةً من خالق السماء يمنحها الصالحين من عباده.

وكلَّما حاولتُ التخلُّص منه أجده يتوغَّل فيَّ أكثرَ مثلَ الْمُدْيةِ الحادَّةِ.

كتبت له ذات مساءٍ:

بعد أنْ عرفتكَ ألغيتُ كلَّ مواعيدي مع الحيرة والكآبةِ، وقرَّرتُ أنْ تكونَ كلَّ فضائي الذي أتحرَّك فيه، فأنا معك أتحوَّل إلى طفلةٍ لا تكبر أبدًا، هل رأيت عينيَّ الحالمتين كما تصفهما دائما ..! لا يُوجد، ولم يُوجد بهما إلَّا رجلٌ واحدٌ هو أنت، عندما التقيتكَ أوَّل مرَّةٍ عزف الكون على مزمار الفرح، وانزلقت ابتسامتي على وجهي كالثلج مستقيمةً نقيَّةً، أتخيَّلك بطلَ حكاياتي الذي لا يُقهر، والذي احتضن يُتمي وحيرتي. أعلم أنَّ لديك مخاوفَك التي لا يُمكن أنْ تشرحَها لي، و لديك التزاماتك وحياتك المليئة بكلِّ شيءٍ إلَّا منِّي أنا. أعلم أنَّكَ رجلٌ لا تحبُّ المقارنة وتخاف أنْ تصحوَ ذات صباحٍ وتجدني كذبةً ككذبة إبريل. أعلم أنَّك لا تستطيع أنْ تفعلَ لي شيئًا. أتفهَّمك وأتفهَّم مللَكَ من كلِّ شيءٍ حولك. أتفهَّم أنَّك رجلٌ غيورٌ؛ لذلك تحنق عليَّ أحيانًا. أشعر بك عندما تهاجمني وأنت لا تتفهَّم نفسك. أعذركَ ولا أغضب منك. أتحمَّل مزاجَكَ الصعب، وأنت تتحمَّل ارتباكي غير العادي أمامك، فأصبح فوضويَّةً معكَ. أفكاري غيرُ مصفوفةٍ، وغير مصقولةٍ. تربكني الحياةُ، وفكرةُ الفقْد تجعلني عصبيَّةً، لا أطيق فكرة أنْ تكونَ بعيدًا عنِّي، وأعلم أنِّي أصبحت مؤخَّرًا لحوحةً كثيرًا ومتطلِّبةً؛ لأنِّي لا أرغب أنْ تفارقَني أو تغيبَ عنِّي مقدار رفَّة عينٍ.

البعد يا عبدالعزيز يولِّد الجفاءَ، كان لدي كلامٌ كثيرٌ كثير، رغبتُ أنْ أنثرَهُ كالياقوت على صدركَ، لا يزال هنا عطرٌ، ودفءٌ، وحبٌّ يتطاير. أحتاجكَ؛ لتحبَّني كما أنا بلا رتوشٍ. أحتاجك أكثر من أيِّ وقتٍ مضى من حياتي.

إلَّا أنَّه تجاهل نداءاتي، ودخل كهفه المليء بالغرائب. ربَّما أزعجتْهُ فكرةُ الارتباط بامرأةٍ، وعلاقته بي كانت من باب الفضول والاكتشاف، فهو غارقٌ في نرجسيَّته.

«كانت هياءُ كمريضٍ شخصًا علَّته وشرع في علاجها، وبدت كأنَّها على مشارف نسيانه».

استأنفتْ هياء حديثَها وهي تهزُّ كتفيها بلا مبالاةٍ قائلةً:

كان يفرض عليَّ أنْ ألعبَ دورًا ليس لي، لم أستسغْ هذه اللُّعبةَ فقد كان الأمرُ أكبرَ من لعبةٍ، و عمليًّا كنت أحبُّه، والحبُّ يعيد إنتاج الحياة ويخلقها من جديدٍ، الحبُّ امتيازٌ عظيمٌ يثري حياة المرأة والرجل على حدٍّ سواء، وأنتِ تعرفين أنَّ النساءَ في حالات الحبِّ يمنحنَ الكثير، ويكنَّ أكثرَ قابليَّةً للتعاطف العميق مع كلِّ شيءٍ حولهن.

فجأةً صمتت هياء للحظاتٍ تخلَّلتها زفرةٌ عميقةٌ وأردفتْ:

« أحسُّ بالاختناق»، ثمَّ اختنقت بعبْرتها، وتساقطت دموعُها بغزارةٍ.

أشاحت بوجهها عن منيرة، والخيبة تلفُّها ولا تستطيع منها فكاكًا، تنهَّدت بعمقٍ وأرختْ كتفيها واستندتْ على مسند الرأس في مقعد السيَّارة للحظاتٍ، ثمَّ أكملت والدموعُ تبلِّل شفتيها :

عبدالعزيز اقتحم قلبي ولم يحترمْه، ثمَّ هجرني بلا سببٍ، كنت في كلِّ ساعةٍ أتفقَّد هاتفي وإيميلي بحثًا عن مكالمةٍ أو رسالة اعتذارٍ منه، ثمَّ أحسب وأحسب المسافة بين أسئلتي الشاردة وقلبي الغاوي، هل سيرجع؟ متى؟ ولماذا؟ وكيف؟

أصبحت أخاف اللَّيل. لا أريد أنْ تتقاذفَني أوجاعُهُ الباردةُ، فأتجنَّب إطفاء المصابيح وأفتح الستائر في غرفتي، وأتدثَّر بغطاءٍ ثقيل أكوِّم جسدي تحته حتَّى أبدو كمن يدفنون أجسادهم برمل الشواطئ، وفي كلِّ صباحٍ كنتُ أفتح عيني برفقٍ شديدٍ بعدما تورَّمتا من البكاء، أحسُّ بطعناتٍ تخترق قلبي في كلِّ حينٍ، وبمرارةٍ لا أستطيع تجاوزها، بقيتُ على هذه الحالِ أربعة أشهرٍ، ثمَّ تنبَّهت لنفسي وتساءلتُ ماذا فعلتُ بنفسي، ولِمَ كلُّ هذا؟!

قضيتُ كلَّ تلك الفترةِ مستنزفةً ومجهدةً ووجهي متكلِّسٌ بلا تعابيرَ، والحزن يجثم على صدري، أحسُّ بالشفقة على حالي، وأتساءل: كيف وصلتُ لهذه المرحلةِ من الألم؟

وفي صباح يوم إجازةٍ استيقظتُ، وقد قرَّرتُ أنْ أنفضَ عن كاهلي كلَّ هذا... بدأت أسخر من نفسي ومن وضعي وحالتي، وقرَّرتُ في ذلك اليوم أنْ أقتلَهُ في داخلي وألَّا أسمحَ له بالظهور مرَّةً أخرى في حياتي، ثمَّ وضعتُ خطَّةً؛ لأتخلَّصَ من مشاعري السلبيَّةِ وتعذيبي لذاتي جرَّاءَ مشاعري تجاه هذا الرجل المتغطرس، على الرغم من أنَّني أحيانًا أضع خططًا لا أتَّبعها للنهَاية؛ لأنَّها تتعرَّض للخلل عند نقطةٍ معيَّنةٍ. بدأت في تجاهل مشاعري ويومًا بعد يوم بدأت أعود لحياتي الطبيعيَّة، وأقبلت على عملي. أعلم أنَّ الزمنَ لا يكسر الأشياء ولا ينهيها، ربَّما يتركها معلَّقةً متطايرةً، ولكنَّني قرَّرتُ إنهاء كلِّ شيءٍ يربطني به بإرادتي، أمورٌ عدَّة جعلتني أشعر بالتحسُّن، ولكنَّ أبرزَها أنَّه رجع لمراسلتي من جديدٍ !! ولم أردّ عليه، أو ألتفتْ له، ربَّما هذا ما جعلني أحسُّ بالانتصار والامتلاء والتحسُّن، أنا حقودةٌ كالجمل لا أستطيع نسيان أيَّ موقفٍ يسبِّبه لي أيُّ إنسانٍ، ولا أتسامح أبدًا.

التفتتْ هياء إلى منيرة، وملامح الانتصار تعلو وجهها قائلةً:

لا تقلقي أنا الآن متماسكةٌ جدًّا، ما عليك من دموعي التي فاضت قبل قليل .. عبرت المرحلة، فقد أنضجتني وأدركت أنَّ خمسًا وتسعين بالمئة من السعادة تكمن في الاختيار المناسب.

«في تلك اللَّحظةِ نظرت لها منيرة نظرةً تجيش بالحنان، وأمسكت بيدها بشدَّةٍ وحضنتْها، ومنيرة من الأشخاص الذين يُخيَّل إلى الناس بأنَّها ممَّن يعيشون بلا مبالاةٍ، وبلا تفكيرٍ طيلة الوقت».

ثمَّ أفلتتْها منيرة ودفعتْها بقوَّةٍ، وهي تمدُّ لها لسانَها: لديك الكثيرُ من الوقت؛ لتحبِّي وتتزوجي وتنجبي هههه.

– آخر ما أودُّ القيامَ به هو إنجاب طفل، كان أكبرُ حافزٍ لي للزواج هو والدتي رحمَها الله، ربَّما أموتُ قبل ذلك، فنساء عائلتي يمتنَ باكرًا.

– ولِمَ هذا التشاؤم ؟! قدِّمي لنفسكِ معروفًا يا هياء، تفاءلي بالخير تجديه.

نهضتْ هياء قائلةً: هيَّا بنا فقد تأخَّر الوقت كثيرًا، وثرثرتكِ لاتنتهي هههه

ـ حسنًا ههه، أيَّتها الصامتةُ طوال الوقت.

وخرجتا من المطعم الصيني الذي قصدتاهُ بعد تسوِّقٍ طويلٍ في المكتبة.

كان يومًا متقلِّبا ومرهقًا بالنسبة لهما، وإنْ بلسمتْ منيرة قليلًا دوامل الذكرى التي لم تجفّ.

تمرَّن على الصبر
فالربح والخسارة أمران منصفان في هذه الحياة
(١٢)

كانت علاقةُ هياء مع نفسها عدائيَّةً لفترةٍ طويلةٍ، و أحسَّتْ بأنَّها محكومةٌ بالضياع، فكبَّلها الخوف، على الرغم من إدراكها بأنَّ الخوفَ سيجعلها تخسر كلَّ شيءٍ، فاجأتها الحياةُ، وكشفت لها نفسها في مواقفَ لم تكنْ تعي بها ذاتَها، ألقت بالمسؤوليَّة على أكتافها وتركتها عارية الصدر!

وليس حملُ المسؤوليَّة بالنسبة لها صعبًا بذاته، ولكنَّ الصعبَ هو ما يترتَّب عليه، وخذلان الآخرين أمرٌ محبطٌ؛ لذا كانت تبتعد عن المسؤوليات المرتبطة بالناس ماعدا المقرَّبين ... و أحبَّت أشياء وتفاصيل صغيرةً في هذه الحياةِ لا يُمكن لها أنْ تخذلَها مثل: الرسائل والنصوص المكتوبة بخطِّ اليد، الخرائط، الساعات الرمليَّة، والقواقع والأصداف البحرية ... إلخ، هي أشياءٌ تقليديَّةٌ ومحافظة على طبيعتها، ولا تخذل أحدًا كما كانت تردِّد ..على حافَّة أنوثتها مشتْ فارغة القلب إلَّا من الفقْد والألم، يتلقَّفها اليتْمُ والكثير من الوحدة السّامة، معترفةٌ بحزنٍ صغيرٍ، هو حزنٌ أنيقٌ لازال يلبس الحِداد على رجلٍ عشقته بمقدارعشق ألف امرأةٍ لرجلٍ حال دونه اليمُّ، وغاب في لُجَّة أمواج البحر!

غير أنَّ خوفَ الصغيرات بداخلها بدأ يتلاشى بعد أن استنفدت الحزن على والدتها وتجربتها القصيرة في الحبِّ، أنضجتْها التجاربُ وفتحت عينيها على أشياء لم تكن تنتبه لها.

كانت تتأمَّل شخصيَّة منيرة التي تجلس أمامها تقرأ في هاتفها النقَّال، وفي داخلها تقول: لم أستفقْ من قلقي في الفترة الماضية بشكلٍ كاملٍ، وبصعوبةٍ أحاول الآن أنْ أرتِّبَ ما تبعثر منِّي،

فالتجربة تحمِّلنا إلى علوٍّ شاهقٍ، وأحيانًا تخيِّم عليها الكآبةُ والسواد مثلُ خيوط الظلام التي ينتهي بها آخر اليوم، أتمنَّى أنْ أجدَ تلك العصا السحريَّة كالتي في قصص الخيال، فأغيِّر بها مظاهرَ الأشياء من حولي وأضفي البهجة على مدينةٍ بأكملها.

«لم أعدْ أفكِّر بنفسي فقط كالسابق، بل أصبحتُ أفكِّر بأمورٍ أخرى بعيدةٍ عن الذات مثل تفكيري أحيانًا بمنيرة، هي جزءٌ من تاريخي الصغير في هذه الحياةِ »

أقلق بشأنها بعض الأحيان إنْ لاحظتُ عليها تبدُّلًا أو لم تكنْ في أحسن حالاتها...!

أكتشفُ ذلك في صمتها المفاجئ الجارح؛ فهو وسيلتُها الوحيدة للتعبير عن الألم، وسبيلها لمقاومة الفوضى في حياتها، فأبادر لتشتيتها حتَّى لا تغرقَ في الحزن، مثلما تبادر هي من أجلي...

ثمَّ بادرتُها قائلةً:

- ما الذي يمكنُني فعلُه لمقاومة هذه الأنا الواحدة والكآبات المتعدِّدة التي أحسُّ بها؟

نظرتْ منيرة إليها بسخريةٍ وقالت: توقَّفي عن القلق، واخترعي رجلًا في أوراقكوتحدَّثي إليه؛ ليحميكِ من العذاب النفسي والضمير الصاحي.

ضربتْ هياء بيدها على الطاولة الخشبيَّة قائلةً: رائع ... فكرة مذهلة (صايرة حكيمة ها اليومين) ههه ..!

- طبعًا من يتزوَّج يصبح حكيمًا من القهر والضغط، وضحكت ضحكةً مجلجلةً !

نظرت هياء لمنيرة متعجِّبةً! ثمَّ تناولتْ منيرة كأس الماء الذي أمامها، شربت بصوتٍ عالٍ وكأنَّها تتعمَّد إضحاك هياء،

أصابها سعالٌ مفاجئٌ فاحمرَّ وجهُها ودمعت عيناها، ثمَّ التقطتْ أنفاسها، وكأس الماء في يدها و تمتمت بالمعوِّذات وبـ(قل هو الله أحد) محاولةً تهدئة روع نفسها، وهي التي تخاف الحسد كثيرًا، وتؤمن بخبث نوايا البشر.

بعدما هدأت منيرة، تناولت شريحةً من الأناناس الطازج وهي تقول :

تعلمين أنَّنا في الأزمات غالبًا ما نفتقد لصوت الحكمة الداخلي، ونستسلم للضَّعف والخوف، كانت ترعبني فكرة ألَّا أتمكَّن من لملمة شتات نفسي مجدَّدًا بعد طلاقي وصعوبة فصل أطفالي عن والدهم، إلَّا أنَّني كنتُ أضغط على نفسي وأرسل لعقلي رسائل داخليَّة، وأنظر للمرآة وأردِّد أنا قويَّةٌ، أنا قويَّةٌ، مررتُ بمواقف أقسى من هذه، ولكنِّي لم أستطعْ أنْ أتصالحَ مع نفسي كالسابق، وفشلت في حلِّ مشكلاتي مع زوجي.

- قاطعتها هياء: ولكنَّ المشكلاتِ لستِ أنتِ سببُها..!

- ولكنِّي سببُ الانفصال، وحرمان أطفالي من والدهم.

- أرجوك منيرة، أتوسَّل إليكِ، زوجُكِ مريضٌ نفسيًّا.

- أعرف أنَّه يجبُ ألَّا أقولَ هذا، ولكنِّي شعرتُ بالراحة عندما تطلَّقتُ منه، صار باستطاعتي أنْ أديرَ حياتي، وأربِّي أطفالي بشكلٍ أفضل.

الفصام الذي يعاني منه (عبدالمجيد) جعل حياتنا مختلفةً عن باقي الأزواج، لا تعلمين كيف يعيش هؤلاء المرضى في الحياة، هو رجلٌ طيِّبٌ ولطيفٌ في أحواله العادية، ولكن تبًّا لهذا المرضِ الذي يجعله كثيرَ الهلاوس و الظنون والشكوك، ويعتقد أنَّه سوف يُساء إليه، وأنَّ هنالك مؤامرةً تُحاك ضدَّه، لقد تأثَّرتْ حياتنا بالكامل، وأصبحتُ أعيش بخوفٍ بالغٍ معه، لقد سرق مستقبلي .

– هو سرق ماضيكِ، ولكن لم يسرقْ مستقبلكِ، أنا واثقةٌ من ذلك.

– لا تعلمين مقدار خوفي منه، أخاف على أولادي منه، و أخاف على نفسي والمشكلة الحقيقيَّة أنَّه لا يعترف بمرضِهِ ولا يستجيب للعلاج، دائمًا متيقِّظٌ، تعبتُ من ملاحقتِهِ واتهاماته لي. أعلم أنَّهُ شخصٌ مريضٌ، ولكن ليس بيدي حيلةٌ، أحسُّ بشفقةٍ عليه، ومتعاطفةٌ معه كثيرًا، ولكنِّي لا أستطيع أنْ أقدِّمَ له شيئًا في هذا المجتمع حتَّى الذهاب للطَّبيب صعبٌ جدًّا.

– لا تحاولَي تبرير وضعكِ الحالي لي، أنا أتفهَّمك تمامًا، وأتفهَّم صعوبة حياة المرأة هنا، محكومٌ علينا بالصمت المؤبَّد.

– أقاربي يلومونني، هل يعتقدون أنَّني لم أحاولْ علاجه وإصلاح حياتي ؟

لا يُوجد امرأةٌ تحبُّ تشتيت حياتها أو أولادها، في البداية لم أستوعبْ مرضَه، و طلبتُ من أخي أنْ يأخذَهُ لمستشفى الشفاء؛ لفتح ملفٍ من أجل متابعة حالته دوريًّا مع الطبيب، واستجاب مبدئيًّا وذهب للطَّبيب ليس قناعةً منه بأنَّهُ مريضٌ، ويحتاج للعلاج، ولكن ليقنعَنا بأنَّه على حقٍّ، وأنَّه ليس مريضًا . أخضعه الطبيبُ للعلاج الدوائي، حبَّتان أوَّل اليوم وآخره، طبعًا لم يكنْ يأخذ الحبوب، وكان يرفضها بتاتًا، وأحيانًا يأخذها منِّي ويلقيها في حاوية النفايات .

وصل بي الأمرُ لطحن الحبوب وتذويبها في القهوة، ولكنَّه بدأ في عمليَّة الشكِّ ورفض القهوة، وحالته تزداد سوءًا ..!!

تعبتُ يا هياء، أصبحتُ أكافح من أجل شيءٍ قد يقودني إلى طريق الجنون، منهكةٌ ومستنفَذةٌ، ومنذ ثلاث سنواتٍ وأنا أعاني معاناةً شديدةً، لم يساعدْني أحدٌ، ولم يشعرْ بخوفي أحدٌ. كنتُ أشعر بالرعب من عبدالمجيد ..!!

– صدِّقيني يا منيرة لن يستوعبَ أحدٌ ما تقولينه؛ لأنَّه رجلٌ، وبمجرَّدِ أنَّه صحيحُ الجسد سيظلُّ هو أفضل منكِ، وأعلم منكِ، وأخبر منكِ.

– مرضه غريبٌ ومتعبٌ، ولا أستطيع مواجهة المجتمع، ولا يُمكنني حتَّى حمايته من نفسه؛ لذلك فضَّلت الهرب منه؛ لأحميَ أولادي .

– وهذا أفضلُ قرارٍ اتَّخذتيه على الإطلاق .

– مع أنَّني ممرضةٌ ومرَّ عليَّ بعض حالات الأمراض النفسيَّة، إلَّا أنَّني لم استوعبْها فعلًا إلَّا بعد تجربتي مع عبدالمجيد، في البداية تصوَّرت أنَّه يفتعل المواقف؛ لكي يتهرَّبَ من واجباته ومسؤولياته العائليَّة تجاهنا، وبدا لي أنَّه أصبح غريبَ الأطوار فحسب، وكلامُهُ غيرُ منطقيٍّ، و بلا معنى، وأحيانًا أخرى غريبًا تمامًا أو خارجًا عن المألوف• وغالبًا يخرج في أثناء الكلام عن موضوع الحديث إلى موضوعٍ آخر لا يمتُّ إليه بصلةٍ، فإذا أعدته إلى موضوع الحديث، فلا يلبثُ إلا قليلاً حتَّى يقفزَ إلى موضوعٍ جديدٍ دون رابطةٍ منطقيَّةٍ أو علاقة سردٍ وتوارد خواطر بين الموضوعين..!

لم أتنبَّهْ له كثيراً في البدء؛ لأنَّني أسقطت كلَّ تصرفاته، وما يصدر عنه على تربيته وطبيعته الرخوة، فهو لا مسؤولٌ وباردٌ تجاه أحداث الحياة، ولكن مع الوقت بات مختلفًا، فاجأني مرَّةً وقد كنت قادمةً من عملي بُعيدَ العصر عندما دخلتُ غرفتي ورأيتُهُ واقفًا أمام خزانة الملابس وممسكًا بمشطٍ بيده اليمنى يلوح به ويتحدث ويسبُّ شخصاً بصوتٍ عالٍ، وبيده اليسرى كان ممسكًا بباب الخزانة بقوَّةٍ ويتحدَّث إلى شخصٍ مجهولٍ، فقد كان يتصوَّر وجود شخصٍ في خزانة ملابسه والحقيقة أنَّ هذا

الشخصَ لا وجودَ له إلَّا في خياله، كان يتصوَّر أنَّه يتكلَّم معه وهو بدوره يجيبُهُ بصوتٍ مسموعٍ...!

صُعقْتُ عندما رأيتُهُ يتحدَّثُ بشكلٍ جادٍّ وبانفعالٍ عجيبٍ ...

ومرَّةً فاجأنا ونحن على مائدةِ الطعام وصاح بألفاظٍ غريبةٍ ليس لها معنى، وحركاتٍ غير مألوفةٍ بيديه، وكأنَّهُ ينظر إلى شخصٍ آخرَ يهدِّده، كان يردُّ على كلام شخصه المتخيَّل بانفعالٍ!

ضمَّت هياء يديها معًا على الطاولة وفكَّرت قليلاً وقالت:

لماذا تتحدَّثين عنه الآن؟ هو طليقُكِ، وبعيدٌ عنك..أنتِ بأمانٍ الآن.

- نعم، تطلَّقنا في تاريخ ٦ فبراير، حصل ذلك بشكلٍ سريعٍ.

- كلُّ شيءٍ واضحٌ لديكِ الآن، ولأطفالك... صح؟

لم تجبْ منيرة على سؤالها، ولكنَّها أسندتْ رأسها على الصوفا الزرقاء وأكملت حديثها :

في البداية لم تراودْني فكرةُ ترك عبدالمجيد كثيرًا، ولم أفكِّرْ جدّيًّا بالانفصال إلَّا بعد أنْ بدأ يشتكي من أنَّ هذا الشخصَ الذي يتكلّم معه و الذي صنعه خيالُهُ، يطارده ويسبُّه ويعتقد أنَّه سوف ينصب له كمينًا لتمسكَ به الشرطة أو سيقتله !! فصار لا يخرج من المنزل إلا نادرًا، صار انفعاليًّا سريع الغضب، يدخل غرفة نومه ويثير كثيرًا من الضجَّة والصخب متوهِّمًا أنَّه في عراكٍ مع الشخص (الوهمي) الذي جاء ليهدِّدَه!

وفي يوم كان لديَّ مناوبةٌ ليليَّةٌ في المستشفى، وتركتُ أطفالي لين وياسر عندَ أمِّي، ولكنَّ قلبي كان مقبوضًا والقلق يأكلُني، فحاولت طردَ تلك المشاعرِ المرتبكةِ والمسيطرة علي طوال الوقت، ومشاعري مشاعرُ شخصٍ يتوجَّس من حدوث شيءٍ لا يرغبه.

انتهتْ مناوبتي في الساعة السابعة صباحًا وخرجتُ من المستشفى، ومازال طائرُ الغمِّ يحلِّق فوق رأسي، وعند وصولي

إلى المنزل شاهدتُ سيارة الدفاع المدني ودورياتِ الشرطة متحلِّقةً حول منزلنا، والدخان يتصاعد منه، لقد أحرق الخزانة فاحترق جزءٌ من المنزل !!

نعم كان يحاول التخلُّص من ذاك الوهمِ، لا أدري هل ألومه، أم أرحم ضعفه وخوفه المسيطر عليه؟

وبعد هذه الحادثةِ ازداد خوفي منه على أطفالي مع شفقتي عليه يا هياء، ولكنَّه لم يتركْ لي مجالاً، و كلَّما رأيته أمامي أو سمعتُ صوته يعتصرني الألمُ فأحسُّ بأنَّني قليلةُ الحيلة، أحياناً أرغب أنْ أرتمي بحضن أيِّ شخصٍ ممَّنْ حولي وأحدِّثه عن كلِّ مخاوفي وجزعي!

كنتُ أشعر بحاجةٍ ماسَّةٍ لوجوده معي، وفي الوقتِ ذاتِهِ أخاف منه وعليه مرَّت أوقاتٌ تمنَّيتُ فيها أنْ يسألَني أحدُهم عمَّا بي!

- الصوابُ عينُهُ أنِ ابتعدتِ عنه.!

- في البداية وضعت سياسة إنقاذٍ طارئةٍ لروحي ومشاعري حتَّى لا يحسُّ بخوفي منه فيتفاقم الوضع، فالخوف له رائحةٌ، رغبتُ أنْ أتَّجهَ للعمل وأغرقَ نفسي فيه، إلَّا أنَّني تراجعتُ، فهذه الفكرةُ غيرُ ناضجةٍ، فلدي مشكلةٌ مصيريَّةٌ حقيقيَّةٌ والهروب ليس حلًّا، في بداية زواجنا لم يكن المرضُ ظاهرًا على عبدالمجيد، وعرفت فيما بعد أنَّ أهلَهُ كانوا يعتقدون أنَّه يعاني من المسِّ والجن، ويعتقدون أنَّه بعيدٌ عن الله فلو كان متديِّنًا وملتزمًا لما عاش هذا الضياع والمرض!!

- نعم، نعم منيرة، هذا هو المجتمعُ.. اكتئابٌ، فصامٌ، زهايمر، سرطان، كلُّها بسبب البعد عن الله فيعاقبنا على ذلك بهذه الأمراضِ، مجتمعنا حدِّي ومعقَّد، ولا يكتم قسوته.

- وعيت حقيقة مرضه بسؤالي للكثير من زملائي الأطباء في المستشفى وأخبرني أحدُهم أنَّ أسبابَ مرض الفصام غيرُ

معروفةٍ على وجه اليقين وتخضع لتكهُّناتٍ كثيرةٍ، فمثلًا الوراثة تلعب دورًا أحيانًا؛ و دليل ذلك أنَّ واحداً من كلِّ عشرة أشخاصٍ من ذريَّة المريض يُصاب بمرض انفصام الشخصيَّة في وقتٍ ما من حياته ٠ وتكون الفرصةُ مهيَّأةً لحدوث المرض إذا كانت ضغوطُ الحياة كثيرةً ومتعدِّدةً بحيث تكون سببًا محتملًا لإصابة الشخص المهيَّأ وراثيًّا للمرض٠ أيضًا هناك تفسيرٌ ثانٍ يقول: إنَّ شخصيَّةَ الإنسان هي التي تهيِّئه للإصابة بالمرض٠ فبعضُ الناس لا يحتملون ضغوط الحياة ولا يستطيعون الصمود لِمحنِها الكثيرة٠ ومثل هذه الشخصيَّات تكون عرضةً للإصابة بانفصام الشخصيَّة، والحقيقة أنَّ شخصيَّةَ عبدالمجيد هشَّةٌ وضعيفةٌ نوعًا ما، ولكن ما تزال أسبابُ هذا المرضِ موضعَ دراسةٍ وبحثٍ، والأكيد أنَّ الأطباءَ يعزون هذا المرضَ إلى حدوث اضطرابٍ خطيرٍ في كيمياء المخِّ، وهذا الخللُ الكيماوي هو المسؤولُ عن ظهور جميع أعراض المرض٠ بحثتُ جاهدةً عن بصيص أملٍ؛ ليرجعَ إلى حالته الطبيعيَّة ويتشافى، ولكنَّ حالتَه تتراجع وما بيدي حيلة كنت مصابةً بالإحباط والهلع.

تملَّك هياءَ الحزنُ وهي تشاهد منيرة غير المبالية الساخرة طوال الوقت تبوح وتتألَّم أمامَها بانكسارٍ .. وتمنَّت أمنية العصا السحريَّة؛ لتساعدَها وتزيل عنها الألم و كلَّ هذا الهمَّ ....!

وتأمَّلتْ وجه منيرة، و ملامحها التي توحي على الرغم من الألم بالهدوء والطمأنينة.

لمنيرة جبينٌ عريضٌ تغطِّيه بخصلات شعرٍ أسود كثيفٍ، وغالبًا ما تترك شعرها طلقًا للريح في كلِّ فرصةٍ، فهي تعشق الحريَّة والانطلاق!

ولها أنفٌ مستقيمٌ جميلٌ، وعينان متوسطتا الحجم، وفمٌ

متناسقٌ مع تقاطيع وجهٍ حلوةٍ، ولونُ بشرةٍ يميل للبياض، وكانت تحشو عينيها بالكحل دائمًا، وتضع أحمر شفاهٍ ما بين اللَّون الأحمر والوردي، وكانت بشوشةً مبتسمةً دائمًا ، وتبدو للوهلة الأولى وكأنَّها لا تحمل همًّا، ولا يُوجد لديها مشكلاتٌ في الحياة و متصالحة مع ذاتها، ذلك التصالح الذي يجعل من يراها يتخيَّل أنَّها تربت في حضن بوذا بتسامحها وسلامها الداخلي .

حاليًّا هي إمَّا مشغولةٌ تمضي وقتها في تربية طفليها (لين وياسر)، وبطبيعتها ليست متطلِّبةً في الحياة، فكلُّ ما تحلم به هو أنْ يعيشَ طفلاها بسلام.

ملامحُها الهادئة تبعث السلام والطمأنينة، وكلُّ شيءٍ مؤجَّلٌ في حياتها إلَّا والدتها وطفليها، فلهم الأولويَّة.

حياتها لا تسير على ما يُرام حتَّى بعد طلاقها، ولكنَّها قليلةُ الشكوى.

تحبُّ الضحك كثيرًا وتضحك على أيِّ شيءٍ وقد أورثت طفليها هذه الصفة.

تقول منيرة:

أعلمُ أنَّ حياتي ناقصةٌ وخرقاء، إلَّا أنَّ كلَّ ما كنتُ أرغب به هو أنْ أستقلَّ عن أقربائي، وضغوطهم الموجعة، لم أسعَ أبدًا لتقليد حياة الآخرين، كلُّ ما أطلبه هو أنْ أستقلَّ مع أطفالي. أعلم أنَّني أتصرَّف بعشوائيَّةٍ إلَّا أنَّ عشوائيَّتي أعتبرها جميلةً وأستطيع التفريق بين كآبتي وكآبة أيَّة مدينةٍ أزورها، لم تكنْ أهدافي في الحياة كبيرةً، بل كانت محصورةً في السفر واكتشاف الجديد، وتناول وجبةٍ مختلفةٍ، أو حفظ كلمات أغنيةٍ جديدةٍ لمجرَّد أنَّها أطربت أذني، الاستحمام وأخذ صورٍ قرب نافورةٍ جميلةٍ، أو قراءة كتابٍ في حديقةٍ عامَّةٍ، أحلامي بسيطةٌ ولا تتناسب مع ذائقة النساء، بالطبع

صعبٌ أنْ يحيا الإنسان لهذه الأشياءِ، فطبيعة الحياة الصعبة لا تسمح بديمومة أحلامي، ازدادت الفوضى في حياتي بعد طلاقي، وما عدت أعرف نفسي، ولم أستطعْ أنْ أصارحَ أيَّ أحدٍ بإحباطاتي، ولكن عندما استيقظ الأمل بداخلي بدأت أستعيد هدوئي، فعندما يشعر الإنسان بالأمل بعد فتراتٍ قاتمةٍ من حياته يتشبَّث به حتَّى ينتشلَه من الوحل، وعندما منحني اللهُ الحياةَ فمن حقِّي ككائنٍ بشريٍّ أنْ أجدَ فيها شيئًا جميلاً.

غالبًا ما كنت أردِّد:

أنا سعيدةٌ، غيرُ هيابة، وغيرُ متشائمةٍ، هذه الصفاتُ تبدو رائعةً؛ لكسب أصدقاء كُثرٍ، ولكنِّي لم أكسبْ صداقةً عميقةً وحقيقيَّةً غير صداقتك يا هياء.

لا أفكِّر إلَّا بلحظاتي الحاليَّة، و لديَّ تصوُّرٌ بأنَّ (اللَّحظة هي الحياة)، كنتِ تقولين:

إنَّني مثلُ الساحرة التي تمرُّ بأيِّ شيءٍ، فيبتسم ويزهر، وإنَّني من أولئك الأشخاصِ الذين يجعلون للأشياء قيمةً.

– نعم، نعم ..... منيرة ولازلتِ كذلك.

« يُخيَّل إلى هياء أنَّه كان يجري بينها وبين منيرة نهرٌ من المشاعر، فهي من الأشخاص الملهمين والذين يخرجون ألسنتهم للمارَّة قائلين: نحن لا نهتمُّ بكم أو بآرائكم وأحكامكم، نحن نعيش حياتنا بلا قيودٍ أو بريستيج أو رضى أحد».

كانت منيرة باستمرارٍ تردِّد: ما أضعف البشر عندما يقيِّدون أنفسهم بالماديَّات!

البساطة التي تعيشها منيرة جعلتها ترى الحياة بمنظارٍ مختلفٍ ربَّما قزحي الألوان ... شيءٌ ربَّما لا يراه الجادُّون في الحياة مثل هياء!

بوابة القدوم

(١٣)

يوم السبت، الساعة التاسعة صباحًا، مطار الملك خالد الدولي، أقف عند بوابة القادمين في المطار (A3)منتظرًا سيَّارة تاكسي؛ لأذهبَ لمنزلي الذي انقطعتُ عنه لأكثر من أربع سنواتٍ، تغشاني ذكرياتُ طفولتي وأنا أحاول جاهداً طمسها من ذاكرتي .

أحسُّ بأنَّني سأسقط مريضًا إزاء تمزُّق حياتي، فقد مات الكثير من العقائد داخلي، وتمزَّق نقاب الزيف والوهم الذي لطالما جعل حياتنا تبدو مثاليَّةً. الآن فقط أفكِّر بجدَّتي، كيف سألتقيها؟ هل كبرت كثيرًا وهدأت حدَّتها، هل ما زال الحزنُ يكلِّل وجهها؟

ما ستكون ردَّةُ فعلها إنْ رأتني مقبلًا ؟

«أحسُّ بقشعريرةٍ تسري بداخلي، والألمُ يعتصرُني عندما أتذكَّر سفري وتركي لها وحيدةً في بلادٍ غريبةٍ عنها ــ وإنْ أمضتْ فيها عمرًا ــ ولو لم ترَ في سفري أملًا لي في حياةٍ أفضل ما تحمَّلت غيابي لحظةً واحدةً...وأنا أيضًا يا جدَّتي الحبيبة»..!

طفولة جمال الصعبة جعلت منه إنسانًا أحاديًّا وحادًّا وقاسيًا، كانت والدتُه من بلدٍ عربيٍّ، تزوَّجها والدُه بعدما تعرَّف إليها أثناء سفره، وبعد شهورٍ من زواجهما عاد الأب إلى بلده وترك زوجته حاملًا، ولم يكنْ يعلم بحملها، وعدَها بالعودة لأخذها معه، ولكنَّه لم يستطع الوفاء بوعده لها، واستسلم لضغط أهله ورفضهم لزواجه من (أجنبيَّةٍ عنهم) .

وطويلًا انتظرتْه زوجتُه دون جدوى!

وفي الذكرى العاشرة من حرب أكتوبر كانت ولادتُهُ، وبالطبع لم يحضر الأب ولادة ابنه الذي أسمته على اسم أخيها جمال

الـذي قُتـل في الحـرب، نشـأ جمـال مـع أهـل والدتـه في ذلـك البلـدِ الضـاجِّ بالحيـاة، بعـد ولادتـه حاولـتْ والدتـه اللَّحـاق بزوجهـا ولكنَّهـا فشـلتْ، وعندمـا أصبـح جمـالُ في الخامسـة مـن عمـره تُوفّيـت والدتُـه بعـد مـرض لـم يمهلْهـا طويـلًا، وربَّتـه جدَّتُـهُ أمينـة، والجـدَّة أمينـة لـم تكـنْ امـرأةً عاديَّـةً، وعلـى الرغـم مـن محدوديـة تعليمهـا جـدًّا، إلَّا أنَّهـا اتَّصفـت بالحكمـة وحـدَّة الـذكاء والشـخصيَّة الصلبـة، أدركـت أمينـة أنَّ التحـاقَ الصغيـر جمـال بوالـده أو بأهـل والـده أمـرٌ حتميٌّ، على الرغـم مـن تعلُّقهـا الشـديد بحفيدهـا و وحيدهـا في الحيـاة بعـد مـوت ابنتهـا وابنهـا، إلَّا أنَّهـا رأت أنَّ مصلحتَـهُ ومسـتقبلَه أهـمُّ مـن عواطفهـا فأخـذتْ تعمـل علـى ذلـك!

و قـرَّرتْ أنْ تسـتغلَّ فرصـةَ ذهابهـا للحـجِّ أحسـن اسـتغلالٍ لتنفِّـذَ مـا فكَّـرتْ فيـه. ولمَّـا لـم تكـنْ تعـرف وسـيلةً للوصـول لبلـد زوج ابنتهـا، فكَّـرت في أنْ تتخلَّـفَ عـن الرجـوع هـي وجمـال بعـد الحـجِّ، وهنـاك تبحـث عنـه، وبالفعـل نفَّـذت مـا عزمـت عليـه وممَّـا سـاعدها علـى اتِّخـاذ هـذا القـرارِ المصيـري المجـازف احتفاظهـا بوثيقـة زواج ابنتهـا، وعنـوان والـد جمـال واسـمه الكامـل .

لـم تستسـلمْ أمينـةُ طـوال الوقـت، وعلـى الرغـم مـن الصعوبـات والمخاطـر التـي واجهتهـا.

واسـتمرَّت في السـعي للانتقـال إلـى حيـث العنـوان المسـجَّل في الوثيقـة (الريـاض) للبحـث عنـه، وبعـد رحلـةٍ وتنقُّـلاتٍ وصلـت لإحـدى البلـدات القريبـة حيـث مكثـتْ بعـض الوقـت؛ لأنَّهـا وجـدت عمـلًا تقتـات منـه هـي وصغيرهـا وتتدبَّـر أمورهـا ريثمـا تجـد الفرصـة للذَّهـاب إلـى العاصمـة .. خـلال إقامتهـا كوَّنت لهـا مجتمعهـا الخاصَّ، مـن خـلال عملهـا بالخياطـة لـدى إحـدى السـيدات، ثـمَّ مـا لبثـتْ أن اسـتقلَّت بعملهـا حيـث اسـتأجرت ماكينـة خياطـة، وبـدأت بالعمـل

عليها حتَّى جمعت ثمنَها واشترتها، كان هذا مصدرَ رزقها الوحيد، وحرصت على أنْ يلتحقَ جمال بالمدرسة، ولم تتوقَّفْ عن البحث عن والده، إذ لم تتوقَّفْ عن سؤال من تلتقيه من الناس عنه، على الرغم من صوت اليأس الذي بدأ يدبُّ في قلبها و يزجرها!

وبينما كانت تتحدَّث مع إحدى الزبونات سألتها إن كانت تعرف شيئًا عن عبدالعزيز (والد جمال) فأجابتها المرأةُ بأنَّها لا تعرفه، ولكنَّها أرشدتْها لمن يُمكن له مساعدتها، فدلَّتها على رجل يُدعى أبا فالح، فهو يعرف جيداً الكثير من أهل المنطقة و القرى القريبة بحكم عمله كسائق سيَّارة أجرة، وبالفعل ذهبت إليه، فأخبرها أبو فالح بوفاة عبدالعزيز منذ سنواتٍ في حادث سيَّارةٍ مؤلم، ولا يعرف عنه أكثر من أنَّه كان زميلَ مهنةٍ سابق!

صُدِمت الجدَّةُ من هذا الخبر غير المنتَظر، ولكنَّها لا تستطيع الآن العودة لبلدها، فماذا تفعل بجَمال؟ وأين تعود به؟

لابدَّ من البحث عن أهل والده!

قرَّرت أمينة الانتقال إلى العاصمة الرياض، ففيها فرصُ عمل كثيرةٌ لها وأيضًا توخَّت أنْ تجدَ فيها مَنْ يساعدها على وصولً جمال لأهله! اهتمَّتْ أمينة بتعليم جمال، فحرصت على توفير حياةٍ كريمةٍ له قدر جهدها، وعزمت ــ وقد تضاءل الأمل في العثور على أهله ــ أنْ تمنحَ حياتها بالكامل لرعاية جمال.

«على الرغم من أنَّني لست صغيرًا، إلَّا أنَّني حقَّقت حلمي وأخذت شهادةً من أمريكا بعد انقطاعٍ طويلٍ عن الدراسة، الآن أحسُّ بالثقة نوعًا ما»..!

يا الله .. جدَّتي أمينة ... هي امرأةٌ جاءت من الأساطير... فليست كلُّ النساء جديراتٍ بحمل لقب (امرأة) هي من طرازٍ أصيل، يا ترى ماذا كان يدور في رأسها عندما تركت حياتها ورحلت من

أجل أنْ تبحثَ لي عن أبٍ هجرني، وأهلٍ لا يعرفونني ولا أعرفهم ولا أحمل جنسيَّتهم؟!

هل كانت في أتمِّ قواها العقليَّة؟ أم تخطَّفها الخبل والجنون ؟!

قاطع شرودي صاحبُ التاكسي الذي ركبتُ معه:

- هل هذه أوَّلُ مرَّةٍ تزور الرياض؟

- لا، ولكن لي أربع سنواتٍ غائبٌ عنها.

- البلد تغيَّرت، الغلاء في كلِّ مكانٍ، والخدمات تدنَّى مستواها، والازدحام بات لا يُطاق.

«لاحظت أنَّهُ شابٌّ مؤدَّبٌ وينتقي ألفاظه بعنايةٍ».

- وهل تجد مهنتك هذه مربحةً؟

- بجانب عملي في الصباح، أجدها تساعدني على العيش.

لذتُ بالصمتُ، وأنا أفكِّر بجدَّتي وكيف سألتقيها ؟؟

حملتُ لها هديَّةً خاصَّةً، وهي عبارةٌ عن بلوفر من الدانتيل بلونٍ بُنيّ، أعلم أنَّ هذه الهديَّةَ ضئيلةٌ، و لا تليق بها ولا بمدَّة غيابي الطويلة عنها، ولكنِّي أعدها إنْ بدأتُ العملَ أنْ أغيِّرَ حياتها، وأعوِّضَها عن كلِّ تعبٍ ومعاناة وتضحيةٍ قدَّمَتها من أجلي.

طرقت الباب طرقاتٍ متواليةً تعرفها جدَّتي، و لم يكن معي مفتاحٌ.

- مَنْ هناك، إنسٌ أم جان ؟!

اقترب وقعُ خطاها من الباب وهي تتمتم :

- لا يطرق بابي إلَّا البقَّال.

فتحت الباب مواربًا، فدفعتُه بلطفٍ، واندفعتُ للداخل، و شرعتُ يدي صائحًا :

جمال، يا أمَّ جمال!

تفرَّستْ فيَّ قليلًا وقالتْ:

اخرسْ، جمال في أمريكا البعيدة، ومثل أبيه ذهب ولم يعدْ!

- هاهو يعود إليكِ ...

- (إنتا بتهزر ولا بتتكلم جد)..؟

وارتمت الجدَّة في أحضان جمال، وهي تبكي وتنتحب وتضرب كتفه بقوَّةٍ تركتني يا بُنيَّ عمرًا كاملًا، وطغى النشيج على كلماتها وبقيت محتضنةً جمال وهي ترتعش وتنتفض !

بعد دقائقَ كأنَّها الدهرُ، وهما على هذه الحالِ أفلت جمال من احتضان جدَّته له بصعوبةٍ بالغةٍ، وأمسك بعضديها وقرَّب وجهه إلى وجهها، ولثم جبينها بحرارةٍ وقال لها والدموع تغطِّي وجهه :

جمال وإن طال غيابُه لا يستطيع العيش بدونكِ يا ست الكل.

ثمَّ دخلا وجمال يجرُّ حقيبته التي كدَّس بداخلها كلَّ حوائجِهِ.

أخذت الجدَّة تثرثر وتتحدث بصوتٍ عالٍ، وتشتكي له صعوبة الحياة من بعده وبكاءها الطويل بعد كلِّ اتِّصالٍ يجري بينهما، كانت تتحدَّث عن وحدتها، وقطَّتها السوداء التي كانت تؤنس وحشتها، ثمَّ استأذنتْه؛ لتحضِّرَ له الطعام الذي يحبُّه الأرز الأبيض والملوخية.

لدّي حماسٌ هشٌّ تجاه الحياة، ولكن لا بدَّ من أنْ أتغلَّبَ على ضعفي، أبدو أكثرَ حيويةً وثقةً بالنفسِ من ذي قبل...هكذا كان يحدِّث نفسَه بُعيد الغداء وقبل أنْ يغطَّ في نوم عميق.

في اليوم التالي استيقظ باكراً، وتناول فطورًا أعدَّته جدَّتُهُ، ثمَّ تناول قهوته السوداء، ثمَّ خرج متأبِّطًا ملفًّا مليئًا بالأوراق ليبحثَ عن عملٍ، واصل جمال البحث يومًا بعد يوم، فقد كان يحدوه الأملُ و يحمل شهادةً في الهندسة المعمارية، إذ كان طالبًا مجتهدًا، وحصل على معدَّلٍ عالٍ، كما أنَّ لديه خبرةَ عمل سابقة قبل سفره، وكذلك خبرات في التدريب في الصيف في مكاتب هندسيَّة

بـ نيويورك كانت السيِّدة روزالين قد ساعدته على الالتحاق بها، وبعد أسابيع من البحث المتواصل، والمقابلات الصعبة، حصل على وظيفةٍ ممتازةٍ في إحدى الشركات الكبيرة.

ولما أنجز جمال مهمَّة البحث المضنية وفرغ من همِّ الحصول على عملٍ، اتَّصل برفيق طفولته مازن؛ ليجتمعَ به بعد غيابٍ طال أمدُهُ.

وبعد عناقٍ وعتبٍ طويلٍ جلسا يتبادلان حديث الذكريات والتطلُّعات.

وبدا جمال مفعمًا بالفرح والفخر:

– لأوَّل مرَّةٍ أحسّ بالإنصاف في هذه الحياة.

– أنت تستحقُّ هذا وأكثر.

– لا تبالغْ يا مازن، الحياة أصعب ممَّا نتوقَّع.

– تُؤخذ الدنيا غلابا.

– صاير شاعر ماشالله.

– أنا شاعرٌ بك يا حبيبي هههه.

– لازالت شهيَّتك مفتوحةً على الحياة.

– اذكر الله يا رجّل، كنتُ على خلافٍ مع زوجتي لمدَّة ٥ أشهرٍ، ذقتُ خلالها الأمرَّين، والدها رجلٌ ماديٌّ وهي كذلك؛ لذلك لا نتفاهم إلَّا بلغة المال، زوجتي materialistic أتعبتني كثيراً.

– ههه هذه إحدى مصائب الزواج.

– أحيانـًا أفكِّر ليتني لم أتزوَّجْ، ولكنِّي رجلٌ بيتوتي أحبُّ طقوس البيت والأسرة وبالأخص طفلتي رهف.

– أُصاب بالدوار والخوف كلَّما فكَّرت بالزواج، أحسُّ بأنَّني سأسقط من الأعلى إلى عمقٍ ليس له قاعٌ، دوَّامةٌ عجيبةٌ تلفُّني،

وشعورٌ بالذعر يتملَّكني، لا أستطيع شرح مشاعري لجدَّتي، فهي تلحُّ عليَّ بالزواج.

- المتزوِّج كالقابض على جمر.

أمضيا سحابة يومهما معًا وضحكا وكأنَّهما لم يضحكا من قبل، على الرغم من أنَّ لكلٍّ منهما حرائقَ في القلب لا تنطفئ.

أمنيات صغيرة

(١٤)

لم تكنْ حياتي ولا حياة منيرة مستقرَّةً خلال الفترة الماضية، إذ بدأت تنقطع لقاءاتُنا، هي انشغلت بافتتاح مقهًى نسائيٍّ خاصٍّ بها، وأنا انشغلتُ بتحسين وضعي الوظيفي والمهني عن طريق الدراسة والدورات والبحث عن منزلٍ جديدٍ.

لم تراودْني سابقًا فكرةُ تغيير بيتنا العتيق والمكان الذي قضيتُ فيه أغلبَ سني عمري، لكنِّي أُكرهتُ على ذلك؛ لأنَّ المنزلَ يخصُّ معي ورثةً آخرين، أبناء وبنات خالتي موضي، ولم أعدْ أحتمل الهمز واللَّمز عن حقوقهم في المنزل، فوافق ذلك رغبتي في تجديد وتغيير حياتي والرغبة في الخروج من الأطر التي حبستُ نفسي فيها طويلًا!

غبنا عن بعضنا قرابة العشرة أشهرٍ لم نلتقِ فيها، ولم تعدْ تعرِّج عليَّ في أوقات استراحتها أثناء العمل ولا بعده، كنَّا فقط نتحدَّث بالهاتف أو برسائل الواتس أب.

أذكر آخر مرَّةٍ التقيت بمنيرة كانت تقرأ عليَّ مسوَّدة مشروعها (مقهى ورد).

وكانت معظمُ مكالماتنا تدور حول همومنا وشجوننا وتطلُّعاتنا، أحيانًا كانت تشتكي من طليقها عبدالمجيد، فحالته ازدادت سوءًا بعد طلاقهما، وأهله لا يؤمنون بالعلاج بالطبِّ النفسي ومازال اعتقادُهم بالجنِّ في حالته راسخًا، وممَّا زادها رسوخًا اقتناعُهم بكلام بعض الدجَّالين ممَّن يدَّعون العلاج بالقرآن، والذين داوموا على الذهاب به إليهم، على الرغم من أنَّهم لم يجدوا أيَّة فائدةٍ تُذكر وعلى الرغم ممَّا أنفقوه من أموالٍ!

على الرغم من توجُّسها من خطورة طليقها وتهديده المحتمل

لحياتها، ثابرتْ منيرة لإكمال حياتها وبناء مستقبل صغيريها بكلِّ إصرارٍ وشجاعةٍ.

وبعد عدَّة أشهرٍ افتتحت المقهى ودعتْني لحفل الافتتاح، إلَّا أنَّني كنتُ مصابةً بالحمَّى، ولم أستطع الحضور، فأرسلتْ لي عبر الواتس أب مجموعةً من الصور الجميلة للمقهى، كان أنيقًا جدًّا وحالمًا كقطعةٍ من الخيال، ومطليًّا باللَّون الأبيض الناصع مع القليل من اللَّون الوردي الذي يكسر حدَّة البياض، كلُّ شيءٍ أبيض، الجدران، والنوافذ، والأثاث، والأكواب، والفناجين . جعلت إحدى الزوايا ركنًا للقراءة، والركنُ عبارةٌ عن رفوفٍ مليئةٍ بالكتب، ومقاعد منفصلةٍ وثيرةٍ، مع احتفاظ المقهى بجوٍّ فردوسيٍّ يغرق في الراحة العميقة.

لا أعرف سرَّ غرق منيرة في كلِّ هذا البياضِ الملهم بشيءٍ غامضٍ، ومؤكَّدٌ أنَّه كلَّفها مبالغَ طائلةً، وسخَّرتْ له كلَّ طاقتها لتسويقه في كلِّ مكانٍ، عبر شبكات التواصل الاجتماعي والبروشورات وغيرهما، فقد كان حلمَ حياتها.

أمَّا أنا فعثرتُ على فيلا صغيرةٍ حديثةٍ أنيقةٍ مستخدمةً قليلًا وسعرُها مناسبٌ، لم أتقبَّلْها في البدء وشيئًا فشيئًا بدأتُ بالتعوُّد و بالتأقلم، والخروج من كومة الذكريات وحالة النوستاليجيا التي كانت تغطِّي حياتي كلَّها، وإنْ بقي طيف أمِّي معي لا يفارقني!

عانيتُ لأحفظَ أنا والسائق طريق منزلي الجديد وقد ضعنا مرارًا وتكرارًا في البداية .

الانتقال من الأحياء القديمة للأحياء الجديدة في شمال مدينةٍ إسمنتيَّةٍ ضخمةٍ كالرياض ــ تندر فيها المعالم الجماليَّة ــ ليس أمرًا هيِّنًا لا نفسيًّا ولا ماديًّا!

في أوَّل مرَّةٍ ذهبتُ لاستلام منزلي الجديدِ رأيتُ لوحةً تشير إلى طريقٍ مرقَّمٍ بالرقم (٧٧) و اللَّطيف أنَّني أتفاءل كثيرًا

بالرقم ٧، أحسستُ بالراحة في البدء، وزادت سعادتي عندما رأيتُ صاحب المكتب العقاري الذي ساعدني في البحث عن المنزل بانتظاري هو وابنته ومعهما مفاتيح المنزل!

« ها هو جزءٌ من استقراري يكتمل؛ لتندملَ بعض الجروح، وأتَّشح ببعض الألوان في حياتي، قد تغيب بعضُ آلامي الآن في أكفان النسيان».

نزلتُ من السيارة ووقفتُ بجانبها أنتظر نزولهما، كنتُ متلهِّفةً جدًّا، وكنتُ أحرِّك أصابعي بقلقٍ على باب السيَّارة، وكأنِّي أعزف على آلة البيانو .

جرت الطفلة ذات الحادية عشرة سنةً تقريبًا وقد امتلأتْ بالحماسة إلى باب المنزل، وفتحتْهُ بعناءٍ كبيرٍ وهي تتوجَّس من شيءٍ قد يكون مفاجئًا خلف الباب، أحسستُ بتسارع نبضات قلب الصغيرة من خلال ملامحها الجذلة الخجلة، التفتتْ إليَّ.. أيْ، تعالي الحقي بي، فانطلقت إليها.

دخلت الطفلةُ أمامي ببطءٍ، وكأنَّها تحسب خطوات قدميها، وأوصلتني إلى باب المنزل الداخلي و فتحته دون جهدٍ هذه المرَّةِ، وسارتْ أمامي، وهي تتأفَّف من الغبار المتطاير تحت وقع قدميها الصغيرتين!

كان المنزلُ موحِشًا؛ بسبب الظلام و منظر قطع الأثاث المغطَّاة بالغبار والقطع المتكسِّرة والأوراق المتناثرة على الأرض، لاحظت ساعة حائطٍ كبيرةٍ متوقِّفةً عقاربُها؛ ممَّا زاد من الشعور الدرامي بالمكان، ونباتاتٌ داخليَّةٌ جافَّةٌ ميِّتةٌ تحيط بالسُّلَّم المؤدِّي للأعلى، وللغرابة رأيت كتبًا كثيرةً مرصوصةً على طاولاتٍ جانبيَّةٍ، وأكوابًا جفَّت القهوة والشاي في قعرها !

تناولتُ المفتاح من يد الطفلة وأحسست بقذارته من ملمسه، قد تناولتْه أيدٍ كثيرةٌ بلا ريبٍ.

كان المنـزلُ بحاجـةٍ إلـى جهـدٍ خـرافيٍّ لتنظفيـهِ، وإعـادة الحيـاة إليـه، لكنِّـي كنـتُ سـعيدةً بـه علـى كلِّ حـالٍ، آخـر مَـنْ سـكنه قبلـي كانـت عائلـةً صغيـرةً مكوَّنـةً مـن زوج كان يعمـل مدرِّسًـا وزوجتـه وطفلهمـا، و بحسـب روايـة صاحـب المكتـب فسـبب تركهـم المنـزل هـو سـفرهم لأسـتراليا للدِّراسـة.

تركـت العائلـة الصغيـرة كلَّ شـيءٍ وراءهـا ورحلـت (ليـت لـي مثلمـا فعلـوا)!

«عندمـا كنـتُ أفتِّـش عـن منـزلٍ كان أوَّلُ شـيءٍ فعلتـه قبـل أنْ أشـتريه هـو السـؤال عـن الأحيـاء الهادئـة التـي يطغـى علـى سـكانها الرقـيُّ، والبعيـدة عـن الصخـب والمشـكلات الكثيـرة التـي باتـتْ سـمةً لمعظـم الأحيـاء القديمـة.

إلـى أنْ عثـرت علـى هـذا المنـزلِ في شـمال المدينـة حيـث يطغـى علـى الأحيـاء الهـدوءُ، ويتركَّـز وجـود معظـم الطبقـة المتعلِّمـة والعائـلات الصغيـرة.

كان عمـرُ المنـزل قرابـة الخمـس سـنوات، وكان أنيقًـا علـى الرغـم مـن وضـوح نمطـه التجـاري غيـر المتكلِّـف في البنـاء أو التصميـم، وكان صغيـرَ الحجـم نسـبيًّا يكفينـي جـدًّا وزيـادة، ودفعـتُ فيـه كلَّ مـا أملكـه مـع نصيبـي مـن ورث أمِّـي، وبعـض القـروض مـن البنـك.

يقـع المنـزل في الجهـة الشـرقية مـن الحـي وعلـى شـارعٍ صغيـرٍ عرضـه ١٥ مـترًا، ويبـدو بالمقارنـة بالقصـور والبيـوت الكبيـرة في مناطـقَ قريبـةٍ مجـاورةٍ كعلبـة كبريـت!

في واجهتـه نافذتـان تبـدوان في المسـاء كعينيـن حزينتيـن تذكـران بحـزن بـدر شـاكر السـياب وقولـه:

«عينـاك غابتـا نخيـلٍ سـاعةَ السـحر، أو شـرفتان راح ينـأى عنمهـا القمـر» أمَّـا لونُـه فأبيـضُ باهـتٌ مائـلٌ للبيـج، ويشـبه تصميمُـه معظـم

المنازل الحديثة المتناثرة في هذه المدينةِ الضخمةِ القاسيةِ الملامح!

بدأتُ فورًا بتنظيف المنزل وإعادة طلائه، حاولتُ أنْ أنعشَ منزلي بتصميم حديقةٍ صغيرةٍ في فنائه الصغير ونافورةٍ؛ لأبعثَ الحياة فيه، فالمنازل مثل البشر منها ما تشعُّ منه الألفة ويضجُّ بالحياة، ومنها العابس الكئيب المنفِّر و غير المريح.

وفي زحمة انشغالي بمنزلي الجديد تفاجأتُ باتصالٍ من منيرة تطلب مقابلتي بإلحاح في أقرب فرصة! لم يكنْ صوتُها مريحًا، ولا كلماتُها ضاجَّةٌ بالسخرية كعادتها، كانت مرتبكةً وخائفةً!

«أيقظت مكالمةُ منيرة في داخلي خوفَ الصغيرات الذي دفنْتُه منذ مدَّةٍ، وأحسستُ بمزاليج القلق تؤّذن بانفتاح ما قد أغلقته بعد جهدٍ داخل روحي، يبدو أنَّه لم يحنْ بعد وقت الأمان الذي طالما نشدته».

في اليوم التالي ذهبتُ؛ لألتقيها في مقهاها الجميل (مقهى ورد)، وعندما دلفتُ إلى داخل المقهى وجدتها تنتظرني، فتحتْ يديها قائلةً :

أفتقدك هياء ... عانقتني على عجل وأمسكت بيدي وسحبتْني إلى مكتبها الداخلي، و لم تسألْني ماذا أشرب، طلبت لنا قهوةً تركية ولم تطلبْ حتَّى الموكا التي تحبُّها!

«خُيِّل إليَّ أنَّها إنسانةٌ أخرى غير التي أعرف، كانت ساهمةً، ومطفأةَ العينين».

حضرت القهوة، وغابت منيرة في لحظات شرودٍ متعمَّدةٍ .

التفتتْ إليَّ قائلةً :

– من رحمة ربِّ العباد أنَّه يرتِّب أقدارنا، وكلَّما بعثرتْنا الحياة جمعتنا من جديدٍ، وقراراتنا التي نتصوَّر بأنَّها خاطئةٌ يتَّضح لنا مع الزمن أنَّها صائبةٌ.

– صحيح، الحياة تكيد لنا في كثيرٍ من الأحيان.

– الحقيقة الوحيدة في حياتي هما (ياسر ولين) اكتملت أنوثتي بهما، كنتُ أحارب طواحين الحياة من أجلهما، وكلَّما حاولت غزل حياتهما انتقض الغزل بيد الزمن، وهاهي خيوط كرة الصوف التي غزلتها لأنسجَ حياتي بها تتفلت وتتبعثر ويلتفُّ بعضها ببعض!

– ما الذي تحاولين الوصول إليه يا منيرة ؟ وما سبب كلِّ هذا الكلام ؟

« لَم تردّ عليَّ منيرة، ولكنَّ بصرَها شخص للحظاتٍ، وتعرَّقت يداها اللَّتان لم تكفّ عن فركهما ببعضهما، وكأنَّها تغالب همًّا مطبقًا على صدرها».

ثمَّ أكملتْ حديثها :

– اكتمل عقدٌ من الزمن على صداقتنا، والأشياء عندما تكتمل تبدأ بالانحدار ثمَّ الاضمحلال والتلاشي، يدور أمامي الآن شريط حياتي، طفولتي، ومراهقتي، زواجي الذي سلب سعادته رجلٌ مريضٌ تزوَّجته بدون اختيار حياتي المجبرة عليها.

أطفالي وتربيتهم التي استنفذتْ كلَّ طاقتي في مجتمعٍ لا يرفع من شأن المرأة، بل يحطُّ من قدرها كلَّ يوم، جرائمٌ ارتُكبت في حقِّي من دون أنْ أكونَ مذنبةً، الجميع يشتركوُن في هذه الجرائمِ.. كلُّهم مجرمون ... كلُّهم مجرمون!

« أحسستُ بانقباضٍ في صدري، لم أرَ منيرة بكلِّ هذه الجديَّة من قبلُ لا أصدِّق أنَّ عشرةَ أشهرٍ هي فترة انقطاعنا عن بعضنا غيَّرتها وجعلتْها بهذا السخطِ والجمود».

قاطعتْ صمتي وإطراقي وكأنَّها كانت تستمع لما يدور في نفسي:

– هي شهورٌ أعادتني إلى نقطة الصفر حيث تتساوى البدايات والنهايات، الربح والخسران، الفرح والحزن، حيث تضيق بك

الأرضُ فلا تجد مكانًا لك فيها ... تبدأ بعمليَّةٍ عكسيَّةٍ فتخرج من جسدكِ، وتبدأ بمشاهدة الناس وكأنَّك لست منهم، فعلاً لن أكونَ بعد اليوم إلَّا نسيًا منسيًّا ... فعلاً نسيًا منسيًّا يا هياء.

«شعرت بدوارٍ غريبٍ، وارتباكٍ مفاجئٍ، لم أكنْ مهيَّأةً لمثل هذا الموقفِ من قبل، اعترافاتٌ موجعةٌ، وإحساسٌ يقول لي: بأنَّ هناك شيئًا أكبر من هذه الاعترافات».

– أذكر يا هياء بأنَّني قرأت لتولستوي في إحدى قصصه تساؤلًا هو: ما حاجةُ الإنسان من الأرض، فتأتي الإجابةُ: «إنَّ الإنسانَ بحاجةٍ إلى مترين فقط .. موضع قبره».

– ما هذه الكلماتُ المفجعةُ ؟ منيرة ما الذي يجري ؟

وبشكلٍ مفاجئٍ أجهشتْ منيرة بالبكاء مع نحيبٍ قطَّع نياط قلبي. لم أكنْ أتخيَّل أنْ أرى منيرة تبكي بهذه الهشاشةِ والضعفِ.. أمسكتُ بكتفيها، وأنا أحاول احتضانها تارةً، وأهزُّها تارةً أخرى، وأسألها: أخبريني ما بكِ ؟

ما سببُ كلِّ هذا البكاءِ والنشيج؟

« في هذه اللَّحظة استجمعتُ كلَّ قواي، لابدَّ من أنْ أكونَ قويَّةً بما فيه الكفاية؛ لأسندَ حبيبتي وصديقة عمري منيرة ... منيرة تحتاجني الآن ..لا تحتاج منِّي ضعفي أو حكاياتي المسلِّية، ولا دفن رأسي في رمال الحزن»

استجمعتُ قواي ورباطة جأشي، وبكلِّ هدوءٍ تناولتُ منديلًا ومسحتُ دموعها ووجهها وأنا أهدهدها، وأحاول تهدئتها وهدأتْ أخيرًا، ولكنَّها كانت جامدةً، توقَّفتْ عن البكاء وأسندت رأسها على المقعد لاهثةً متقطِّعة الأنفاس، وأطرافها ترتعش وكأنَّها للتوِّ خرجت من مضمار جريٍ طويلٍ!

– منيرة أفصحي لم أعدْ أحتمل.

نظرت إليَّ بعينين جامدتين قائلةً:

– منذ أن افترقنا أغرقتُ نفسي بالعمل، وبالاهتمام بياسر ولين، ياسر انتقل هذه السنةَ للمرحلة المتوسطة، ولين للصف الثالث الابتدائي هما يحتاجان إليَّ طوال الوقت في ظلِّ غياب الأب عن حياتهما.

خلال هذه الفترةِ عانيتُ من آلام متكرِّرةٍ في بطني، ولكن تجاهلت الألم .وفي يوم أحسستُ بآلام حادَّةٍ بالجهة اليسرى من بطني واعتقدت بأنها آلام القولون فأنا أمرُّ بضغوطٍ كثيرةٍ، ولم تُجدِ الأدوية التي كنتُ آخذها لتهدئة آلامي، ذهبتُ للطبيب وكانت المفاجأة عندما طلب منِّي أنْ أجريَ مزيدًا من الفحوصات، لم أشكّ بأيِّ مرضٍ، ولكنِّي شعرت بالقلق؛ لأنَّ طلبَه بدا لي غيرَ معتادٍ، ولم أتوقعْهُ، فحاولت تهدئة نفسي بأنَّهُ مجرَّدُ زيادة اطمئنانٍ وحرصٍ، ربَّما أحتاج لهذا فقد نسيتُ نفسي في خضمِّ مسؤولياتي الكثيرة.

جاء موعد زيارتي الحاسمة للطبيب؛ لمعرفة نتائج الفحوصات والتحاليل، فلاحظتُ عليه الحيرة والتوتر .. ودارتْ بي الأرض في اللَّحظة التي أخبرني بها بإصابتي بسرطان القولون، كان يمسك بالأوراق ويقلِّبها وكأنَّه يقرؤها ويدير نظره في الغرفة بغير تركيزٍ، لم يكن قادرًا على النظر إليَّ، بدا حزينًا جدًّا، أخيرًا قال لي :

أنصتي إلى يا منيرة ... سوف نبذل قصارى جهدنا لمساعدتك، ولكنَّ مرضَكِ في مرحلةٍ متقدِّمة جداً، وكلُّ شيءٍ بيد الله تعالى.

«وقع كلامُهُ عليَّ كالصاعقة، كانت صدمةً كبيرةً لي، جعلت مرفقي على طرف مكتبه ووضعت يدي على جبيني .. جلستُ مكاني ذاهلةً واجمةً!

أحسستُ بأنَّ الحياةَ ليست عادلةً معي، وبدأ سيل التساؤلات يجتاحني كيف، و لماذا أنا، وهل حقًّا ما يقول؟

ما ذنبُ ليـن وياسـر أنْ يولـدا لأبٍ صحيـح جسـديًّا، ومريـضٍ عقليًّـا، ولأم راحلـةٍ بعـد أيَّـامٍ، وهمـا صغيـران جـدًّا علـى مواجهـة الحيـاة؟

لمـاذا كُتِـب عليهمـا اليتـمُ مبكِّـراً ؟ ومـا الذنـب الـذي اقترفتـه؛ لأعيـشَ منتظـرةً المـوت!

فأموت كلَّ يومٍ قبل أواني؟ يا ترى كم بقي لي من الأيَّام؟

– هذا المرضُ هزمني بلا معاركٍ يا هياء.

« تسـاقطت دموعـي لا شـعوريًّا، شـعرتُ بالرعـب والخـوف، اسـودَّت الدنيـا في عينـي»

ثمَّ استطردت منيرة :

في ذلـك اليـوم قلـتُ للطبيـب بعدمـا حـاول جاهـدًا تهدئتـي: بـالله عليـك سـاعدَني كيـف أتكيَّـف مـع هـذا الوقـتِ الصعـب للغايـة والأوقـات القادمـة، كيـف يُمكننـي أنْ أنقـلَ الخبـر لوالـدي ووالـدتي، و همـا في سـنٍّ لـم يعـدْ باسـتطاعتهما تحمُّـل أيِّ ألـمٍ وقلـقٍ، والـدي مصـابٌ بالضغـط والسـكر، ووالـدتي مريضـةٌ بالقلـب، مـا أشـقاني في هـذه الدنيـا الهشَّـة! بينمـا العالـم يكـبر وينمـو أنـا هنـا أمـوت بالسـرطان.

سـاد صمـتٌ طويـلٌ بينهمـا ...اتجهـتْ هيـاء للنافـذة شـبه المفتوحـة أمامهـا، اقتربـتْ منهـا ببطءٍ، وأطلَّـتْ على الشـارع الضيِّـق ذي الإنـارة الخافتـة والمحـلَّات المقفلـة، ورفعـت رأسـها للسـماء وأشـارت بإصبعهـا إلـى نجمـةٍ صغيـرةٍ بعيـدةٍ جـدًّا قائلـةً:

– انظـري هنـاك وجـهُ أمِّـي يرقبنـي كلَّ مسـاءٍ ... لـم تتركْنـي أبـدًا... مازلـت أتحـدَّث معهـا، أشـكو لهـا همومـي وضعفـي وانكسـاري. أحـدِّق في هـذا العالـمِ البغيـضِ الـذي يخفـت ضـوؤه كلَّ يـوم بحثًـا عـن سـعادةٍ مفقـودةٍ، هـذا العالـمِ التافـهِ والمخـادعِ الـذي يتلاعـب

بنا، وكلَّما ضاقتْ بي الأرضُ أرفعُ رأسي للسماء، لعلِّي أنجو من خبثها وخداعها، لم يعدْ هذا العالمُ مكانًا صالحًا للعيش فيه.

خرجنا من المقهى وتشابكت أذرعُنا ... وسرنا وأكتافنا ملتصقةٌ ببعضٍ ونحن نتذكَّر مواقفَ مرَّتْ بنا، بعضُها مضحكٌ، والبعضُ حزينٌ.

كانت الرياحُ باردةً وشديدةً وكأنَّها تنظِّف الأرض من الآثام، تطايرت عباءاتُنا بشكلٍ مزعجٍ.. لم تصمدْ منيرة أمام منظري وضحكت معها على منظرها بصوت عالٍ وانهمكنا في الضحك، ونحن نحاول الإمساك بعباءاتنا المتطايرة، بعدها سرنا قليلًا في الظلام صامتتين لأوصِّلَ منيرة لبيتها القريب من المقهى ...والرياح تتلاعب بنا، والغبار المتطاير يلفح وجوهنا، تشتدُّ الرياحُ، وتحدث ضجيجًا وتتلاعب بالشجر وبالبشر وبكلِّ شيءٍ تمرُّ به.

وصلنا إلى بيت منيرة ونحن نفرك أعيننا من آثار الغبار.

كنَّا في نهاية نوفمبر، والبرد يطلُّ برأسه و ينبِّئ بفصلٍ باردٍ جدًّا.

دخلنا إلى المنزل واستقبلتنا والدتُها بابتسامةٍ صافيةٍ رائقةٍ، استأذنتْ منيرة لتغيبَ قليلاً .

أحضرتْ والدتُها الشاي الذي غالبًا ما يكون جاهزًا، وجلست أمامي قائلةً:

– أنا عاتبةٌ عليكِ يا بنتي، منذ مدَّةٍ طويلةٍ لم تزورينا، منيرة تحبُّك كثيرًا وكذلك لين.

طلبتْ من الخادمة أنْ تجهِّزَ لين لتسلِّمَ عليَّ، ولكنِّي لم أرغبْ بالحديث كثيرًا مع أمِّ منيرة، فدائمًا كانت أمِّي تردِّد :» إنَّ كثرةَ الكلام تقود إلى إفشاء الأسرار، ولم أرغبْ بإفشاء سرِّ منيرة اللَّعين».

«دخلتْ لين وعندما وقعت عيني على عينها شعرتُ بعدم التوازن، وكأنَّ الجاذبيَّةَ تنعدم من تحتي، أحسستُ بأنَّني بخفَّة الريشة، وكنتُ على وشك الإصابة بالدوار، فبذلتُ جهدًا لأتمالكَ نفسي، وقبَّلتُ لين وحضنتُها بقوَّةٍ، ثمَّ دفنتُ وجهي في شعرها وأنا أوشوش لها: يجب أنْ تعتني بأمِّك جيِّدًا يا حبيبتي».

أمسكتُ بيدها وأنا أتأمَّل وجهها البريءَ وجسدَها الغضَّ، كم اشتكتْ منيرة من شقاوتها وعنادها، لم تكنْ لين من النوع السهل المطيع، وكانت كلَّما غضبتْ من والدتها تكتب لها رسائلَ لاذعةً تشعرها بتأنيب الضمير. وإذا رضيت عنها أهدتها رسمةً فيها وردةٌ أو حلوى، إذ كانت تحبُّ الرسم ولديها بوادرُ موهبةٍ فيه، وجميع رسوماتها التي أرتنيها منيرة دار موضوعُها حول الأسرة، فيبدو أنَّ الصغيرةَ تفتقد والدها كثيرًا على الرغم من مجهود أمِّها الخرافي... الآن ماذا عساكِ أنْ تفعلي يا لين .. وأيُّ ألمٍ سيعتصر قلبكِ الصغيرَ المسكينَ !!

« يا الله، لا أستطيع التركيز، وهذه الصغيرةُ تلعب بخصلات شعري القصيرة، وتتحدَّث معي عن مدرِّساتها وصديقاتها، يا لَهذه البراءة التي سيخدشها الفقدُ و الشعور بعدم الأمان! أعراض الفِراق تقتلني، لا أستطيع ثنيَ قلبي عن البكاء، و لا ردعَ نفسي التي تتوعَّدني بألف سنةٍ من الوجع، يقولون في الأيَّام المليئةِ بالوجع تنبت بذور اللَّامبالاة في حقول الروح، ومن جديدٍ يامنيرة تزدهر طحالب تحجب وجه صفو الحياة و وجوه مَنْ نحبُّ عنَّا!

ستبقى ابتساماتُكِ وضحكاتُكِ يا منيرة تسكن جفني إلى الأبد»..!

استأذنتْني أمُّ منيرة، وأخذتْ لين بيدها وخرجتا من الغرفة، وبعد بضع دقائقَ دخلت منيرة وهي شاحبةُ الوجه، ومطفأةُ العينين، وتحمل بين يديها حزمة أوراقٍ.

- نظرتُ إليها نظرةً مليئةً بالقلق والشفقة، و منيرة تقرأ لغة عيني جيِّدًا.

أدارتْ وجهها ووضعت الأوراق على طاولةٍ جانبيَّةٍ، وتنهَّدتْ بصوتٍ عالٍ قائلةً:

- لا أحدَ يموت نيابةً عن أحدٍ يا هياء، لا أحدَ يموت نيابةً عن أحدٍ.

تعلمين أنَّ النعيمَ لا يتكامل، لا تشفقي عليَّ فأنا أكبرُ من الشفقة.

«منيرة غارقةٌ في النهاية، وترتِّب حياتها وكأنَّها ستسافر، أرى في عينيها بوضوحٍ حزنَ المفارق».

وقفتْ هياءُ منتصبةً وضربتْ كفًّا بكفٍّ، وهي تغالب دموعها ونظرت إلى الأرض بتمعُّنٍ وكأنَّها تبحث عن شيءٍ مفقودٍ (والكثير من تعابير الجسد لديها ورثتْها من أمِّها شيخة) ... قائلة:

- لماذا لا يُوجد عدالةٌ في هذه الدنيا ؟!

- يا ساكنةً في قلبي سيقتلني الحزنُ والقهرُ!

- هل تعتقدينَ بأنَّكِ سترحلين إلى مدنٍ مليئةٍ بالزهور والضحك والمرح، رتَّبتِ للرحيل باكرًا انهزمتِ بسهولةٍ!..لماذا؟

ألا تعلمين بأنَّ هذا المرضَ يهرب من الأقوياء؟ وأنت تركتيه يعيث فسادًا في جسدك الرقيق ..!!

قرأتُ ذاتَ مرَّةٍ (أنَّ القرودَ المصابة بمرض الإيدز لا تموت بسرعةٍ؛ لأنَّها لا تعلم بأنَّها مريضةٌ).

عِديني أنْ تقاومي هذا المرضَ اللَّعين، سوف أدعمك وسنبحث عن أفضل المستشفيات والأطباء؛ لتستعيدي عافيتك، ولتعلمي بأنَّ المؤمنَ مبتلًى، فاصبري، فلا أحدَ يعلم الغيب، ولا يُوجد ضماناتٌ في هذه الدنيا المحيِّرة .

« أشرقَ وجه منيرةَ بنصفِ ابتسامةٍ تشبه هلالًا يغيب ويظهر بين السحب، وهزَّتْ كتفيها، ومطَّتْ شفتيها بـ: لا أدري، والإحباط يحجب بريق عينيها ..».

تناولتْ منيرة الأوراق الموجودة على الطاولة الجانبيَّة وبعثرتها، وطلبتْ من هياء مساعدتها في إعادة ترتيبها وتنسيقها ...

وقالت: هذه الأوراقُ عبارةٌ عن قصاصاتٍ ومذكَّراتٍ كلُّها عنِّي، وعن حياة أطفالي .. ثمَّ استأذنتْ وغابتْ للحظاتٍ، قلَّبتْ هياء الأوراق فإذا في بعضها مذكَّراتٌ وفي بعضها الآخر وصايا وتوجيهاتٌ، عادتْ منيرة ومعها ألبومان كبيران على غلاف الأول ملصقٌ مكتوبٌ عليه اسم لين، والألبوم الآخر يحمل اسم ياسر ... قالت هياء :

إنَّها فكرةٌ رائعةٌ يا منيرة ... ولكنِّي لا أريد مجاراتك في هذا الأمرِ، فأنت ستعيشين وسترين أحفادكِ ... وسأدخل معكِ في رهانٍ و تحدٍّ..!!

أ تقبلين؟

عادت نصف الابتسامة؛ لتنيرَ وجه منيرة المتعب من جديد ولم تعلق، وانغمست بترتيب الأوراق وشاركتها هياء.

« كلَّما لا مست يدي يد منيرة ونحن نرتِّب الأوراق أحسُّ بالارتعاش الذي يسري في أطرافها، ولكنِّي لا أملك لها شيئًا، ما أصعبَ الإحساسَ بالعجز ..!!»

رفعت منيرة رأسها للأعلى، وهي تردِّد: لم تعد عندي شهيَّةٌ للحياة .. فقط أرغب أنْ أكملَ ما تبقَّى لي من أيَّامٍ بجوار أولادي وأبي وأمِّي.

ثمَّ جالت بنظرها في الغرفة، وقالت بنبرة درويشٍ متصوِّفٍ: الموت شيءٌ يتَّصل بالأبديَّة، وما حياتنا إلا برزخٌ أول!

كان هاجس الموت يسكن منيرة، ويلقي بظلاله على كلِّ شيءٍ حولها..!!

« تنبَّهتُ للساعة، فإذا بها تشير للتاسعة مساءً، ولديَّ عملٌ كثيرٌ ينبغي على إنجازه لتقديمه صباحَ الغد للمشرفة في المدرسة، استأذنت منيرة كي أذهبَ، في البداية رفضتْ وألحَّتْ، ثمَّ هدأتْ وتراجعتْ بعد أنْ وعدتها أنْ آتيَ لرؤيتها غدًا، طمأنتُها، وخرجتُ مسرعةً»

«في الطريق كنتُ أبحث عن أكسجين نقيٍّ .. كنتُ مختنقةً وأحسُّ بأنَّني مسحوقةٌ، فكيف لي أنْ أتعاملَ مع هذا الموقفِ العصيبِ!

كيف لي أنْ أتركَ صديقتي لتستسلمَ وتموت ؟!

لابدَّ أنْ أبذلَ قصارى جهدي؛ لمساعدتها لتتجاوزَ محنتها».

مرَّت الأيَّامُ سريعًا وهياء تتردَّدُ على منيرة و تصطحبها للمستشفى. وكانت حالتُها تزداد سوءًا. و بعد مدَّةٍ غابت عنِّي منيرة؛ لأنَّها سقطت طريحة الحمى والانفلونزا، ولم تقوَ على مقاومة المرض بجسدها المنهك الضعيف ...مرَّ أسبوعٌ، وهي طريحة الفراش.

وكان ألمُها على منيرة يقضُّ مضجعها فلا يبرح التناوب مع الحمَّى عليها .

ولمَّا طال غيابُها عن منيرة تحاملت على نفسها، وتناولت هاتفها النقَّال واتَّصلت بها ولكن كان الهاتفُ مغلقًا.

أصابها القلق عليها وانتابتها أحاسيسُ موحشةٌ، فقد وعدتها ألَّا تغلقَ هاتفها أبدًا!

همَّت هياء بالذهاب لمنيرة لتطمئنَّ عليها، ولكن خطرَ لها أنْ تتَّصلَ بوالدتها فقد تجد عندها ما يبعث الطمأنينة.

« اتَّصلتُ بها فلم ترد، ثمَّ عاودتُ الاتصال بعد خمس دقائق،

وأتاني صوتُها متهدِّجًا فارغًا من الحياة، وما أنْ سمعت صوتي حتَّى أجهشت بالبكاء، وهي تقول: (كلُّهم ماتوا يا هياء كلُّهم).

لم أستوعبْ ما تقول، وماذا تقصد بكلِّهم ...!!

قلتُ لها أخبريني، ما الذي حصل ومّن الذي مات؟

لحظات من النحيب الذي يقطِّع القلوب، وكأنِّي أحسُّ بنبضات قلبها ستخرج من الهاتف، ولم تكمل !!

فجأةً خاطبني صوت امرأةٍ شابَّةٍ قائلةً: مَنْ معي؟

ـ أنا هياء صديقة منيرة، هل منيرة بخير؟

حاولتْ تهدئتي للحظاتٍ، ثمَّ قالت :

اتَّصل عبد المجيد بمنيرة وطلب منها رؤية لين وياسر، للمرَّة الثانية بعد طلاقهما، وافقت منيرة مكرهةً تحت ضغط مرضها ومعاناتها، أرادتْ إخراجهما من هذه الأجواء!

و في ذلك اليومِ المشؤومِ خرج والدا منيرة لزيارتنا، واستغلَّ عبد المجيد الفرصة وذهبَ لمنزلهما قبل الموعد الذي اتَّفق عليه مع والد منيرة، وكانت منيرة وابناها نائمين في وقت خروج الوالدين، ولا نعلم بعدها عن الكثير من التفاصيل فقد احترق المنزل ...عبدالمجيد أحرقهم.

أحقًّا .. منيرة ولين وياسر قد رحلوا !!

في صباح اليوم التالي تمدَّدتُ في سريري طويلًا، لم أستطع النهوض.

و حاولتُ أنْ أستشعرَ وأعيد التفكير بما حصل، شعرت بالرغبة بالتقيُّؤ، حاولت تذكُّر كلِّ الأساليب العلاجيَّة التي قرأتُ عنها؛ لأتجاوزَ محنتي ... يبدو أنَّني لن أتجاوزَ هذه الأزمةَ بسرعةٍ .. كيف لي أنْ أتجاوزَ منيرة، وهي جزءٌ من تاريخي .. كيف لي ألَّا أشتاقَ لها، كيف تغيب ضحكاتُها عنِّي.

منيرة يا حبيبة القلب !
اليوم حزني أعجميٌّ لا يقبل الترجمة.
كنتُ أبحث فيكِ عن وطنٍ، وعن نفسي الضائعة.
وها هي وعودكِ تتكسَّر وترحلين مثل كلِّ الذين أحببتهم فهل تراي أغفر لكِ؟!

«حلو وكذاب»

(١٥)

كانت علاقةُ الجدَّة أمينة بحفيدها جمال علاقةَ حبٍّ قاسٍ، فكلاهما لا يستطيع التعبير عن مشاعره تجاه الآخر، حتَّى عندما عاد وهو يحمل شهادةً في الهندسة لم تتغيَّر طباعُهُ وعاداتُهُ كثيرًا، مازال انطوائيًّا وعصبيًّا وعنيدًا جدًّا.

« أعلم بأنَّني جذَّابٌ، ولديَّ مسحةٌ من الوسامة، ولكنِّي ما زلت أفتقر إلى الثقة الكاملة بالنفس، وما زلت أخشى مواجهة الناس؛ لذلك أتوتَّر وأميل للعنف في ألفاظي، ممتنٌّ لجدَّتي؛ لأنَّها ربَّتني وتحمَّلتْ كلَّ شيءٍ من أجلي، وممتنٌّ أيضًا للسيِّدة روزالين التي علَّمتني أشياءً كثيرةً، ولكن ما يزال هناك الكثيرُ من الغضب في قلبي».

في الواقع هو يلعن حياته دائمًا، ويعدُّ نفسَهُ سيِّئَ الحظِّ، مع أنَّه أفضلُ من غيره فجدَّتُهُ حاربت؛ لتحصلَ على أوراقه الرسميَّة وتثبت جنسيَّته من خلال شهادة ميلاده التي معها، ونجحت في ذلك وهذا ما أعطاه الفرصة للابتعاث وإكمال دراسته الجامعيَّة في أمريكا، وهو ممتنٌّ لجدَّته كثيرًا، يهتمُّ بها ولكن بصمتٍ، حياتهما غريبةٌ بعض الشيء، حيث يعيشانِ في شقَّةٍ صغيرةٍ متواضعةٍ في مبنًى شعبيٍّ قديم، وغرفة جمال التي احتوت يُتمَهُ وبؤسَهُ وفقرَهُ هي مكانه الدائم إذا لم يخرجْ، عاش حياةً متواضعةً جدًّا وصعبةً، وهذا ما زاد من إحساسه بالغضب والحقد على كلِّ شيءٍ حوله، جدَّتُهُ من النوع المنتقد والعنيد تحبُّه وتحنو عليه ولكنَّها لا تظهر ذلك، بل غالبًا ما تقسو عليه بالكلام، وعندما تخرَّج في كليَّة الهندسة، وعاد إلى أرض الوطن، كان يريد تغيير حياته على أكثر من صعيدٍ، لكنَّهُ لا يرغب بالزواج، بل كان جُلُّ همِّهِ أنْ يرتقَ

فجوة الفقر في حياته، و أنْ يصبحَ من الأثرياء إلَّا أنَّ الأيَّامَ متجهِّمةٌ دائمًا في وجهه.

على الرغم من أنَّ حياتَه مع جدَّته أمينة، فيها الكثير من الصِّدامات إلَّا أنَّه لا يلبث أنْ يندمَ على ما كان منه و يستجيبُ لها والكلمة النهائيَّة تحسمها الجدَّة، هو ممتنٌّ لها من الأعماق؛ لأنَّها كافحت من أجله؛ لذلك يهتمُّ بتفاصيل تحبُّها جدَّتُه وتشدِّد عليها وهي أساسيَّةٌ لديها مثل مواعيد الطعام، على الرغم من أنَّه لم يعدْ يأكل في البيت كثيرًا؛ بسبب ساعات عمله الطويلة، وغالبًا لا يتناول شيئًا غير القهوة السوداء المحبَّبة إليه، ويحاول الحدَّ من تدخينه الشره إرضاءً لها، أحيانًا يجلس وقت العشاء إلى المائدة مجاملةً لجدَّته، وإذا نامت مبكِّرًا وتركت له شيئًا من العشاء تخلَّص منه متظاهرًا بتناوله!

لهما طريقةٌ طريفةٌ في النقاش، إذْ يبدأ الحوار بينهما هادئًا ودِّيًا كالهدوء الذي يسبق العاصفة، وإذا ما لمستْ منه الجدَّةُ عنادًا وصَلَفًا تنقلبُ عليه بحزم وتوبِّخه وتصفه بالابن العاق لها؛ لأنَّه لا يرحمها ولا يهتمُّ بها ولا يطيعها.

في ظهيرة يوم جمعةٍ كانا يفترشان مفرشًا صغيرًا على أرضيَّة صالةِ شقَّتهما المتواضعة، وكلُّ ما تحتاجه الجدَّةُ قريبًا منهما إذ اعتادت أنْ تضعَ كلَّ شيءٍ بجانبها لصعوبة حركتها وتنقُّلها، وهي في هذه السنِّ حيث أكل الشقاء على جسدها وشرب!

و لم تكنْ مساحة الشَّقَّة- التي امتلأتْ بأغراض وحاجيَّات الجدَّة وبعض الأثاث البسيط - أكثرَ من المئة وعشرين متراً.

بدأت الجدَّة حديثها بالتذمُّر من تعبها من الطبخ، وتنظيف المنزل كلَّ يوم، فصحَّتها لا تساعدها.

قاطعَها جمالُ :

- أنا أساعدك، ودائمـًا ألبِّي طلباتِك دون تردُّدٍ أو تأخيرٍ.
- ولكن يا بني الوحدة قتلتني في غيابك، وأخاف أنْ أموتَ وحيدةً.
- العمر كلّه يا جدَّتي.
- أريـدُ أنْ أرى أولادَك، وابتسـمت بعـد عبـوسٍ وأكملـت: أريـد أنْ تنجـبَ طفلـةً وتسـمِّيها أمينـة علـى اسـمي.

«ضحـك جمـال ضحكـةً باهتـةً، واتَّسـعتْ حدقـة عينـه، و تخيَّـل طفلـةً جميلـةً اسـمها أمينـة».

أحسَّـت الجـدَّة بأنَّـه لـم يعـارضْ فكـرة الـزواج هـذه المـرَّة ... وبادرتْـه: سـوف أبحـث لـك عـن عـروس.

- لديَّ شروطٌ يا جدَّتي .
- وما شروطُك يا بن الغالية؟
- موظفة وهادئة لا أريد زنانة حنانة.
- لـك مـا أردت، سـوف أزور غـدًا جارتنـا أمَّ محيسـن، فلديهـا معـارفُ كثـر.

والآنَ سوف أحضِّر لك شراب اليانسون الذي تحبُّه.

قامـت الجـدَّة بتثاقـلٍ وهـي سـعيدةٌ، اسـتغرب جمـال مـن فرحتهـا وخِفَّـة حركتهـا غيـر المعتَـادة ... و أطـرق قليـلاً ... أحـسُّ بأنَّـه تسـرَّعَ في ردِّه، و لـم يمنـحْ نفسـه الوقـت الـكافي للتفكيـر، ولكـن إلـى متـى سـأظلُّ أسـوِّف، وأماطـل جـدَّتي ؟

لم تمنحْني الحياة وقتًا كافيًا للعيش بفرح ..!!

فأنـا أتقاتـل وأقاتـل علـى الحيـاة كأيِّ رجـلٍ يعتقـد بأنَّـه ذو شـأنٍ، وأنَّـه مميَّـزٌ، وأعمـل طـوال اليـوم مثـل النحلـةً، أذهـب مـن مشـروعٍ إلـى مشـروعٍ آخـرَ، مللـتُ مـن هـذه الحيـاةِ الرتيبـةِ، بعـد تجربتـي فيَ أمريـكا أصبحـتُ أرغـب التغييـر وأميـل إليـه، سـأذعن لجـدَّتي هـذه المـرَّة ..! رفـع حاجبيـه عاليًـا وهـو يـردِّد: سـأتزوَّج ... واعتـدل في

جلسته وأشعل سيجارة ربَّما تتغيَّر حياتي فقد تساعدني زوجتي على مواجهة هذه الحياةِ الرتيبةِ..!!

«ولكن أخشى أنْ يحتدمَ الصراعُ في نفسي بين تطلُّعي للتغيير، ورغبتي في العيش في عالم محكوم بقانوني كرجل و كذاتٍ فاعلةٍ، وبين الرجل المحروم والمعقد والكافر بكلِّ مبادئ الحياة الذي بداخلي .. وأخشى أنْ ينعكسَ ذلك على حياة مَن ستشاركني حياتي و عالمي الخاص».

في اليوم التالي اجتمعت الجدَّة أمينة مع أمِّ محيسن، وقد رتَّبتا الأمر مسبقًا فقد كانتا تنتظران موافقة جمال إلَّا أنَّ الجدَّةَ أضافت شرط ابنها للعروس المُنتظرة وهوأنْ تكونَ موظفةً.

– لديَّ لك عروس بنت ناس و موظفة، وأظنُّها ستقبل بكونِهِ لا يحمل الجنسيَّة تعمل مُدَرِّسَة، وأخبرتني أنَّها تريد رجلًا بشرط أنْ يكونَ متعلِّمًا ويعمل عملًا جيِّدًا وعلى خلقٍ ودينٍ، حتَّى لو كان مقيمًا بشرط ألَّا يفكِّرَ في ترك البلد .. ولكنِّي لا أعرف كلَّ التفاصيل عنها.

– لا يهمُّني إلَّا أنْ يتزوَّجَ ... من فتاةٍ مستورةٍ تعينه على الحياة، وتنجب لي أحفادًا يملؤون عليَّ حياتي، ولم أصدِّقْ أنَّه لان أخيرًا و أذعن .

– زوِّديني بصورةٍ لجمال، سوف أتَّصل بها وأعرضه عليها.

«أحسَّت الجدَّة أمينة بقشعريرةٍ، فلطالما انتظرت هذه اللَّحظةَ، وهاهو الزمن الذي لم ينهِ حياتها، ولم يكسرْها يتباهى أمامها بثوبه الملوَّن، ها هي الأيَّامُ تدور، وهي تتذكَّر ابنتها أمّ جمال عندما كانت عروسًا، فرأت منها دمعةً، ومسحتها بيدها بسرعةٍ، واستأذنتْ من أمّ محيسن لتعودَ إلى منزلها».

طاولة الاجتماعات

(١٦)

دقَّت الساعة التاسعة صباحًا وبدأ الحضور بالتهافت على مكتب المديرة وعلى طاولة الاجتماعات تكدَّسنا، حاولتُ الجلوس في موقع يُمكنُني من الاختباء عن عيون المساعدة المتسلِّطة أمل والمديرة التي توافقها وتسمع كلامها طوال الوقت، و بدأت الهمهمات والأصوات تعلو ولا يضبطها إلَّا صوت المديرة وهي تضرب بكفِّها على الطاولة في محاولةٍ يائسةٍ لإسكاتنا، إذ كانت عديمة الشخصيَّة ولا تفهم في النظام واللوائح و تحيط نفسها بسكرتيرتها ومساعدتها الإداريَّة ومشرفة الأنشطة وبعض الإداريَّات، والبغيضة أمل مساعدتها لشؤون الطالبات، حيث لا تستطيع نظم خيطٍ في إبرةٍ دون كلِّ هؤلاء اللَّاتي يتلاعبْن بها، ويحرِّكْنها حسب أهوائهن.

لمحت وجه أمل سعيدًا على غير العادة، وعيناها الواشيتان لا تلاحقان المعلماتِ و بدت مشغولةً بشيءٍ أكبر .. سمعتهن يباركن لها، و لا أعلم هل هي ترقيةٌ، أو نقلٌ، أو ربَّما أنَّ عقدتَها ستحلُّ؟ ربَّما ستتزوَّج أخيرًا، على كلٍّ هاهي فرحةٌ وسعيدةٌ..!

وقفت المديرةُ وضربت بيدها مرَّةً أخرى على الطاولة قائلةً:

«هذا الاجتماع لمناقشة بعض أمور العمل، ولكنَّني أبدأه اليوم بتهنئةٍ خاصَّةٍ للأخت أمل بمناسبة خطبتها، أمل من الزميلات المتميِّزات حقيقة في عملها وخلقها، ومجتهدةٌ جدًّا، ولم يمرّ بي خلال خدمتي طوال عشرين عامًا قضيتُها في التعليم والإدارة أكثر منها إخلاصًا وجديَّةً و نشاطًا وحيويَّةً »...!

قاطعها صوتٌ خافتٌ ينضح ازدراءً - أظنُّه صوت معلِّمة الرياضيات-: من وجهة نظرك فقط.

«علتْ همهمات بعضنا استنكارًا، والبعض الآخر تأييدًا».

ولكنَّ المديرةَ أكملتْ حديثها بغضبٍ:

- أبارك لأمل خطبتها، وأتمنَّى لها حياةً زوجيَّةً سعيدةً.

صفَّقت بعض الحاضرات لكلمة المديرة المستهلكة والمليئة بالنفاق الصارخ، وبدورها استأذنت أمل لِتُلقيَ كلمة شكرٍ تعرب فيها عن امتنانها وعظيم سعادتها لمن باركن لها في هذا الاجتماع...!

«راقبتُ أمل أمامي وهي تتغنَّج بطريقةٍ ممجوجةٍ لا تليق بها، وتساءلت: من أين لها هذا الذوقُ، وهذه الثقة العمياء في مظهرها وهندامها المضحك على الدوام والألوان الفاقعة التي تختارها وكأنها كاريبيَّةٌ قادمةٌ لحضور كرنفالٍ شعبيٍّ ؟!

ومن أين تأتي بهذه الثقةِ الكبيرة بنفسها، ومَنْ هو تعيس الحظِّ الذي سيرتبط بها ؟!

لا شيءَ فيها يشجِّع على الزواج بها، شكلها ... أستغفر الله العظيم»..!!

لقد أخذتِ الكثير من حسناتي في ذلك اليوم.

في الحياة لدى كلِّ شخصٍ عدوٌّ لدودٌ، ولكنَّ البعضَ يتجاهلُه ولا يفصح عنه، وأمل من نوعِ الأعداء الذين لا يُظهرون عداوتهم طوال الوقت، ولا تظهرها أمامي، ولكنَّها تهاجمني بشراسةٍ من وراء ظهري، وتنقل عنِّي كلامًا لم أقلْه، وحكاياتٍ لم أفعلْها.

من جهتي لا أذكرها أبدًا، أحاول أنْ أترفَّعَ عنها، وعندما تنقل لي إحدى المعلِّمات ماذا تقول عنِّي وراء ظهري، لا أعير هجومَها وانتقاصها لي في كلِّ محفلٍ أيَّ اهتمام، ولكنَّها تُخيفني كثيراً، تلعب على أساس قواعدَ رسَمتْها لنفسها وبرَّرتها، فهي تعيش دائمًا حالة خطرٍ من الآخرين.

شكلها كاريكاتوري، فهي قصيرةٌ ونحيفةٌ، ويبدو أنَّها تعاني من سوء التغذية، كأنَّها فسيلةُ نخل حدباءَ مصفَّرَّةٌ، لها ضفيرةٌ طويلةٌ تلفُّها على كتفها الأيمن، وتلبس نظَّارةً تُظهر عينين ضيِّقتين ماكرتين، فمها واسعٌ مع أسنانٍ بيضاءَ لامعةٍ وأصابع يدها قصيرةٌ مدبَّبةٌ، وكلَّما غضبتْ أواضطربَتْ تبدأ بأكل أظافرها.

شعورُها بالغيرة طاغٍ جدًّا وظاهرٌ تجاه كلِّ مَنْ حولها، وأحيانًا تُشعرني بالشفقة عليها، هي تغار حتَّى من ظلِّها، ولديها فهمٌ عجيبٌ فريدٌ، فهي تخلط الأمور بطريقةٍ عجيبةٍ، وغالبًا ما تحلِّل المواقف على حسب أهوائها، ولكنَّها تحصل على ما تريد في العمل دائمًا؛ بسبب انتهازيَّتها و ضعف شخصيَّة المديرة.

كلُّهم يضعون لها اعتباراً ظاهريًّا، ليس احترامًا لها، بل خوفًا من غدرها، غير أنِّي لا أرفع من قدْرها، ولا أُظهر لها شيئًا من ذلك حتَّى وإنْ وقعت بين فكَّيها الشرسين، مع أنِّي بتُّ أكره عملي بسببها، وبسبب تهوينها من شأني باستمرارٍ أحتار أحيانًا في أمرها، لكنِّي لا أتراجع، ولا أنحني ... عشتُ حياتي مع الكثير من القيود والتحذيرات والتوقُّعات، ومعظمها يصبُّ حول فكرة الكمال، وليس من الكمال الهبوط لمثل مستوى أمل!

«أعترف أنَّني لا أطيقها، فكلَّما سمعت صوتها تسري موجةٌ كهربائيَّةٌ في جسدي تجعلني أنتفض، وأرغب أنْ أقذفَها بأقرب شيءٍ بجانبي .. كوبٍ، قلم، أو دفتر، بأيِّ شيءٍ، أيِّ شيء».

بيني وبينها تنافرٌ ونفورٌ، أحاول أنْ أبَرِّرَ سبب كرهي لها.

أتساءلُ: هل أنا سوداء القلب ؟

لا، لستُ كذلك، ولكنَّها غالبًا ما تتعمَّد إيذائي وإحراجي وجرحي، حتَّى أنَّها لا تنطق اسمي جيِّدًا، وأمام طالباتي تناديني يا (هيونة)، هي كائنٌ سخيفٌ جدًّا، ولا تدرك مدى سخفها، إذ ليس من السهل على المرء أنْ يرى سخافته.

في صباح معجونٍ بالعمل سمعتُ طرقاتٍ متواليةً على باب الفصل، وكُنتُ منهمكةً في تصحيح دفاتر الطالبات، وعندما رفعت رأسي رأيت السكرتيرة من وراء الباب الزجاجي، وبدا واضحاً أنَّها منفعلةٌ بقوَّةٍ، حتَّى خُيِّل إليَّ أنَّ أحدَ عروق رقبتها سوف ينفجر، كانت ممسكةً بمقبض الباب بيدها اليُمنى وتلوح بيدها اليسرى أن افتحي الباب ...قمتُ على عجلٍ، وفتحت الباب.

- المديرة تريدك حالاً.

- ما الخبر؟ ماذا حصل؟

- توجَّهي إلى مكتب المديرة وستعرفين .

في الحقيقة صرتُ أعرف ما لدى المديرة، وهل هي مسرورةٌ، أم غاضبةٌ من خلال تصرُّفات السكرتيرة، ومديرتنا كالطفل تتقلَّب نفسيَّتُها سريعًا، ولا تستطيع أنْ تفصلَ بين عملها ومشاعرها، ولا تقيم شأنًا للموضوع بعيدًا عن الذات .... ولا أشكُّ في أنَّها تكرهني الآن مثل مساعدتها أمل.

لم أغادر الفصل بسرعةٍ كما رجت السكرتيرة، بل أكملتُ تصحيح الأوراق حتَّى انتهيتُ، ثمَّ عرَّجتُ على غرفة المعلِّمات، وأعددتُ لي كوب قهوةٍ كبير (Mug) وأخذتُهُ معي، وذهبتُ إلى مكتب المديرة.

دخلتُ مكتبها، وكالعادة كانت تصرخ على أحد أولياء أمور الطالبات في الهاتف و بدتْ منزعجةً ومرتبكةً، وأشارت بيدها إلي أن اجلسي.

جلستُ على كنبةٍ من الجلد الأسود، وانغرستُ داخلها، بدا لي أنَّ وزني قد ازداد.. ولم أنتبه!

وضعتُ الكوب على الطاولة الزجاجيَّة، وأنا أتأمَّل مكتب الإدارة الذي لا روح فيه، ورودٌ تيبَّست على الطاولة، وحلوى

بلجيكية مقلَّدة، وفناجين قهوة نصف ممتلئة، الأماكن ترشد إلى أصحابها وتفضح لامبالاتهم وفوضويَّتهم.

تنبَّهت من تأمُّلاتي على صوت سمَّاعة الهاتف وهي تقفل بشدَّةٍ، رفعتُ رأسي ونظرتُ إليها مباشرةً، أشاحت بعينيها عنِّي، فهي لا تحبُّ الاتصال بالنظر كعادة الشخصيَّات الهشَّة الضعيفة.

وبصوتٍ مبحوحٍ قالت لي:

– تفضَّلي هذه ورقةُ مساءلةٍ، وسحبتْ ورقةً من بين الأوراق المكدَّسة أمامها وقدَّمتها لي.

– مساءلةٌ؟! على ماذا ؟

فحدجتني بنظرة استنكارٍ.

– ألا تعرفين أخطاءكِ يا هياء ؟! .. سبَّبتِ لنا إحراجًا مع أولياء أمور الطالبات، اجتمعوا وكتبوا شكوى ضدَّك ووقَّعوها، وتبرَّع أحدهم لإيصالها إلى مكتب الإشراف التربوي.

– والسبب ...؟

– اقرئي وستعرفين ما السبب..بالمناسبة لماذا لم تباركي لأمل خطوبتها، لاحظت ذلك بنفسي؟! (كانت تكذب فأمل هي من اشتكتني لها)

– الجميع قام بالواجب نيابةً عنِّي ..!

«غادرتُ مكتبها وأنا مصدومةٌ من هذه المساءلةِ، دخلتُ الفصل ووقفت أمام الطالبات واجمةً محروقة القلب على نفسي، ولم أتحدَّثْ مع أحدٍ في ذلك اليوم أبدًا».

عدتُ إلى المنزل، ولم أنمْ في تلك الظهيرةِ بل توجَّهت للإنترنت ودخلت موقع الوزارة وبحثت عن اللَّوائح والقوانين حتَّى أجدَ شيئًا أحاجج به لجنة التحقيق»

مرَّ اليوم ولم تتناولْ هياء غداءها ولا عشاءها، بل اكتفت بسندوتش تونة تناولتْه آخر الليل.

وفي الصباح التالي فتحت شبَّاك غرفتها المطلَّ على فناءٍ صغيرٍ، رفعتْ رأسها عاليًا وأخذتْ نفسًا عميقًا وتحسَّستْ صدرها في محاولةٍ لإزاحة شيءٍ أثقلها في تلك اللَّحظاتِ.

شعرتْ بحاجةٍ ماسَّةٍ للحديث مع أحدٍ ..!!

استدارتْ ووقفتْ أمام المرآة تنظر إلى نفسها بكلِّ شفقةٍ .....!

(وينك) يا منيرة ... لقد كنتِ تسهِّلين عليَّ مواجهة لحظات الإحباط والضيق وأزمات الحياة، وتهوِّنين المسائل والأمورعلى نفسي .

ابتعدتْ عن المرآة في محاولةٍ لتشتيت ذهنها وطرد الأسى الذي أطلَّ برأسه، و جلستْ على حافَّة السرير وعادت إليها ذكرى منيرة:

لو كانت بجانبي الآن لتعزَّزتْ ثقتي بنفسي وطمأنتني بأنَّ كلَّ شيءٍ على ما يُرام، و كنتِ ستأخذيني إلى مقهى وتحدِّثيني عن كلِّ شيءٍ إلَّا عن مشكلتي .. كنتِ بارعةً في جعلي أتعايش وأنسى...!

يا الله يا منيرة كيف ذهبت هكذا بلا موعدٍ مسبقٍ، أهكذا تكون الصداقة ؟

بعدك انكفأت على ذاتي ..أصبحت عدوانيَّةً أكثر، ولا أستطيع بناء علاقاتٍ مع الآخرين فأنا لا أثق بأحدٍ.. أنتِ الوحيدةُ التي نفذتْ إلى روحي كالماء ..!

قطع حديثَها مع نفسها رنينُ هاتفها النقال، ألقت نظرةً على شاشته كانت المكالمةُ من زميلتها معلمة الرياضيات سعاد ... ولكنَّها أحسَّت بتثاقل، فلا تريد أنْ تردَّ على أحدٍ.

وضعت هاتفها علَى الصامت، وبدأت بكتابة خطاب الردِّ على مساءلة الإدارة.

كانت المساءلةُ بخصوص طلبها من طالباتها إحضار قصاصاتٍ، وأخبارٍ، ومقالاتٍ، و صورٍ من الصحف والمجلَّات، كنشاطٍ للطالبات يتعلَّق بالمادَّة، وطبيعي جدًّا أنَّ الصحفَ تحتوى على صورٍ وأخبارٍ كثيرةٍ.

« أذكر أنَّ الطالباتِ كنَّ سعيداتٍ بهذا التكليفِ، ودار بينهن نقاشٌ عن الفنانين والرياضيين وبعض المشاهير، ويبدو أنَّ بعضهن نقل ما دار داخل الفصل لأهلها، وبعض الأهالي المتشددين ثارت ثائرتهم لذلك!

قام أحد أولياء الأمور بجمع تواقيعَ من بعض الآباء؛ لكتابة شكوى ضدِّي وتقديمها لإدارة التعليم ؛ لأنَّ هذا كما زعموا في الشكوى يخالف تعاليم الوزارة ويحمل ضررًا فكريًّا للنموذج الفكري الذي يسيطر عليهم ويرون في كلِّ ما يقترب منه عملًا تغريبيًّا وعلمانيًّا وقد يفضي لفسادٍ وانحرافٍ أخلاقيٍّ على حدِّ وصفهم!

يبدو هذا صادمًا، وربَّما مفتعلًا؛ لأنَّنا نعيش في عصرٍ قلَّ فيه مَنْ لا يمتلك هاتفًا ذكيًّا أو حاسوبًا أو جهاز تابلت ... إلخ، وكلَّ ما يحتاجه المرءُ يحصل عليه باتِّصالٍ، أو بضغطة زر، و العالم الخارجي لم يعدْ محجوبًا، ولم تعد الرقابة، أو محاولات الحجب، والحماية الماديَّة التقليديَّة فعَّالةً كما كانت ... قاتل الله الجهل والجهلاء والمتحاملين والظالمين!

«فتحتُ حاسوبي وبدأت بكتابة الردِّ على هذه الشكوى الغريبة، واستندتُ في ردِّي على المنهج المقرَّر من الوزارة، وأنَّه يجوز الاستعانة بالصحف وغيرها من أجل تعزيز العمليَّة التعليميَّة كجزءٍ من النشاط المنهجي. وبعد أن انتهيت من كتابة الردِّ حفظته في حاسوبي تمهيداً لطباعته في المدرسة وتقديمه مع خطاب الشكوى للجنة التحقيق التي ستحضر بداية الأسبوع».

درويش القرية

(١٧)

في الصباح الباكر جدًّا ذهبت هياء إلى المدرسة، ودخلت غرفة المعلّمات، وقبل كلِّ شيءٍ أدخلت الفلاش ميموري (USB) إلى حاسوبها وفتحت الطابعة،ثمَّ ضغطت على زر PRINT وبدأت بالطباعة، سحبت الأوراق بسرعةٍ، ولكنَّها جرحت إصبعها بحافَّة ورقةٍ فتلطَّخت بلوزتُها البيضاءُ بالدم، فلم تعرْ ذلك اهتمامًا وكلّ ما فكّرت به وقتها هو كيفيَّة تجهيز ردِّها.

حاولت جاهدةً أنْ تهدِّئ نفسها، ولكنَّ الهدوءَ مفقودٌ في هذه المدرسةِ، حيث أطلَّت عليها البغيضةُ أمل بابتسامتها الصفراء قائلة:

- صباح الخير.
- صباح النورمع ابتسامةٍ باهتةٍ.
- لم تباركي لي خطوبتي، وقد أصبحنا أقارب!

نظرت إليها هياء باستغرابٍ: ماذا تقصدين؟

- هههه خطيبي (قالتها بغُنج ممجوج) اسمه جمال عبدالعزيز فهد الصالح، وأظنُّه من أقربائك!

- للأسف لا يوجد لدي أقارب من ناحية والدي.

أغلقت أمل الباب وراءها وقد علت ضحكتُها المستفزَّة، وأكملت هياء عملها، فبعد ربع ساعةٍ سوف تجتمع مع لجنة التحقيق والمساءلة ... كانت معنوياتُها مرتفعةً وتعرف أنَّها على حقٍّ، ولديها وثائقُها التي أعدَّتها جيِّدًا مع خطابٍ يشرح شرحًا كاملاً موقفها، ولكنَّ أمل أشعلت فتيل الفضول لدى هياء بذكرها لاسم تطابقَ بشكلٍ عجيبٍ مع باقي اسمها الرباعي... وظلَّت طوالَ ذلك الصباحِ تفكِّر بما قالته أمل ... انتهى اجتماعُها مع اللَّجنة بطريقةٍ بليدةٍ، على الرغم من إحساسها بالنصر.

عندما عادت إلى المنزل أحضرت الشاي، وساندويتش التونة الذي تحبُّه، وفتحت أغنيتها المفضَّلة لمحمد عبده (في زحمة الناس صعبة حالتي)، ووضعت حاسوبها على السرير ومباشرة على صفحة Google، أحسَّت بخوفٍ وانقباضٍ في صدرها و تعالت نبضاتُها و لا تعلم لماذا، و فضولها الجامح كان أكبرَ من مشاعرها المرتبكة .

أدخلت اسم جمال عبدالعزيز فهد الصالح، وظهرت لها عدَّة روابط المهندس جمال عبدالعزيز الصالح

جمال عبدالعزيز الصالح شركة EBAS

بدأت بفتح الروابط بشكل متتابع، ولكنَّها لم تجدْ ما يطفئ فضولها، ولكنَّ عينها وقعت علَى (للتواصل مع جمال عبدالعزيز الصالح).

« وخطرت لها فكرةٌ شيطانيَّة ».

حدَّثت نفسها: لماذا لا أرسل إيميل و أتواصل معه وأكتشف مَنْ هو؟ وهل هو فعلًا قريبٌ منِّي ؟! ... على الأقلِّ سأعرف بعضًا عمَّن ستتزوَّجه أمل وكيف تزوَّجته ..لا مانع من المشاكسة قليلاً .. وردِّ الصاع صاعين إنْ لزم الأمر!!

وفجأةً خطرت لها فكرةٌ أعظم من الإيميل، أغلقت حاسوبها، وقامت مسرعةً واتَّصلت بالجوهرة ابنة خالتها موضي .. هي أصغرُ منها سنًّا بقليل، ولكنَّها الأقرب إليها فكريًّا من جميع أقربائها، وأكثر تفهُّمًا وأوسع أفقًا وبينهما ودٌّ كبيرٌ، على الرغم من التواصل المحدود واللِّقاءات القليلة المتباعدة.

... اتَّصلت بها هياء ودار بينهما حوارٌ حول الأقارب وتحديدًا حول هذا الاسم جمال، لكن لا ابنة خالتها، ولا خالتها موضي تعرفان شيئًا عنه!

ثمَّ اتَّفقت معها على موعدٍ للِّقاء في نهاية الأسبوع.

بعد انتهاء مكالمتها مع ابنة خالتها، نظرت للأرض كمن تبحث عن شيءٍ مفقودٍ وابتسمت.

تذكَّرتْ جلستها بين أمِّها شيخة وخالتها موضي، يااااه خالتي موضي وضحكتها الجميلة التي لا تفارقها ..أشمُّ رائحة أمِّي، فذاكرتي تحمل لها الكثير من الورد دون أنْ يذبلَ، معها أكون في مدينة الأعراس الضاجَّة بالفرح، أشهق بكلِّ أشيائها الجميلة ورائحة دهن العود التي لا تفارقها، ويديها المخضَّبتين بالحنَّاء، ومع أنَّها أكبرُ من أمِّي إلَّا أنَّ يديها مازالتا تحتفظان بمسحاتٍ من جمال، أحبُّها كهذه الفوضى التي أعيشها، معها تترصَّع داخل عيني الآلاف من الألوان، فهي تعيد ما ضاع منِّي من حنينٍ، وكلَّما زرتُها تحدِّثني عن ذكرياتها مع أمِّي وقريتهم الصغيرة!

أستمتع جدًّا عندما أجلس بجانبها وتمسك بيدي وتبدأ العدَّ بأصابعي، تعدُّ كلَّ أهل قريتها وصديقاتها، و تسرد قصص طفولتها وشقاوتها وحبِّها الشديد للأكل، وميزاب الطين المنتصب بين الأعشاب الجافَّة والذي جعلته مخبأها السريَّ عندما تسرق الأكل من لولوة .. يا لَفطرتها البيضاء! ويا لهذا الحبّ!

الذي أكنُّه لخالتي هو مثل « الإحساس برائحة بيتٍ أغلق لمدَّةٍ طويلةٍ، ثمَّ فتحت أبوابه عند المطر محشوًّا بالشوق والحنين وعذاباتٍ ماضيةٍ وحاضرةٍ»

يبدو أنَّها تعرف ما أحنُّ إليه، وإلى الحبِّ الذي افتقدتُه عند رحيل أمِّي، فالحبُّ يمزِّق أوصال وحدتي.

ذات يوم جمعتنا خالتي موضي وابنتها الجوهرة وابنها خالد، وطلبت منَّا أنْ نرافقَها في رحلةٍ عائليَّةٍ إلى قريتها، حيث وعدتنا أنْ تريَنا أشياء لم نرها من قبلُ أو نسمع بها عن تلك القريةِ المليئة بالأحزان والفقد والاستبداد ...!!

اتَّفقنا على يوم الخميس، أخذت إجازةً من عملي وكذلك ابنة خالتي، أمَّا ابنُ خالتي خالد فكان يشتغل بالأعمال الحرَّة.. قبلها بليلةٍ أعددت كلَّ متطلَّبات الرحلة، فقد كنتُ متشوِّقةً للذَّهاب إلى مسقط رأس والدتي برفقة مَنْ يعرف المكان جيِّدًا وعاش سنوات أمِّي هناك، حيث كانت تلك القريةُ في وجدان أمِّي وكلِّ ذاكرتها وحكاياتها تقريبًا.

في الساعة السادسة صباحاً ركبنا سيَّارة خالد الفارهة الكبيرة من نوع GMC شعرت بالامتنان لخالتي موضي أنْ حقَّقت لي أمنيتي بزيارة مسقط رأسها معًا .. تلك القرية المكفَّنة بالكثير من الأسرار والحبِّ والكراهية والفقد .

انطلقنا على طريقٍ سريعةٍ اخترق فضاء صحراء قاحلةٍ ورمالٍ صامتةٍ، حيث تبعد القرية عن العاصمة (١٥٠) كيلو متراً، كان خالدٌ يسير بسرعةٍ شديدةٍ، فهو متهوِّرٌ ويحبُّ القيادة السريعة.

-الخالة موضي: يا ولدي هدي السرعة ترانا مب ملحوقين ما ورانا شي.

-خالد: ليش يمه خايفة ؟! ما تبين توصلين لديرة أهلك بسرعة ؟!

- هياء: معها حق يا خالد أنت تمشي ١٦٠ حرام عليك ما أبي أموت بدري.

وضع خالد سي دي لأغاني أجنبيَّة ل ASHER صرخت الأم.

- حرام يا ولدي! وش فيك اليوم ؟!

- يمه مب حرام هذي سعة صدر خلي قلبك أخضر.

- ترى إذا ما سكرت هاللي يصارخ ابنزل من السيارة ..يا الله نزلني .

- خلالالاص نسكره لعيون ميمي .

- يا ولدي استح على وجهك أنا أمك.

ضحكت هياء والجوهرة بصوتٍ عالٍ، وقالت الجوهرة: لنلعب لعبة تسلِّينا في الطريق دام الأغاني حرام وهي تغمز لخالد.

صرخت هياء: نلعب (Dare and Truth) الجرأة والحقيقة هذي لعبتي المفضَّلة.

ضحك خالد: وين نلعب هاللعبة ما تصلح في السيارة.

اقترحت الخالة موضي أن يلعبوا لعبة الألغاز ..!

راقت الفكرة للجميع ... وبدأت الخالة موضي بإلقاء أول لغز.

أنشدك عن رجال من دون رجلين ... وله عند الناس قدر وشيمة

أسرع من الهاتف ومن رمشة العين ... ولا هو ظالم ولا يحب الظليمة.

يالله حلو اللغز ....

خالد: رجال من دون رجلين وسريع بعد ...صعبة يمه.

هياء: مر علي ها للغز سمعته من أمي شيخة بس ماعلمتني الحل الله يرحمها.

الجوهرة: ماما ترى هذا لغز قديمين ما نعرف له قولي شي ثاني.

الخالة موضي: وين العلم والدراسة والكتب اللي أربع وعشرين ساعة تقرونها ههه ..!!

خالد: طيب حلي اللغز يمه.

الخالة موضي: حل اللغز هو ملك الموت.

خالد: آفاااااااااااااا يمه يا حبك للمشاكل والأحزان.

ضحك الجميع واستأنفوا ألغازهم المضحكة، وتوقَّف خالد عند محطة بنزين لتعبئة السيارة بالوقود وشراء مكسَّرات للجوهرة.

«هياء كانت سعيدةً جدًّا فهي تحنُّ للعائلة والأم والأخوة ... وتحدِّث نفسها دائمًا ماذا لو لم يمت والدي وأنا طفلة ...؟

ماذا لو أنجبتْ أمِّي إخوة لي وأخوات ...هل كنت سأشعر بهذا الحزنِ الذي أغرق به الآن؟

ماذا لو أنَّ منيرة لم تمت هي وأطفالها» ؟

قطع تفكيرَها ركوبُ خالد السيَّارة.

خالد: بقي ٥٠ كيلو ونصل..استعدُّوا للمغامرة ولقصص أمِّي.

وصلوا إلى القرية فلاح منها نخيلٌ باسقٌ عتيقٌ، و بقايا سور القرية الحجري المخلوط بالطين

انتصبت الخالة موضي في جلستها وفتحت النافذة واستنشقت الهواء، وهي تردِّد اللَّهم ارحمْهم جميعًا.

هدَّأ خالدٌ من سرعة السيَّارة وهي تقترب من سور القرية كان متهدِّمًا وبوَّابتها مليئةٌ بالحجارة.

صرخت الخالة بخالدٍ قائلة:

لا تدخل الآنَ، أريد أنْ تشاهدوا مكان (العين الحارة) مع أنَّني خائفةٌ، ولا أعلم ما سنجده هناك إلَّا أنَّه يجب أنْ تشاهدوا هذا المكانَ، حيث له قصَّةٌ عجيبةٌ آمن بها كلُّ أهل قريتنا والقرى المحيطة بنا، و تقاتل قديمًا من أجلها الكثيرُ من الناس ...!!

الخالة موضي: خالد الله يرضى عليك ..اسلك الطريق الآخر من وراء سور القرية، واتَّجه شمالاً ستجد جبلاً صغيرًا محاطًا بسورٍ حجريٍّ.

ها هو ذاك يا خالد اقتربْ منه قليلًا، ثمَّ توقَّفْ هناك؛ لِننزلَ من السيَّارة حتَّى نستطيعَ الدخول.

شعرت هياء ببعض الخوف، ولكنَّ رغبتَها بالاكتشاف فاقت كلَّ مشاعر الخوف، أمسك خالدٌ بيد والدته التي تتَّكئ على عصا، وسارا قليلًا باتِّجاه باب السور، ثمَّ دلفا ببطءٍ شديدٍ، والجوهرة وهياء خلفهما بمسافةٍ، لم يكنْ هناك غيرُ شجر الأثل والقليل

من الرمث والرمل المخلوط بالحصى والحجارة الصغيرة، تقدَّموا حتَّى وصلوا إلى فتحةٍ كبيرةٍ في الأرض كانت منبعَ العين الساخنة، ولكنَّها كانت جافَّةً.

اقتربت الخالة موضي وهي تتحامل على مشاعر الخوف وأطلَّت في الحفرة قائلةً:

أين أنتِ أيَّتها الحاميةُ؟ وكم مات من أهل قريتنا من أجلك؟ ومنذ عشرات السنين زاحمتِ الناس في رزقهم واقتطعتِ منه، العجيب أنَّهم آمنوا بكِ، وخوَّفونا منكِ في طفولتنا، كنتُ أسمع وأنا طفلةٌ بعض القصص القديمة عن أشخاصٍ سذجٍ آمنوا بوجودك، وهم يضعون لك الطعام من أجل ألَّا توقفي تدفُّق المياه الساخنة التي تعالج أمراضهم وجدبهم.

ووسط اندهاش الجميع التفتتْ إليهم الخالة موضي قائلةً:

هذه العينُ كانت تتدفَّق منها مياهٌ حارَّةٌ، وكان أهلُ قريتنا والقرى المحيطة بها يؤمنون بهذه المياهِ، وأنَّها تشفي من الأمراض سواء أمراض العظام أو الجذام وغيره، ولكنَّهم يعتقدون أنَّ هناك ثعبانًا كبيرًا يحمي هذا النبعَ، وهذا الثعبانُ كان عبارةً عن امرأةٍ ساحرةٍ تشتغل بالسحر والشعوذة، أراد أهل قريتها حرقها فتحوَّلت إلى ثعبانٍ ضخم يهدِّد معاشهم، وإنْ لم يطعموها فسوف تقفل نبع الماء، وبذلك من أراد السباحة والتداوي في هذه المياهِ الحارَّةِ، عليه أنْ يحضِّرَ الطعام ويضعَه في مكانٍ وراء فتحة النبع حتَّى تسمحَ له الحاميةُ بالسباحة والاستطباب هنا . .. ومَنْ سبح في هذه العينِ دون إحضار طعام، فإنَّه يغرق ..!!

وكانوا في طفولتنا يخوِّفونا بالحامي إنْ أسأنا الأدب معه ... !!

هياء: Incredible شيءٌ لا يُصدَّق.

خالد: ما رأيكم لو نزلتُ داخل هذه الحفرةِ.

ارتعبت الخالة موضي وحلفت عليه أنْ لا ينزل، فهي حتَّى الآن لم تستطعْ دفن خوفها من هذا المكانِ، ثمَّ استدارت وقالت: هيَّا بنا نكملْ، سأريكم مكانًا آخرَ مختلفًا .

عادوا إلى السيَّارة، وهم صامتون، وكلُّ واحدٍ منهم يدور في رأسه ألفُ سؤالٍ وسؤال.

وبلهجةٍ آمرةٍ قالت لخالد: ارجعْ مئة متر، ثمَّ استدرْ لليمين، واتَّجهْ نحو الجبل، ولمَّا و صلوا قرب الجبل الصغير ذي الصخور السوداء التي تبدو كقطعٍ من اللَّيل بدأت الخالة موضي تلتفت يمينًا وشمالاً، وكأنَّها تريدُ أنْ تتحقَّقَ من شيءٍ ما.

التفتتْ إلى الوراء ناحية هياء وابنتها وقالت:

في طفولتي كان الناسُ يخافون الاقتراب من هذا الجبل أيضًا، فكلُّ مَنْ يحاول الوصول إليه يختفي، ولا ترى جثَّته، والناس في قريتنا والقرى الأخرى يعتقدون بأنَّ هناك مسخًا يسمّونه (السعلي) يقتل البشر، واختلفوا حولَه، وكثُرت أساطيرُهم عنه، فهو تارةً يقضي على جميع مَن يقترب، وتارةً أخرى ينتقي ضحاياه فله منهم مَن يعجبه ويصفح عنه، ويتحدَّث معه، وله منهم مَن يفترسه حيًّا !! ..

وعيتُ على الدنيا، و بعض أهل قريتنا يضرمون النار إذا جنَّ اللَّيل عند شعورهم بأمرٍ غير عادي، حتَّى لا يأتي هذا المسخُ ويفترس صغارَهم، كان يمثِّل رعبًا حقيقيًّا لهم، وكانت الأمهاتُ يخوِّفن أطفالهن به؛ كي يناموا!

و من القصص الكثيرة التي وعيتُ على الدنيا، وأهل قريتنا يردِّدونها:

كان هناك فارسٌ شجاعٌ اسمه (شويعر) فقد أخاه الذي يصغره، قِيل: إنَّ أخاه كان يرعى الغنم واقترب من الجبل، وفُقد

منذ ذلك اليوم، قِيل: إنَّ المسخَ قد افترسه، وقِيل: إنَّ الثعبانَ الحارس ابتلعه، أو خطفته الجنُّ، ولا أحدَ يعلم عنه شيئًا؛ لذلك حلف (شويعر) أنْ يقتصَّ لأخيه من كلِّ مسخٍ ووحشٍ، فقد كان غيرَ هيَّابٍ وقويَّ البأس؛ لذلك دار كلَّ القرى المجاورة، وتحدَّث مع كبار السنِّ؛ لكي يتعرَّفَ أكثر على هذا المسخ، ولكن لم يتجاوب معه أحدٌ، فقد كانوا يخافون حتَّى من ذكر اسم المسخ، وظلَّ يبحث حتَّى دلَّه أحدُهم على رجلٍ عجوزٍ يسكن وحيدًا في أحد الوديان، قِيل له: إنَّه نجا من هجوم المسخ في شبابه، فذهب إليه فوجده مبتور اليد، مشوَّه الوجه، ففرح شويعر، وقال له: أرجوك، أريد معلوماتٍ وافيةً عنه!

ضحك الرجل المشوَّه بصوتٍ عالٍ، وقال له: هل تريد منازلة المسخ ...أنت حتمًامجنونٌ، لا تخطئ خطأي ...لا يستطيع أنْ يهزمَه أحدٌ، كنتُ شابًّا قويًّا مثلك، وتحدَّيت الكلَّ؛ لأفوزَ بشرفِ قتلِهِ، فلا أنا قتلتُه، ولا هو قتلني، فقط أكل جزءًا من جسمي؛ ليذكِّرَني بعجزي وفشلي وهزيمتي في القتال.

- شويعر: أنا لستُ مثلَك وسأقتله.

- لك ما أردت، ولكنَّ هذا المسخَ نبيهٌ، وشديدُ السمع، لا ينام أبداً، قوَّته تعادل قوَّة مئة فارسٍ، له عينٌ واحدةٌ في منتصف رأسه، وله ثلاثة أذرعٍ ليس بشراً، وليس حيواناً، يغطِّي جسمه وبرٌ بلون التراب، وإنْ أردت أنْ تتغلَّبَ عليه يجب أنْ يكونَ معك سيفٌ من نارٍ.

- ومن أين أحصل على هذا السيفِ؟

- يُحضرون هذا السيفَ من بلادٍ بعيدةٍ، في العراق!

- هل سبق أنْ حصل عليه أحدٌ.

- لا.

- شكرًا لك .

وحزم شويعر أمتعته ورحل إلى العراق؛ ليحضرَ السيف، ولم يعد أبداً.

يُقال: إنَّه مرَّ بالجبل وافترسه المسخ، والبعض يقول: إنَّه عبر الصحراء ومات من العطش.

من المؤكَّد أنَّ الناسَ استمرَّتْ في خوفها وتشاؤمها؛ لذا اتَّفق أهل القرى المجاورة على أنْ يبنوا حول هذا الجبل سورًا ليحموا أنفسهم وأطفالهم، وها هي بقايا السور المحيط بَالجبل .. بعد أنْ هدمه بعض المغامرين من الباحثين عن الذهب والكنوز الأسطوريَّة حول العين وحول الجبل.

هياء: يا الله يا خالتي كنتم تعيشون الخوف كلَّ يوم.

الخالة موضي: الناس يا سارة يصدِّقون أيَّ شَيءٍ، ربَّما هي شائعاتٌ وأقاويلُ وخوفٌ من المجهول، كنَّا أناسًا بسطاء سذَّجًا تنطلي علينا الأقاصيصُ والحِيَلُ و الخرافاتُ.

خالد: هل نعود لندخلَ القرية يا أمِّي ؟

الخالة موضي: أنا تعبت يا ولدي أريد العودة.

الجوهرة: أريد أنْ أرى بيتكم ومكان طفولتك يا أمِّي.

الخالة موضي: هيَّا بنا.

خالد: فقط نصف ساعةٍ ندخل القرية، ونتفرَّج عليها ونحن داخل السيارة، لا نريد النزول قبل هذه الرحلةِ بمدَّةٍ تكرَّر على هياء حلمٌ غريبٌ... فقد حلمت أنَّها وحيدةٌ داخل منزلٍ طينيٍّ في صحراء قاحلةٍ، والسماء تتوسَّطها غيمةٌ سوداء، وهي وحيدةٌ تصرخ وتنادي ولا أحدَ يجيبها، ثمَّ يأتيها صوتٌ يخترق قلبَها يقول لها: لن تشفعَ لكِ استقامتُك، ابحثي عن حلٍّ وتبدأ أقدامها بالغوص في رمالٍ متحرِّكةٍ، فتصحو وهي تتعرَّق، وأنفاسُها متقطِّعةٌ... !!

وعندما دخلوا القرية، ومرُّوا من عند بعض البيوت الطينيَّة، تذكَّرتُ حلمها المزعجَ فهناك بيتٌ يشبه البيت الذي تراه في حلمِها، أحسَّت بقشعريرةٍ ممزوجةٍ بخوفٍ، ولكنَّها التزمت الصمت .. !

التفتت الخالةُ موضي إلى الفتاتين، وهي تشير إلى منزلٍ تهدَّم نصفُه ...هذا منزل الدرويش ...!

– مَن الدرويش يا خالة ؟

ضحكت الخالة طويلًا، وقالت: كان في قريتنا درويشٌ يعتقد أهل القرية بأنَّه من الصالحين، فهو يعرف كلَّ شيءٍ، فإذا فُقِد طفلٌ ،أو جملٌ، أو مالٌ، فالناس تذهب إليه فيخبرهم عن مكانٍ ما فقدوه مقابل طعامٍ أو ما تجود به النفوس.

خالد: أستغفر الله ... إيش الخرافات هذي يمه وش يدريه ..!

– لم تكنْ خرافات عند الناس، بل اعتقدوا بأنَّها حقيقةٌ، فهو يساعد الناس؛ لأنَّ اللهَ فتح عليه من دون البشر لصلاحه وكان يتعبَّد الله على طريقته، يُذاع أنَّ نسبَه يعود إلى بيت رسول الله، فلديه كراماتٌ كثيرةٌ، كنتُ أراقبه وأنا طفلةٌ، وهو شيخٌ هرمٌ، و كنتُ أجلسُ هناك وأشارتْ إلى صخرةٍ صغيرةٍ مقابلةٍ لمنزل الدرويش، وأشعر بالإثارة والعظمة عند رؤيته.

كنتُ أريد أنْ أكونَ مثلُ الدرويش عندما أكبر هههه.

رجلٌ وجهُهُ متسامحٌ، له عينان لامعتان، وشاربٌ أبيضُ مشتبكٌ مع لحيةٍ بيضاء قصيرةٍ، و يلبس ملابس بيضاء ويمسك بمسبحةٍ طويلةٍ بيده اليمنى وعصًا في يده اليسرى، ويذكر الله طوال الوقت، لا يأخذ من خيرات العالم مع أنَّه يستطيع، كان يأخذ فقط ما يحتاجه.

جدُّكم سعد كان يذهب إليه كثيراً، وأحياناً يأخذني معه ولكنَّه كان يتركني في الخارج عندما نقترب منه، ولا أذكر ما كان يحدث

بالضبط أو ما كان يقوله في ذلك الوقتِ، ولكنِّي أحفظ بعض كلماته حتَّى الآن.

يقول: «إنَّه يجتاز عقباتِ الحياة بالإيمان وكلَّما اقتربنا من الله أصبحنا أكثرَ بياضًا، وأكثرَ تسامحًا، وأكثرَ زهداً، فرجال الله دائمًا متسامحون».!

كنت أخاف من النار الكبيرة التي لا تنطفئ في منزله ... والحقيقة أنَّنا لا نعلم كيف جاء هذا الدرويشُ إلى قريتنا، فهناك الكثيرُ من القصص التي تُروى، ولكنَّ

الأغلبيةَ يروون أنَّه وصل إلى القرية على هيئة صقرٍ حادِّ النظر، يعرف كلَّ شيءٍ وعندما اطمأنَّ لأهالي القرية تحوَّل إلى درويشٍ، ففي كلِّ مكانٍ كان هناك الظلمُ

والفقرُ، والعوزُ، والبؤسُ. قريتُنا مليئةٌ بالأحزان، والموتُ يرفرفُ حولها كغيمةٍ تعتلي سماءها، ظلَّ أهلُ القرية يبحثون عن الأمان في صدرالحزن .. وفي الخرافات!

قريتُنا تلاشت؛ لأنَّها لم تدركْ هدفًا لها غير البقاء...!!

– هياء: هي مثلَّث الفقر والمرض والجهل...!!

قاطعهم خالدٌ: يبدو أنَّ الجرَّافاتِ وصلتْ إلى هنا، واقتلعت النخيل والأشجار.

خرجوا من بوَّابة القرية المتهدِّمة التفتت الخالة وقالت: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين) سلِّموا على الموتى يا عيالي.

في هذه المقبرةِ دُفِنت فيها والدتي، وكلُّ الأجداد إلَّا والدي وأختي شيخة وأختي نورة التي دفنت هناك في البعيد، ولم أكنْ حولها، وأجهشت بالبكاء..!!

الله يرحمهم جميعًا .

لفتَ انتباهَ هياء بعضُ الزهر البرِّي، فغالبت إجهاشها بالبكاء،

ولاذت بالصمت، وطيب والدتها شيخة، الباسم يتراءى بين الزُّهيرات اليابسة.

عادوا من رحلتهم، وهياء تفكِّر بذلك العالم الصغير المسكون بالأحاجي والأسرار والخوف والفقر ...ما أصبرَ أولئك الناسَ..!!

وجوه مرتحلة
يبدو أنَّ الحبَّ لا يُباع إلَّا في مكتبات الأحلام
(١٨)

غالبـًا مـا كان جمـال يتأمَّـل نفسَـهُ في المـرآة بحثـًا عـن ملامـح وجـه أبيـه، يواصـل تأمُّـل نفسـه بـكلِّ جـرأةٍ وتمعُّـنٍ لعلَّـه يجـد ماضيـه وأصولـه، لديـه الكثيـرُ مـن الأسـئلة الهائجـة يصعـب عليـه ابتلاعُهـا، حملهـا منـذُ طفولتـه وهاهـي تطفـو علـى بحيـرة حياتـه وأوجاعـه في أحـد أيَّامـه السـعيدة التـي لا تتكـرَّر دلـف إلـى مكتبـه فوجـد بانتظـاره فتـاةً سـمراء جميلـةً، لهـا ملامـح لا تينيَّـة وتفـوح منهـا رائحـة عطـرٍ شـرقيٍّ، ترتـدي نظَّـارةً بإطـارٍ ذهبـيٍّ، وتلـفُّ نفسـها بعبـاءةٍ مكحَّلـةٍ باللَّـون البيـج، كانـت منكمشـةً علـى نفسـها والقلـق بـادٍ علـى وجههـا.

رفع صوتَهُ حتَّى تنتبهَ لمجيئه:

– السلام عليكم.

– وبصوتٍ خافتٍ ردَّت: وعليكم السلام.

استقرَّ وراء مكتبه، وكانت تجلس بالجهة المقابلة له.

– مَن أنتِ، وكيف أستطيع أنْ أخدمكِ ؟

– أنـا منـى هـادي، مـن شـركة بينـال (PENAL)،أرغـب بالتعريـف بشـركتنا والتعـاون معكـم.

ارتبـك قليـلاً؛ فهـو لـم يعتـدْ علـى زيـارة النسـاء وحضورهـن في مكتبـه، لكنَّـه تجاهـل مشـاعره العدوانيَّـة .

و طلـب منهـا أنْ تشـرحَ طبيعـة عمـل شـركتهم، أحسَّـت بليونتـه معهـا، فاسـتلمت دفَّـة الحديـث، وبـدأت تـروِّج لشـركتها، وفي النهايـة قدَّمـت لـه بطاقـةً (Business card) مكتـوبٌ عليهـا اسـمُها، ورقـمُ هاتفهـا.

قبـض علـى الورقـة بإحـكام حتَّـى أنَّـه لـم يضعْهـا علـى الطاولـة، بـل وضعهـا في جيبـه، كانـت تنظـر إلـى تعابيـره جيِّـدًا، فهـي تنتظـر ملمحًـا يطمئنهـا علـى مـا جـاءت مـن أجلـه.

خرجت منتصرةً، وهي على يقينٍ أنَّه سيتَّصل بها، وفعلًا بعد يومين اتَّصل بها وطلب منها إرسالَ أوراقٍ عن شركتهم لرفعها للإدارة.

أظهرتْ له الكثيرَ من القبول والسعادة بهذه المكالمةِ غير المتوقَّعة، أحسَّ جمال بنشوةٍ غريبةٍ؛ فهو لا يريد أنْ يغلقَ الهاتف، وبعد انتهاء المكالمة أرسلت له رسالةً على هاتفه تشكره بكلماتٍ رقيقةٍ عذبةٍ.

بدأ يتَّصل بها كلَّ يومٍ يتحدَّث معها في أيِّ شيءٍ، وعن كلِّ شيءٍ، شعر بشيءٍ من الارتياح كلَّما تحدَّث معها، ولكن ينقصه التجربة في التعامل مع الأنثى، فلم يتعاملْ في حياته إلَّا مع جدَّته أمينة وخطيبته أمل.

مرَّت ستَّةُ أشهرٍ على بدء علاقتهما، وخلال هذه المدَّةِ كان قد تزوَّج من أمل ..

كانت تصوِّر له أنَّها مسؤولةٌ عن إخوتها الأيتام، فوالدها رحل عن هذه الدنيا وتركها ضحيَّةً لديونه، ولتربية إخوتها، ومع أنَّ جمالًا لا يحبُّ إنفاق المال إلَّا أنَّه كان يتعاطف معها، ويلحُّ لإرسال بعض المال لها.

كانت تتحدث عن إخوتها بكل حنان وعاطفة .. فيلين معها كثيرا!

ذات يومٍ و في الساعة السادسة مساء، كان جمالٌ مندسًّا في سيَّارته ومتوقِّفًا في شارعٍ جانبيٍّ، غالبًا ما يأتي إلى هنا ويتوقَّف عند لوحة ممنوع الوقوف، ويحاول إيجاد حلولٍ لمشكلاته في هذا الشارع الخافت الإضاءة.

« إنَّه شارعٌ يشبهني، طويلٌ وضيِّقٌ يشبه حياتي، توقَّفتُ حائراً أفكِّر بها، ومباشرةً اتَّصلت بها و طلبتُ منها أنْ تحدِّثَني عن والدها المتوفّى، فانا أشعر بالحاجة للحديث معها..!!

« تلعثمتُ قليلًا فقد أيقظتُها من النوم، ولكنَّها أخذت نفسًا عميقًا مع تنهيدةٍ موجعةٍ، وجاء صوتُها رقيقًا أكثر من المعتاد خُيِّل إليَّ أنَّه عطرٌ يتدفَّق».

زفرتْ بحنانٍ وقالتْ:

أنت تعود بذاكرتي إلى طفولتي قبل أكثر من عشرين عامًا، أتذكَّر جيِّداً ملامح والدي في شبابه كانت عيناه مدهونتين بلونٍ كالعسل،كان حنطيَّ اللَّون مشربًا بحمرةٍ، عريضَ الشِّفاه يغطِّيها شاربٌ بنيٌّ داكنٌ جميلٌ يصبغه على الدوام باللَّون الأسود، رجلٌ منسجمٌ مع الحياة، لم يكنْ يسيطر عليه هوسُ الإيمان بالذات، وبكلِّ ما يقوله، كان مرنًا حدَّ اللِّيونة، ولم يكنْ ينحني ليلتقطَ ما تساقط منه من متع الحياة، كان لجسدِهِ رائحةُ الزعتر البريِّ الذي تعشقه نحلةُ الجبل.

حتَّى الآن لم أستطعْ أنْ أجدَ رجلًا أحبُّه مثل أبي، وأنا معجونةٌ داخل تلك الأحاسيسِ الملتصقةِ بقلبي كالعسل، تتحوَّل روحي إلى نايٍ، وجسدي يعزفُ مقطوعةً موسيقيَّةً تشبه موسيقى موتسارت، أو بيتهوفن كلَّما تحدَّثت عن والدي، كنتُ أحبُّ أبي إلى درجة الجنون، كان يسيطر عليَّ هاجسُ أنْ يخرجَ من البيت، وأنْ لا أراه مرَّةً أخرى، أصحو معه في الصباح قبل أنْ يذهبَ إلى عمله أمسكُ بيدِهِ وأقبِّلُه، وقبل أنْ يذهبَ كنتُ أشتاق له:

أذكر مرَّةً قصصتُ خصلةً من شعره، وخبَّأتها في صندوق ذكرياتي، وكنتُ لا أنام إلَّا وقطعة من ثيابه تغطِّي وجهي، كان حبًّا مجنونًا، ولكنَّه لذيذٌ يسقي الحواس،ويعوِّد النفس على الرقَّة، وتقديرِ المشاعر، كنتُ أتساءل لو لم أحبّ أبي إلى هذه الدرجةِ، هل كانت مشاعري ستتغيَّر عندما أكبر؟

وهل هذه المشاعرُ العذبةُ المجنونةُ هي السبب في إضعاف روحي الآن؟

والدي في نظري لم يمتْ، وروحه الشابَّة تسقيني تفاؤلًا وحبًّا للحياة، أستمدُّ طاقتي الروحيَّة منه، كنتُ على الدوام أبحث عن معنى للأشياء التي لا أشمُّ رائحة الحبِّ تظهر منها.

والدي هو الأخ الوحيد غيرُ الشقيق لأخٍ وأربعِ أخواتٍ من والده، لم يكنْ مرحِّبًا به بين إخوته، ولكنَّهم كانَوا يجاملون جدِّي(ناصر)، حيث تُوفّيت جدَّتي وهي تلد والدي، ولم يكنْ أمام جدِّي إلَّا أنْ يتزوَّجَ ويبحثَ عن أمٍّ جديدةٍ لوالدي، تزوَّج امرأةً طيِّبةً اعتنتْ بوالدي وأنجبت من جدِّي، إلَّا أنَّ إخوةَ والدي غير الأشقاء كانوا لا يحبُّون والدي ويغارون منه، على الرغم من أنَّه الكبير، وكأنَّ بينهم حاجزًا عظيمًا من العداوة التي يخالطها حسدٌ.

جدِّي كان ميسورَ الحال وعند وفاته استولى عمِّي وعمَّاتي على كلِّ شيءٍ يمكله، وقاطعوا والدي، وكلُّ هذا بسبب المال.

أعتقد بأنَّ المالَ هو الوسيلة الوحيدة التي تفسد القلوب، هو مَن أفسد بين أبي وإخوته، وجعل الحقد يطفو في أرواحهم، فجوةٌ صنعها المال في نفوسهم فاقت حجم شرخٍ كبيرٍ في الأرض بسبب زلزالٍ، نعم المال ضروريٌّ في الحياة لتوسيع نطاق اختياراتنا، ولكنَّه ليس كلَّ شيءٍ في الحياة، فلسفة المال أجدها مفرطةً عند مَن تمركز حول ذاته، مَن لا يرتاح إلَّا عندما يصل إلى نقطة التعادل التي يتساوى فيها حبُّ العائلة وحبُّ المال، أجدها عند مَن يقرن قيمتك كإنسانٍ بحجم ما تملك ... هي لغةٌ ركيكةٌ لفهم الإنسان.

استطردتْ منى وفي صوتها الكثيرُ من الحزن الدفين قائلةً:

في هذا الزمنِ المادي اندهش وسط مشاهد الدنيا العجيبة وغرائبها المتلاحقة من أنْ يكونَ الإنسان هو القيمة، وجوهر

الإنسان هو الحب، عند بعضهم «خفت صوتُها وبدأتْ تبكي حزنها المتواري بشكلٍ شفيفٍ».

قلت في نفسي:

«ليتني بجانبها الآن لتنثرَ كلَّ همومها على صدري، معها أحسُّ بأنَّني رجلٌ مختلفٌ. أصبحت لينا هادئةً، هي جرعة السعادة اليوميَّة بالنسبة لي»

قلت لها: يبدو أنَّ طفولتَك بالنسبة لطفولتي كانت سعيدةً جدًّا جدًّا .. لو علمت عن تاريخي الجافِّ المتصحرِ والذي لم أعرفْ فيه نموذجًا للأب.

« صمتتْ مني وهي تترقَّب بهدوءٍ شخصاً كان ينتظر هذه اللَّحظةَ».

أكمل جمال حديثَهُ:

كنتُ أشعر بالنقص في المدرسة كلَّما رأيت أصدقائي مع آبائهم يتشابكون الأصابع ويمضون، لم يكنْ يسأل عنِّي في المدرسة إلَّا جدَّتي وكنتُ أخجل منها ومن لهجتها الغريبة بالنسبة للطلاب.

كانوا يُعيِّرونني بها وبأنَّني أجنبيٌّ على الرغم من أنَّني مثلُهم وابنُ جلدتهم لكنَّ القدرَ كان له معي هذا المسارُ الغرائبي الحزين، ولذلك ابتعدتُ عنهم، وأصبحتُ وحيدًا غاضبًا، هل تعلمين ما معنى أنْ ينشأَ طفلٌ غاضبًا؟

أشعر بالمرارة؛ لأنِّي ولدت وليس لي أب، ولا أملك جنسيَّة بلدي، والدي هرب بعد أنْ حملت بي أمِّي .. جدَّتي حاولت أنْ تقنعَني أنَّه لم يهربْ، فهو رجلٌ طيِّبٌ سافر ليعودَ، لكنَّ القدرَ كان له بالمرصاد فتُوفّي بحادث سير، ولكنَّ الرجلَ الطيّبَ لا يترك أبناءَه عرضةً للفقر والضياع، لا أستطيعُ أنْ أغفرَ له.

تقول جدَّتي:

جاء والدُك من بلده البعيد، فبهرتْه المدنية والصخب، والتقى بأمِّك في المستشفى، أعجبتْه كثيراً، وخطبها فوراً، تزوَّجا بعد شهرين، مرَّت الأيام وجاءته رسالةٌ من بلده تخبره أنَّ والدتَه مريضةٌ، كانت والدتُك حاملًا بك في شهرها السادس، غادر والدُك إلى بلده ولم يعدْ بعدها .. ولمَّا سألت عنه عرفت بوفاته في حادثٍ مشؤوم

«تغيَّرت درجة صوته وأحس بالضيق واستأذنها؛ لينهي المكالمة»....!

وظلَّ واقفًا في مكانه يفكِّر بنفسه.

أنا رجلٌ بائسٌ وسيِّئٌ ومتطلِّبٌ جدًّا، ولا أكتفي أبدًا من كلِّ شيءٍ، أحسَّ أنَّ لدي أحقيَّةً في كلِّ شيءٍ في هذه الحياةِ التي سلبتني كلَّ طفولتي، ولم تسمحْ لي بأنْ أكونَ إنسانًا عاديًّا.

أنا مشتَّتٌ و متناقضٌ، هناك بعضُ الجروح لا يستطيع الزمن مداواتَها، ستبقى معي للأبد . أعلم بأنَّ النهاياتِ محتومةٌ، وبما أنَّني لم أخترْ بدايتي؛ فلذلك يجب عليَّ أنْ أغيِّرَ النهاية في حياتي.

وسوف أبدأ من زواجي الذي تورَّطت فيه من إنسانةٍ لا أعرفها ويوم عرفتها لم أحبّها.

كثيرةٌ أسبابُ الاختلاف بيني وبين أمل، فقد مضى على زواجنا الآن عدَّة أشهرٍ وأنا الذي لم أكنْ مستوعبًا لفكرة الزواج ولا مستعدًّا لها، أبحث عن أيَّة زلَّةٍ لأمل حتَّى أوبِّخَها وأقلِّلَ من شأنها و أتجادلَ معها، وأكبر نقطة خلافٍ بيننا هي المال، غالبًا ما أتشاجر معها حول مالها، وأحقيَّتي فيه فهي تخرج من الصباح للظهر ويجب أنْ تعوِّض غيابها عن منزل الزوجيَّة وتحسب حسابها لذلك ...!!

أعترف أنَّ أمل كائنٌ غريبٌ لا أستطيع التوافق معه، ولكنَّها تلبِّي لي كلَّ رغباتي وتلين معي في كلِّ شيءٍ ماعدا موضوع المال،

والمزعج أنَّني لا أحسُّ بانسجام معها مثل انسجامي مع منى.!

بدأ يفكِّر جديًّا بزواجه الغريب الكئيب هذا، وأكبر كآبات الزواج هو أنْ يكونَ زواجًا شكليًّا ظاهريًّا بينما يسيطر بين الزوجين الانفصال النفسي.

وهذا ما كان!

بعد أوَّل شهرٍ على زواجنا، بدأتُ أنام بمفردي بحجَّة التعب والإرهاق في العمل، فعملي يتطلَّب وجودي من الصباح حتَّى المساء، الحقيقة أنَّني أحبُّ أنْ أنامَ وحيدًا؛ لأنِّي معتادٌ على الوحدة، وحتَّى الآن لم أتأقلمْ مع الزواج.

وأمل لم تعترضْ وهذا لم يقلقْني .. أرادتْ أنْ تتركَني على راحتي .... وبدأتُ أتساءل أيُعقل أنَّها لا تحبُّني؟ أين غيرةُ الزوجات التي يتحدثون عنها؟

من المؤكَّد أنَّ حياتَنا القصيرة معًا صامتةٌ، ولا يُوجد بيننا أيُّ شيءٍ مشتركٍ، أتوجَّس أحيانًا من نظراتها، دائمًا ما تنظر إليَّ نظرةً فيها سؤالٌ وعتبٌ.

في الحياة الزوجيَّة هناك قواعدُ وأسسٌ تنتظم تلقائيًّا وحدها وتدعم استمراريَّة الزواج حتَّى لو غابت مقوِّماتٌ أخرى كثيرةٌ، و لا يُمكن تفسيرُ ذلك.

مع أمل لم توجدْ تلك القواعدُ أبدًا!

غرفة مجاورة

(١٩)

في أحد صباحات الجمعة، وعند الساعة الثامنة دخل جمال إلى غرفة النوم؛ ليبدِّلَ ملابسه، فوجد أمل متَّكئةً على أريكةٍ في الزاوية وكأنَّها كانت بانتظاره.

نظرت إليه بشكل حادٍّ، وكانت هذه النظرةُ تجزعُه، فارتدَّ نظرُهُ إلى أعلى، كانَ مضطربًا وتغطِّي وجهه هالةٌ من السواد، فيها الكثيرُ من الغضب الممزوج بالتشاؤم.

تناول فنجان قهوةٍ كانت تتركه له أمل على الطاولة كلَّ صباحٍ... وبعد لحظاتٍ كسر حاجز الصمت ونطق بصوتٍ مخنوقٍ:

- أمل.

- خير أنتِ تعرفين بأنَّني اتَّخذتُ قرارًا لا رجعةَ فيه، يتعلَّق بدخلنا المشترك كأسرةٍ يُفترض فيها التعاونُ والتعاضدُ.

- أعرف ذلك.

وأضاف بعدما شرب فنجان القهوة الذي بيده عن آخره:

- وتعلمين أنَّني تزوَّجتُكِ بناءً على رغبة أمِّي، ومن البداية اتَّفقنا أنْ دخْلَنا من المال مشتركٌ، و أمره بيدي لأنَّني رجلُ البيت. أنا و أنت اختلفنا كثيرًا على هذه النقطةِ .

«لاحظت أمل أنَّ العرقَ بدا ينضح من مناطق التعرُّق لديه، يكافح ليخفيَ ما بداخله و حدسها الأنثوي لا يمكن أنْ يخطئَ».

ردَّت أمل بصوتٍ فيه استهزاءٌ :

- ولكن لاتهمُّني مشاعرُك، إنّما يهمُّني مالي الذي ستأخذه منِّي .. أين سيذهب؟

- مالي !!... هههه وأين سيذهب ؟ ولِمَ تعتبرينه مالَكِ وحدكِ؟

تنهَّدتْ أمل: ولكن لا يحقُّ لك أنْ تسحبَ كلَّ الرصيد، أرى أنَّ المالَ دخلي ودخلك مناصفةً بيننا، بإمكانك سحبُ حصَّتك فقط.

ساد صمتٌ طويلٌ، وبنبرةٍ خافتةٍ غاضبةٍ قالت أمل:

– هذا تعبي وقد جمعته طوال السنين الماضية، والآن تأخذه منِّي بكلِّ سهولةٍ أنت تحلم.

لتسع سنواتٍ خلت كانت أملُ تجمع مالَها، ولم تكنْ مثلَ بقيَّة النساء تصرفه على الزينة والملابس والمجوهرات والعطور، حيث تدور حياتها حول السيطرة وكيفيَّة التحكُّم بمن حولها.

خرج جمال من الغرفة وهو يقول: الكلام معك ضايع.. ضايع.

وأقفل الباب وراءه بشدَّةٍ كتعبيرٍ عن الغضب.

وقفت أمل وقفة الملدوغ واستدارت ناحية المرآة وبقيت شاخصةً لعدَّة ثوانٍ تتأمَّلُ نفسها بالمرآة، كانت هذه آخرَ أيَّام الصيف، والطقسُ جافٌّ، والنوافذُ مسدلةٌ ستائرُها، والجدَّة أمينة تغنِّي وصوتُها عالٍ وهي تفتح الستائر والنوافذ، و لا تعلم ما يدور بين جمال وزوجته ..ربَّما لو علمتْ لكان لها موقفٌ آخرُ ضدَّ جمال .

خرجتْ أمل من غرفتها ،وإذا بجمال يجلس في الصالة يشاهد التلفاز ويبدو عليه التوتُّر، زاده شعورُهُ بألمٍ في معدته كما يحصل له عادةً في لحظات القلق والضيق ولم يجدِ التهامُ الحبوب، ولم يجعلْه يرتاح.

لم يخطرْ ببال جمال أنَّ حياتَه ربَّما تتغيَّر، وربَّما هو أيضاً يتغيَّر.

فجأةً رنَّ هاتفُه وعندما نظر إلى الشاشة ارتبك وقفز وضغط زرَّ عدم الرفض و خرج مسرعًا وهو يبحث عن مفاتيح السيَّارة

في جيبه، فالسيَّارة مكانُه المفضَّل للحديث مع منى، تساقطت مفاتيحُه وبعضُ الأوراق من جيبه، وعندما ركب السيَّارة أمسك بهاتفه وضغط رقمها فقد كان يسمِّيها (محمد).

رنَّ هاتفُها وهو يترقَّب صوتَها .. وعندما أجابتْ:

بادرها: ما رأيكِ أنْ نتقابلَ في أحد المقاهي العائليَّة؟

مع أنَّه يخاف من هذه الفكرةِ عادةً، إلَّا أنَّ رغبتَه بلقائها كانت أشدَّ من نزعة الخوف، تردَّدت قليلًا، ثمَّ وافقت و رتَّبتْ موعدًا للِّقاء في مقهى النرجس في أحد الفنادق الكبرى.

حضر قبل الموعد بربع ساعةٍ يحمل لها هديَّةً عبارةً عن عطرٍ لم ينتقه بعنايةٍ، فقد دخل إلى محلِّ عطورٍ قريبٍ من منزله، وسأل البائع عن أفضل العطور النسائيَّة ونصحه البائعُ بعطر(شانيل) الجديد، اشتراه مُكرهًا بعد أنْ أخذ وقتًا في المفاصلة على السعر، دخل للمقهى متظاهرًا بالثقة، عُقدُ جمال كثيرةٌ، على الرغم من اعتقاده بأنَّه مختلفٌ ومميَّزٌ عن باقي الرجال، خاتله سؤالٌ سريعٌ لماذا لم أحضر أيَّة هديَّةٍ لأمل منذ زواجنا ...؟

استقرَّ على طاولةٍ في المقهى وطلب من النادل أنْ يخبرَه إنْ كان يُوجد مكانٌ منزوٍ فيه خصوصيَّة، فدلَّه النادلُ على طاولةٍ في ردهةٍ منعزلةٍ في آخرِ المقهى. فجلس جمال وانتظرها لمدَّة ساعةٍ غير أنَّها لم تأتِ، فاتَّصل بها ولكنَّ هاتفَها مغلقٌ في البداية بدا عليه القلقُ والانزعاجُ، ولكن ما لبث أنْ أحسَّ بالخديعة والخيانة أكملَ قهوته حتَّى آخرها، وتناول المنديل من على الطاولة ومسح فمه وأسنانه من بقايا القهوة التركيَّة، ورمى بالمنديل على الطاولة بغضبٍ ورحل.

لم يجدْ أيَّ تفسيرٍ لفعلتها، وأخذ الحقدُ يتعالى في نفسه وكأنَّها صفعتْهُ بهذا الموقفِ.

بـدأ هـذا الموقـفُ يتصاعـد في نفسـه، و يتَّخـذ شـكل الكرامـة، وبـدأت تعلـو داخلـة رغبـة الانتقـام للـذات. ركـب سـيَّارته ورأسـه يـكادُ ينفجـر مـن الغضـب، و تمتـم بينـه وبيـن نفسـه مـا كانـت جدَّتُـهُ تـردِّده دائمـاً (الصمـت جميـل وهـو غطـاء لا يفضـح الجهـل ولا الغضـب) نطـق بصـوتٍ عـالٍ: ومَـنْ هـي حتَّـى أغضـبَ مـن أجلهـا؟

أدار صـوت المذيـاع علـى إحـدى إذاعـات ال FM وكانـت تصـدح بأغنيـةٍ للمطربـة ماجـدة الرومـي، وبـدأ يقـود سـيَّارته بسـرعةٍ مجنونـةٍ.

جمـال كباقـي الرجـال لا يحتمـل الخسـارة، اتَّجـه نحـو ذلـك الشـارع الـذي كلَّمـا أصابتْـه ضائقـةٌ ذهـب إليـه ومكـث في سـيَّارته وبـدأ يلَـوم الكـون كعادتـه، توقَّـف وأشـعل سـيجارةً وبـدأ ينفـث دخانهـا بعصبيَّـةٍ تامَّـةٍ، وفجـأةً وإذا بامـرأةٍ متسـوِّلةٍ مدجَّجـةٍ بالسـواد تحمـل طفـلاً بيـن ذراعيهـا تطـرق نافـذة السـيَّارة تريـد أنْ يعطيَهـا شـيئًا لله كمـا تقـول، أشـار بأصبعـه بالنهـي، ولكـنَّ طرقاتِهـا علـى النافـذة ازدادتْ فاسـتفزَّتْه، وإذا بـه يفتـح النافـذة بسـرعةٍ ويشـتمها بـكلِّ قسـوةٍ وكأنَّـه ينتقـم مـن كلِّ نسـاء الكـون بهـذه المـرأةِ المسـكينةِ، كان يناديها(يـا شـحاذة ....الـخ) لـم يحسّ بنفسـه وهـو ينهرهـا ويشـتمها بأبشـع الألفـاظ.

هربت المتسوِّلة من أمامه بسرعة البرق.

بقي هو يرعد ويزبد كعادته الهوجاء، ولكن هذه المرَّة كانت مُرّةً.

نظر إلى نفسه في مرآة السيارة وقال:

بعـض الأشـخاص يأخـذون منَّـا ماعـزّ وخفـي، ويبـدو هـذه المـرَّة أنَّـه لـم يعـدْ هنـاك متَّسـعٌ لأحـدٍ في قلبـي.

هـذا هـو أنـا .... كلَّمـا اكتمـل نصـاب الأشـياء في قلبـي أعـود مـن حيـثُ أتيـت.

ثمَّ فتح زجاج النافذة، وتنفَّس بعمقٍ قائلاً:

كان جُلُّ مطالبي في الحياة هو البحثُ عن صيغةٍ سهلةٍ تستجيب لتلويحات أمنياتي.

بعض الأحداث في الحياة مثلُ الأجواء الباردة، تصيبني بالخدَر ولا تعرف لماذا؟

حتَّى كوب كبير من القهوة، أو علبة سجائر كاملة، لا تستطيع أنْ تنتشلَني من الخدر والإحباط الذي وقعت فيه، الحلُّ أنْ أذهبَ للمنزل لأنامَ، ولن أتجادلَ مع أمل هذه اللَّيلة، هكذا قرَّر جمال مستسلمًا لليأس.

كانت الأيَّامُ تسير كالسلحفاة على جمال وهو ينتظر تفسيراً من منى عمَّا حصل، ولكنَّ كرامتَه كانت تأبى أنْ يتَّصلَ بها، أو يسألَها لماذا فعلت ذلك.

بعد أسبوعٍ اتَّصلت منى وكانت غاضبةً جدًّا منه.

سألها: ما بكِ ؟ ولماذا لم تحضري للموعد كما اتَّفقنا؟

كان يتحدَّث معها بصوتٍ هادئٍ على الرغم من حنقه وارتيابه.. لم يردْ أنْ يفقدَ بصيص النور الذي مثَّلتْه له ..!!

انفجرت منى باكيةً: أنت متزوِّجٌ، أنت متزوِّجٌ ...لماذا لم تخبرني، ولم تلمح لي حتى ؟ ماذا تراني، تلهو بي فقط وقتَ فراغك، الآن فهمت تغيُّبك في اللَّيل، وعدم ردِّك على مكالماتي، وعندما تخرج من عملك كنت تتحجَّجَ بوجود جدَّتك بجانبك، أيُّها الكذَّاب الكبير، كانت منى تبكي بحرقةٍ.

في الحقيقة هو لم يكنْ ينوي إخبارَها عن زوجته أمل والتي تزوَّجها فقط إرضاءً لجدَّته، لم ينوِ إخبارَها عن زواجه الكئيب..!

ولكنَّه استغرب جدًّا من موقف منى، وكيف عرفت بكونه متزوِّجًا، وضحك في سرِّه ساخرًا .. هو يشعر بالاستحقاق دائمًا،

ومن حقِّه أنْ يعرفَ امرأةً أخرى غير زوجته، والشرعُ بجانبه، مع أنَّه غيرُ متديِّنٍ إلَّا أنَّه يلوِّح بسلاح الدين، فقط من أجل أنْ يبرِّرَ لنفسه تصرُّفاتِهِ ورغباتِهِ، ونظرته لنفسه كرجل مكافحٍ عزَّزتْ لديه من كونه إنسانًا لا يُخدش، ولا يُسأل عمَّا يفعل.

توقَّفتْ منى عن البكاء وأخذت نفسًا عميقًا وتحدَّثت بنبرة المكسور:

– يبدو أنَّ الحبَّ بالنسبة لك مثلُ قضاء أمسيَّة للعب الورق، أو الشطرنج أو كمشاهدة فيلم مشوِّقٍ، ولمَّا تنتهي المتعة ينتهي شأن الاهتمام بالمصدر بحثًا عن متعةٍ أخرى.

حاول جمال مقاطعتَها، ولكنَّها أكملتْ حديثها وكأنَّها لم تسمعْه.

– الحبُّ بالنسبة لي مثلُ الرموز الجالبة للحظِّ أؤمن به وبشدَّةٍ، ولا أتوهَّج وأصبح كشعاع القمر الذي يجتاز حوافَّ السماء إلَّا به.

جرِّبْ أنْ تعيشَ بلا حبٍّ ستصبح ابتسامتُك آليَّةً، وروحُك مثلُ رسالةٍ جادَّةٍ تحمل خبر الموت لأعزِّ أصدقائك، وتصبح الحياةُ شاقَّةً وكأنَّك تحاول رفع حجرٍ يزنُ مئتي كيلو ... هههها... يبدو أنَّك عشتَ حياتك بلا حبٍّ.

«استفزَّتْه ضحكتُها المسكونةُ بالقهر، ولكنَّه تحكَّم بأعصابه وصمتَ».

أكملتْ حديثها الهازئ:

– لا يغرنَّك ما يظهر منِّي من لطفٍ ورقَّةٍ، لو سلطت عليّ عدسةَ مكَبِّرةٍ لما رغبتُ أنْ تقتربَ منِّي مرَّةً أخرى.

واستطردتْ في حديثها متسائلةً:

ما معنى إقامة علاقةٍ بدون ثقةٍ .. علاقة مبنيَّة على الكذب ؟
ردَّ جمال بسرعةٍ: أنا لم أكذبْ ..!!
ضحكتْ منى هذه المرَّةَ بصوتٍ عالٍ، وهي تقول: ستَّة أشهرٍ ولم تخبرني بزواجك أليس هذا كذبًا؟ أم تراك نسيت أمر زواجك، إنَّني أشفق على زوجتك المسكينة هي فعلًا مسكينةٌ ومغفَّلةٌ أنْ تزوَّجتْ رجلاً مثلك يجيد التلاعب.
يبدو أنَّك لا تعي معنى الحبِّ، الحبُّ ليس وعدًا لم ينجزْ، وليس الأبجديَّةَ المستحيلةَ، ضيِّقةٌ هي الدنيا وبائسةٌ عندما لا تمنحنا فرصةً للعبور للآخر بلا ضبابيَّةٍ إلَّا من خلال الحبِّ.
«وبقدر ما أحببتكَ .. بقدر ما أحتقركَ الآن».
دوَّت كلماتُها الأخيرةُ بمسمعه كطلقات الرصاص ..أنهت المكالمة ويبدو أنَّه لم يسمعْها وهي تقولُ له: لا تتصلْ بي مرَّةً أخرى، شعر بالشفقة والغضب في آنٍ واحدٍ على نفسه، وكبرت مساحة الإحساس بإهانة رجولته، فبعض الرجال إذا لم يصبح عاشقًا جيِّدًا تحوَّل إلى حاقدٍ جيِّدٍ.
«أحسَّ بحريقٍ في صدره ودهمتْه ألآم المعدة كعادة كلِّ تأزُّم يواجهه، وضغطته كلماتُها وكأنَّها جمعتْ له كلَّ آلام الحياة دفعةً واحدةً وكأنَّها تخرج لسانَها له هازئةً تقول: ماذا تريد أنْ تفعلَ الآن»؟
في تلك اللَّحظاتِ خطرت في باله أمل ...هو لا يعلم لماذا فكَّر بها في هذه اللَّحظاتِ الصعبة، فكَّر بها وهو لا يحسُّ بالكراهية تجاهها كالعادة، ربَّما أشفق عليها منه، وبكلِّ إصرارٍ تمتم مع نفسه:
سوف أمسح رقم منى من هاتفي، سأعتبرها نزوةً فعلًا، ولن تكونَ إلَّا رقمًا في ذاكرتي لا أمرُّ عليه أبداً.

«هنا عاش جمال في صراعٍ غريبٍ مع نفسه كالعادة، ولكنَّه أخفُّ حدَّةً هذه المرَّة، و ها هو يقرِّر أنْ ينسحبَ من حياتها، وكأنَّه رياضيٌّ غير محترفٍ انسحب من مسابقةٍ عالميَّةٍ لعدم وفائه بشروطها، و لعلمه بعدم وجود مكانٍ له بين الأبطال».

تلاشى هاجس أنْ تتركَه منى وتزلزلت قوَّةُ بأسه وأدرك أنَّ ما يظهره من قوَّةٍ وقدرةٍ لا يجاوز عوالمه السريَّة، أي أنَّ الحبَّ لديه يعيش في عالمٍ داخليٍّ يرفض النور، وها هي مخاوفه تصبح واقعًا عليه تحمُّله...!!

وجهاً لوجه

(٢٠)

وفي يوم الخميس السابع من أبريل، وقفت هياء أمامَ المرآة، وبعد تأمُّل دقيقٍ هزَّت كتفيها معلنةً الانتهاءَ من الزينة، لكنَّها عادت و قرَّبت وجهها قليلًا للمرآةِ و تلمَّست بشرة وجهها، لم تنتبه ! هناك ثلاث حبوبٍ تحت شفتها فتحسَّستها و أصابها ذعرٌ، وتسلَّل القلق إلى قلبها ..!

اليوم موعد تكريمي لفوزي بجائزة أفضل نشاطٍ وأفضل صفٍّ، وهذه الحبوب اللَّعينة سوف تجعلني قبيحةً وتنغِّص علي، بالتأكيد سوف تنتبه لها الحاضرات وخصوصاً الوافدات القادمات من مكتب الإشراف .. سوف يركِّزنَ أكثر عليها عندما أتحدَّث يا إلهي إنَّها كبيرةٌ وبشعةٌ!

«ههه دائماً ما تأتي الأشياء على عكس ما أخطِّط وما أريد، لكنَّها قوانينُ الطبيعة عليَّ أنْ أراقبَها فقط»...!

بهت إعجابُها بنفسها الذي كان .. فأضافت قليلًا من الكريمات والمساحيق فأحسَّت بتغيُّر الوضع قليلًا، عادت لتأمُّل شكلها وتسريحة شعرها الجديدة المختلفة، كان شعرُها قد طال منذ فترةٍ ولكنَّها كانت تسرِّحه بطريقةٍ تقليديَّةٍ و ترفعه عاليًا، ثمَّ تمسكُ به وتعقفُهُ بشكلٍ دائريٍّ غير منظَّم بمشبكٍ ذهبيٍّ كبيرٍ، واليوم شكلها مختلفٌ، حيث ذهبت في اللَّيلة السابقة إلى مصفِّفة الشعر؛ لتبتكرَ لها شيئًا يناسب شعرها. تأمَّلت أنوثتها التي قلَّما تأمَّلتها.

« يا لهذه المشاعر الرطبة! لماذا أحاول دائماً قمع أنوثتي ؟»

جلستْ على كرسيٍّ بجانب خزانة ملابسها لتلبسَ حذاءها ذا الكعب العالي وهي تفكِّر:

« ربَّما لم يفتْني قطار الزواج حتَّى الآن، جسدي لازال ينبض بالرغبة، لا بدَّ من أنْ أعيدَ النظر في حياتي؛ فأنا أشعر بالوحدة وأحتاج إلى شريكٍ، ولكنَّ الرجالَ قليلون من حولي ومختلفون في الحبِّ، لقد تعلَّمتُ أنْ لا أعطيَ مشاعري دفعةً واحدةً فبعض الرجال يصيبهم الغرور ..أو ربَّما صدمة الحبِّ فيتصرَّف بطريقةٍ غير لائقةٍ وعكسيَّة؛ لذلك لابدَّ من أنْ أكونَ حازمةً بعض الشيء فطبيعتي المتردِّدة تحرجني ولا تجعلني أفكِّر بوضوح ... !

وأثناء حديثها مع نفسها سمعت مواء قطَّتها التي باتت تشاركها بعض تفاصيل حياتها.

أفزعها صوت القطة الذي جاء مختلفًا ويشي بأنَّ حالَها ليس على ما يرام، شرعت تبحث عنها في المنزل وسط مواءٍ يأتي وينقطع، وإذا بها تجدها عالقةً تحت كنبة ثقيلةٍ في الممرِّ المؤدِّي للصالة ولا تستطيع الخروج، حرَّكت الكنبة بصعوبةٍ وقفزت القطة مذعورةً، واختفت عن نظرها، قطَّتها رماديَّةٌ غارقةٌ بالكآبة، تأكل وتنام فقط، و نادراً ما تميل للَّعب فهي كبيرةٌ في السن، عمرها سبع سنواتٍ وترفض هياء فكرة التخلُّص منها أو استبدالها بأخرى صغيرةٍ؛ لأنَّها تمثِّل لها عمرًا من الذكريات، هي هديَّةٌ من أوَّل حبٍّ لها الذي مازالت تتمسَّك ببعض تفاصيله حتَّى الآن.

عادت لتأمُّلاتها وتفكيرها: « من العبث أنْ تمرَّ بنا بعض الأحداث ونتركها تعبر هكذا، بعضها كأنَّه (رسائل القدر) و تبعث على التفاؤل أحيانًا وتحفِّز على البحث عن مكمن السرِّ في الحياة.

أحيانًا لا أعلم لماذا أحسُّ بالخجل من نفسي في مواقف بعينها أو الاستياء في مواقف أخرى!

اليوم تعود أمل للمدرسة بعد إجازةٍ امتدَّت لأكثر من ستة شهورٍ، أحسُّ بمشاعر محايدةٍ تجاهها لأوَّل مرَّةٍ، يبدو أنَّ فصلَ حكايتي مع أمل وزوجها لم ينتهِ، بقي شيءٌ واحدٌ يجب أنْ أتأكَّدَ منه .. أريد أنْ أستوضحَ مدى قرابة زوج أمل لي!

لم أعدْ أحسد أمل أو أكرهها، يكفيها كراهيَّة أغلب مَن يعرفونها خاصَّة زوجها.

ترى ماذا لو كنت مكانها ؟

مكروهة ولا أثق بمشاعر أقرب الناس لي!

تبدو الفكرةُ بشعةً جدًّا ومخيفةً..!

فأنا لا أستطيع أنْ أعيشَ حياةً مزدوجةً وناقصةً مثل أمل، فالعلاقات التي تتسبَّب في جرحي ومضايقتي مع الناس أو الزميلات سأتجنَّبها و سأسعى لتغييرها والبدء من مكانٍ آخرَ جديدٍ. بالنسبة لي هي مشاعر مثل السمِّ تسري بالجسد بسرعةٍ فائقةٍ وتقتل مَن له إحساسٌ لا محالة، ولكنِّي لا أعرف ظروف أمل وكيف تفكِّر، أو ما الذي يجعلها هكذا مع الناس؟

هل هي ماكرةٌ ومخادعةٌ ومغرورةٌ فعلًا ؟

أم أنَّها من النساء المسكينات المهزومات بلا أسلحةٍ، وما وضعُها إلَّا ردَّة فعل مضادَّةٌ وانتقاميَّةٌ من الحياة؟

«يا إلهي لا أعلم لماذا هذا العالم مُرٌّ ومحشوٌّ بالهزائم والانكسارات».

ربَّما تحبُّ زوجها، على الرغم من كلِّ ما في شخصيَّتها، ربَّما حياتها معه يسودها الاستقرار .. أرجو ذلك .. فأنا لا أكره الخير لأحدٍ.

و التآلف مع الواقع ممكنٌ!

لا أعـرف مَـن يكـون زوجُهـا بالنسـبة لـي، ولا مـدى صدقهـا عندما أخبرتني أنَّها صارت قريبةً لي، ولـم أصلْ لأيِّ شيءٍ مؤكَّدٍ عـن قرابتـه المفترضـة لنـا.

لا بـدَّ مـن أنْ أتدبَّـرَ حيلـةً لأعـرفَ غيـر الحيـل اللَّاأخلاقيـة، وفي الوقـتِ ذاتِـهِ يبـدو الاحتـكاك بأمـل صعبًـا .. كـم أكـره الحديـث معهـا أو عنهـا، ناهيـك عـن سـؤالها عـن أيِّ شـيءٍ يخصُّهـا.

مـا الحلُّ ؟ .. و قـد زرع اسـم زوجهـا في نفسـي إحساسًـا غريبًـا .. وفضـولًا جامحًـا منـذ أخبرتني وزاده مـا عرفته عنه بعـد ذلـك.

وكان يومًـا حافـلًا بالتكريـم والسـعادة، لـم تنغِّصْـهُ عـودةُ أمـل الباهتةُ بعـد انقطاعٍبـدت فيـه أمـل تائهـةً .. مكثـت أغلـب وقتهـا بيـن مكتبهـا ومكتـب المديـرة، ولـم تحـظ بالترحيـب مـن المعلِّمـات كمـا هـو متوقَّـعٌ !

وفي صبـاح إجـازةٍ نـديٍّ نهضـت أمـل مـن سـريرها بخفَّـةٍ ونشـاطٍ وتفـاؤلٍ، حضّـرت إفطارهـا المفضَّـل .. فطائـر الزعـتر بالجبنـة، والشـاي الإنجليـزي الثقيـل، أمسـكت بالكـوب بيدهـا اليسـرى وبفطيـرةٍ بيدهـا اليمنـى، وبـدأت تـدور في منزلهاتجوَّلـت في أرجائـه، وتمعَّنـت في قـوس المدخـل، والنوافـذ الخشـبيَّة، والبـاب الداخلـي المعـدني المزخـرف، بينمـا تنتظـر البـنَّ الـذي تفـوح رائحتُـهُ ليغلـي في الكـوفي ميكـر، بينمـا صـوت فيـروز يصـدح في الراديـو توقَّفـت عنـد سـلَّم الـدرج وهـي تهجـس: « مَـن مثلـي تجـد نفسـها وحريَّتَهـا بيـن الجـدران يـا تـرى؟

هل حقـًا العيب فيَّ أم فيه .. ؟!

جمـال شـخصٌ مـاديٌّ منغلـقٌ علـى ذاتـه، ولـم يجـد عنـدي مـا يطمـح إليـه، و لا يحمـل أفكاراً انفتاحيَّـة، رجـلٌ كئيـبٌ، لا يرتـوي من القسـوة، كيـف وثقـت بـه ؟ قسـوتُه لا عـلاجَ لهـا، وطبيعتُـهُ الصامتـة محيِّـرةٌ..!!

مؤمنةٌ أنَّنا نحن مَن نضع الحروف، ونحن مَن نكتب حبَّنا، حياتَنا، رغباتِنا، نهاياتِنا بأيدينا وليس للقدر شأنٌ بذلك؛ لذلك لن أندمَ ...!!

فجأةً رنَّ هاتفُها فانطلقت إليه وجلةً» مَن عساه يتَّصل بي الآن؟

-ألو.

- نعم.

- كيفك أمل.

- بخير عزيزتي .. أنت هياء؟

- هل أستطيع زيارتك هذا اليوم في المساء؟

تلعثمت أمل وارتبكتْ من هذا الطلبِ المفاجئ، ثمَّ قالت :

-أكيد، منورة حبيبتي بانتظارك.

وأغلقت سمَّاعة الهاتف وهي مندهشةٌ منذ متى والزميلات يسألن عنِّي أو يرغبن في زيارتي .. وهياء بالذات !!

في الواقع أمل لم تخبرْ جمال عن ظروف عملها مطلقًا، ولا عن طبيعة علاقتها بزميلاتها وهو بدوره لم يستغرب منها ذلك.

ولعلَّ انشغالَهُ بالعمل وانشغالها بحملها الذي ناهزت فيه الآن الشهرالرابع لم يتركْ مجالًا لأيِّ تساؤلٍ.

عادت أمل للتفكير بجمال: آن الأوان لإحداث هزَّةٍ عنيفةٍ لجمال، أرغب أنْ أراه يتألَّم كما أوجعني!

كان الجوُّ رطبًا، والسماء شبه غائمةٍ، والساعة تشير إلى الرابعة عصرًا وقد عاد جمال من عمله، فاستقبلتْهُ أمل على غير عادتها، وداخل عينيها لمعةٌ لئيمةٌ. استغرب جمال لكنَّه لم يعلِّق؛ لأنَّه كان منهكًا بسبب العمل ومشاكله، وبسبب انهماكه في مشروعه الجديد الذي كان حلم حياته وأخذ ليله و نهاره وما

فـاض مـن وقتـه، وعـادةً تخفـت حـدَّة مزاجـه إذا كان مرهقًـا، اتَّجـه مباشـرةً لغرفـة المكتـب وطلـب مـن أمـل إحضـار الغـداء لـه هنـاك، لـم تستغربْ أمـل بـل أحضـرت لـه الغـداء مباشـرةً وجلسـت بجانبـه، بـدأ جمـال يـأكل بسـرعةٍ كان جائعـًا جداً..وأمـل تراقبـه، تنبَّـه لهـا ونظـر إليهـا نظـرة اسـتغرابٍ وقـال لهـا بتهكُّـمٍ:

- تفضَّلي...!!

-لا شـكراً، ولكـن لـديَّ سـؤالٌ ... مـاذا لـو قلـت لـك أنَّ لـديَّ ضيوفـًا اليـوم..!!

-أمـل، أنـا متعـبٌ ومشـغولٌ لا أريـد أيَّ إزعـاجٍ .. افعلـي مـا شـئتِ..!!

انتهى مـن تنـاول الغـداء، واتجـه ناحيـة كنبـةٍ بنيَّـةٍ في الغرفـة اعتـادَ أنْ يأخـذ فوقهـا غفـوةً كلَّ يـومٍ لمـدَّة نصـف سـاعةٍ ليسـتعيدَ نشـاطه، ثـمَّ يسـتأنف عملـه، غابـت أمـل وحضـرت ومعهـا قهـوة اسبريسـو، اسـتغرب جمـال مـن حفاوتهـا بـه هـذا اليـوم مـع أنَّهـا منـذ أنْ أحسَّـت بالحمـل لـم تعـد تتجـادل معـه، بـل تنفـرد في غرفتهـا كثيـراً، وأحيانـًا إذا رجـع مـن عملـه تتظاهـر بالنـوم ولا تهتـم بـه، لكـن اليـوم الأمـرُ مختلـفٌ..!

وضعت أمل القهوة على حافَّة المكتب وقالت بشكلٍ مباشرٍ:

- اليوم ستزورنا زميلتي هياء، ولابدَّ من وجود الجدَّة أمينة.

زميلتـي هيـاء تحمـل اسـم العائلـة نفسـها الـذي تحملـه.. ربَّمـا كانـت مـن أقاربـك الذيـن بحثـت عنهـم جدَّتـك!

- ضحك جمال بتهكُّمٍ، وما شأني أنا؟!

النساء يعتقدنَ بأنَّ هذا الأمرَ عظيمٌ..!!

- فعلاً، الأمرُ عظيمٌ..!!

التفـت إليهـا بـكلِّ جسـده ورفـع يـده بإشـارةٍ إلـى أنْ تحدَّثـي مـاذا هنـاك؟

-ارتبكت أمل قليلاً ثم استجمعت قواها و تحدثت بكلِّ شجاعةٍ :

لديَّ إحساسٌ طاغ بأنَّ زميلتي في العمل هياء عبدالعزيز الصالح من أقربائك!

حملق فيها قليلًا، ثمَّ قال:

ـ هناك الكثير من الناس تتشابه أسماؤهم ..!

ـ كلَّا! ... ليس في هذه الحالة.

أثار كلامُها الواثق فضولَ جمال ... فقال:

-منذ متى تعرفينها؟

- أعرفها منذ سبع سنواتٍ انتقلتْ إلى مدرستنا وهي بتخصُّصي نفسه (لغة إنجليزيَّة) فأنا أعرفها قبل أنْ أعرفَك ... بكثيرٍ!

-هل فعلاً ستأتي لهذا الأمرِ أم لشيءٍ آخرَ؟

- لم تقلْ شيئًا ... اتَّصلت بي هذا الصباح تطلب الإذن بالمجيء.

ولديَّ شعورٌ بقرابتها لك، وشعورٌ أقوى بأنَّ سببَ زيارتها المفاجئة هو رغبتُها في التأكُّد من ذلك ... أخبرتُها أيَّام الملكة والخطوبة بأنِّي أصبحتُ قريبةً لها.. وأخبرتُها باسمِكَ واسم العائلة، كنتُ أظنُّ وقتها أنَّها فعلًا قريبتُك و تعرفك!

-حسنًا ...سوف نرى.

«خرجت أمل وتركت باب المكتب مفتوحًا وراءّها، هي لا تحبُّ الأبواب المغلقة، فالقلقُ يستبدُّ بها عند أيِّ شيءٍ مغلقٍ».

صرخ جمال أغلقي الباب، إلَّا أنَّها مضت وكأنَّها لم تسمعْه، أمل تحبُّ المناوراتِ و الاستفزاز و حرق الأعصاب هي مهنتها.

أمَّا جمال فقد أحسَّ بالاضطراب وأطرق قليلاً يفكِّر في هذا

الخبر، ولكنَّه عاد لعمله مرَّةً أخرى، إلَّا أنَّه لم يستطع التركيز... فترك عمله واتَّجه إلى غرفة جدَّته أمينة.

استأذن جدَّته مداعبًا ليدخلَ عليها، كانت على سريرها تقرأ القرآن.

فدخل عليها مبتسمًا:

- كيف أنتِ يا جدَّة، هل لازلت تدعين لي في صلواتك؟

- الله يا بني ..أكيد، أنت تشكُّ بأمِّك؟ ...أنت نور عيني يا حبيبي، و يارب يطول بعمري وأشوف حفيدي.

- قريبًا يا أمِّي ...قريبًا إن شاء الله.

لكن أنا لديَّ موضوعٌ أريد أنْ أتأكَّدَ منه منك..!

- خير يا بني فيه إيه...؟؟

- هل هناك أيُّ حقائق أخفيتيها عنِّي تتعلَّق بوالدي؟

- ولماذا تسأل؟!

أخبرها جمال عن هياء زميلة أمل وتأكيد أمل بأنَّها تعود لعائلتي نفسِها، وأنَّها متأكِّدةٌ من قرابتها لي!

اعتدلت الجدَّة في جلستها.. وعقدت حاجبيها وهي تجول بنظرها في الغرفة وكأنَّها تشاهد شريطًا سينمائيًّا أمامها، ابنتها، زواجها، ومعاناتها، وموتها، وغياب زوجها ومسؤوليَّة جمال التي تحملتها، وهجرتها به لتبحث عن أهله!

تنهَّدت بعمقٍ قائلةٍ:

لا تستعجلْ يا بني، دعْنا نقابلْها ونستمع إليها، ونبحث حقيقة الموقف ربَّما هناك لبسٌ في الموضوع ..!

حلَّ المساء وحضرت هياء، وأمل تنتظرها على أحرِّ من الجمر؛ لتعرفَ ماذا تريد وما سبب هذي الزيارةِ غير المتوقعة .. أمل تستمتع بالفُرجة على الحرائق التي تسبِّبها في العمل، ولكنَّها لا تحبُّ أنْ تعيشَ هي أي أكشن فيكفيها وضعها مع جمال!

استقبلتها أمل بحفاوة مصطنعة لم تستر ارتيابها البالغ ورحبت بها وأجلستها في صالة جانبية لها طابع شرقي ، مرتبة بعناية وجدرانها مدهونة باللون الأصفر الباهت ، جلست هياء في زاوية كنبة طويلة، و انكمشت على نفسها وقبضت على يديها بشده كانت مرتبكة، رغم خطوتها الجريئة هذه !

وضعت أمل الشاي قائلةً:

هاه يبدو أنَّني لم أسألْكِ عمَّا تفضِّلين أنْ تشربي، وقهقهت بطريقتها المستفزَّة المعتادة، فلم ترد عليها هياء بل تناولت كوب الشاي وهي صامتةٌ.

استأذنتْها أمل لتغيبَ قليلاً ... تنفَّست هياء بعمقٍ، ثمَّ نهضت واستدارت في الصالة وهي تحمل الكثير من المشاعر المختلطة، لا أعلم هل أنا مجنونةٌ، أم عاقلةٌ بهذه التصرُّفات!!

كيف لي أنْ أزورَ إنسانةً تكرهني وأنا لا أحبُّها ؟ أظنُّها تعتقد الآن أنَّني قادمةٌ لأطلبَ منها شيئًا أو لأترجَّاها!

بيتها لا يبدو بتلك الكآبةِ التي تصوَّرتُها، وقد قابلتني بترحابٍ!

«يا لهذا الأرنب الخائف في صدري ما عاد يقفز أو يلهو، إنَّه رعبٌ من نوعٍ آخر، هناك شيءٌ عالقٌ في حلقي ويأبى الخروج، لن أحكمَ عليه، لا يُمكن أنْ تحكمَ على إنسانٍ دون أنْ تعاشرَهُ معاشرةً حقيقيَّةً بعيدةً عن ظروف العمل؛ لأنَّ علاقاتِ العمل تبدأ كشراكةٍ لتلوين عالم آخر موازٍ، إمَّا أنْ تزدهرَ وتتطوَّرَ وتمتدَّ لكافَّة تفاصيل الواقع، أو أنَّها تنتكس وتضطرب وتنقطع، أو تبقى كما هي مجرَّد شراكةٍ وليس أكثر من ذلك».

مؤمنةٌ أنَّ أحداثَ الحياة ليست متشابهةً وإنْ تكرَّرتْ فيها بعض الوقائع، وعجائبيَّة الأقدار التي مرَّت عليَّ تدفعني إلى أخذ كلِّ موقفٍ يمرُّ بي بجدِّيَّةٍ .. سوف أكون قويَّةً هذا اليوم، وإنْ كانت أملُ قويَّةً، فأنا أقوى منها..!

لأوَّل مـرَّةٍ في حيـاتي يكـون فضولـي أقـوى منِّـي .. علـيَّ أنْ أكتشـفَ بـكلِّ جـرأةٍ وأن أطـرقَ البـاب في وضـح النهـار .. التلصُّـص أو التجسـس مـن بعيـدٍ ليـس لـي وليـس مـن طبعـي .. وإنْ جازفـت كثيـرًا وتماديـت فيـه!

إذا كانـت أمـل هـي المسـتحيل بالنسـبة لـي فقـد يتحقَّـق بمجيئي إليهـا المسـتحيل الـذي لـم أنتظـره!

وفي لمحة حقيقةٍ قد يصبح أيُّ شيءٍ واقعـًا...

زميلتي البغيضـة قـد تكـون زوجـةَ أحـد أقاربـي مـن جهـة والـدي أو ربَّمـا أخـي!

أفكِّـر في أبـي الـذي يطـلُّ عليَّ في الخيـال .. في أحاديثـي معـه... عاتبتُـهُ... عذرتُـهُ

لمتُهُ...سامحتُهُ!

تعلَّقـت بوهـم وجـود قريـبٍ لـي ولا بـأسَ إن كان أنانيًّـا، ومضطـرب الشـخصيَّة، لكنَّـه المسـتحيلُ الـذي قـد يتحقَّـق!

حزنـت وأنّبنـي ضميـري بشـدَّةٍ علـى مـا فعلتـه بـ (منـى هـادي) التـي لـم تكـنْ إلّا (الجوهـرة) ابنـة خالتـي موضـي، كانـت فكـرةَ تلصُّـصٍ عابـرةٍ تطـوَّرتْ لتصبحَ مصيـدةً ومكيـدةً أنثويَّـةً، ثـمَّ كشـفت عـن ملابسـاتٍ عجيبـةٍ وقصَّـة شـابٍّ يحمـل اسـمًا يشـبه اسـمي جـدًّا وعـاش حيـاةً دراميَّـةً.. لـم تهتـمّ الجوهـرةُ بتفاصيـل حيـاة جمـال التـي كانـت تحكيهـا لـي في البـدء، وكانـت تضحـك وهـي تسـرد علـيَّ قصصـهُ واغترابـه النفسـي والوجـودي ورحلـة جدَّتـه الأسـطوريَّة بـه، لـم تسـألْني عـن أيَّـةِ تفاصيـلَ تتعلَّـق بـه سـوى أنَّـه رجـلٌ وضعتـه أنثـى تحـت مجهرهـا لتعبـث و لتنتقـم لكنَّهـا عندمـا تطـوَّرت علاقتُهـا بـه بـدأت تفكِّـر في التفاصيـل!

هـل يكـون جمـال و أمـل همـا الصدمـةُ التـي سـعيتُ إليهـا برغبتـي ؟!

في لحظة رغبةٍ في التشفِّي والانتقام أو اللَّعب والفضول الأنثوي...!

لعبة كانت مقدِّمتُها مسلِّيةً جدًّا، ثمَّ أخذتْ بعدًا دراميًّا لم أتوقعْهُ!

سمعت هياء صوت جمال من بعيدٍ هي تعرف صوتَهُ، فقد كانت منى تتحدَّث معه في الهاتف غالبًا بوجود هياء وتفتح السبيكر (مكبر الصوت) .. حفظته وحفظت ردَّات فعله ووقفاته وسكناته ..!

دخلت أمل وهي تبتسمُ وتعتذرُ لغيابها.. فبادرتها هياء :

ـ لقد جئتُ هنا لأمرٍ واحدٍ.. أريد أنْ أتحقَّقَ ممَّا قلتيه لي عن قرابة زوجك العائليَّة منِّي!

وجمت أمل أو تظاهرت بذلك وتلفَّتت حولها، ثمَّ رمقت هياء و ابتسامتها الصفراء ـ التي تحفظها هياء ـ تعلو محيَّاها كمن حقَّقت نصرًا كانت تنتظرُهُ!

ـ حسنًا، سأناديه لك؛ لتتحقَّقي منه بنفسكِ، فأنا لا جوابَ عندي!

وانطلقت لتنادي جمال .. وغابت للحظاتٍ ودَّتْ هياء خلالها لو أمكنها الفرار والتراجع .. قطع تفكير هياء ومشاعرها المذعورة صوتُ تنحنح أمل ..

دخلت أملَ ووقفت في منتصف الصالة ونادت:

تفضَّلْ يا جمال .. تنحنحَ جمال وطرق حافَّة الباب .. وهياء تترقَّب ظهوره.

دخل جمال مطأطئَ الرأس وينظر للأسفل، وكأنَّه يخشى من وقوع مفاجآتٍ وجلس على كرسيٍّ مقابل لهياء و لم ينظرْ إليها.. بقي نظره للأرض!

رمقته هياء ثمَّ ركَّزتْ نظرها على الطاولة الخشبيَّة أمامها للحظاتٍ:

« هاهو أمامي أستطيع تأمُّل وجهه واستيضاح ملامحه، لونُه أبيض مشربٌ بحمرةٍ ضربتها أشعَّة الشمس، طويل القامة رشيقٌ، وجهه خالٍ من أيِّ معنى، في عينيه غموضٌ طالما وشتْ به أحاديثُهُ مع الجوهرة (منى هادي) ترك كلُّ ذلك لديَّ شعورًا بقسوته على الرغم من وسامته.

يا إلهي بدأت البرودة تسري في أطرافي وكأنَّني مدفونةٌ داخل ثلجٍ.

هل أرثي لنفسي هذا الموقفَ، أم أفرح بجرأتي وشجاعتي؟... لا أدري.

كيف أبدأ الحديث معه.. ؟! وأمل اللَّئيمة تراقبنا بصمتٍ أسطوريٍّ!

ربَّما بالغت بهذه الخطوةِ، كنتُ أحلم طوال عمري أنْ يكونَ لي أخٌ وتشبَّثت ببصيص الأمل الذي رمتْ طرفَ حبلِهِ لي البغيضةُ أمل!

وفي لحظاتٍ تجيش بالمشاعر المختلطة والاضطراب بدا صمُتنا فيها أبديًّا فلا أحدَ منَّا يعرف كيف يبدأ، ولا من أين يبدأ. عليَّ أنْ أستجمعَ قوا؛ فأنا مَن بدأ هذه المغامرةَ، وعليَّ أنْ أنهيها.. تنهَّدت هياء.

فرفع جمال رأسه ونظر ناحية هياء و إحساسه الغريب مازال يلجمه، فأستند رأسه على الكرسي وعقد يديه مشبِّكًا أصابعَهُ قرب صدره، وهو يقول أخيرًا: شرفتينا بالزيارة، لكنِّي رجلٌ مشغولٌ أريد أنْ أسمعَ ماذا لديكِ وبالإثباتات، لا أحبُّ اللَّف والدوران ولا الكلام الكثير.

ابتسمتْ هياء قائلةً: لا تخفْ سوف نجد طريقةً للنقاش دون عراقيل.

كنتُ متيقنةً أنَّني البنتُ الوحيدةُ لأبي عبدالعزيز وأمِّي شيخة، والدي أعجب بأمِّي وهو ابنُ صديق جدِّي، والدي عمل بالتجارة مع عمِّه، ثمَّ استقلَّ وبدأ يعمل بنقل الركاب من مدينةٍ إلى مدينةٍ (سواق تاكسي) لديه سيَّارته الخاصَّة، كانت والدتي تقول: إنَّه يغيب كثيراً بسبب السفر، وقبل زواجه من أمِّي كان قد غاب عن القرية أربع سنواتٍ عندما التحق بعمِّه ثمَّ عاد وتزوَّج بأمِّي، وأنجبتني والدتي في السنة الأولى من زواجهما وعندما أصبح عمري ثلاثَ سنواتٍ توفّى والدي في حادث سيرٍ، ربَّتني والدتي وكانت تحبُّه كثيراً وتمتدح أخلاقه وتسامحه.

جمال: وكيف تأكَّدتِ أنَّنا أقرباء ؟ ... لابدَّ من إثباتاتٍ.

هياء: تفضَّل هذه بطاقتي الشخصية. وناولته إيَّاها.

أخذ جمال البطاقة منها ويده ترتعش، والارتباك يهزُّ جسدَه.. نظر للبطاقة لديها اسم والده نفسُه، واسمُ جدِّه، واسمُ العائلة... لم يصدِّقْ هذا التطابقَ العجيبَ، و قال في نفسه : لابدَّ من أنَّ هناك خدعةً ما..!!

هياء: لديَّ إثباتٌ آخر، وربَّما يكون حاسمًا..!

جمال: «صرخ كمن لدغته حيَّة» وما هو؟

هياء: سمعتُ أنَّ جدَّتك هي التي ربَّتكَ، ومن المؤكَّد هي تعرف والدك.

(اتَّسعت عينا أمل وفتحت فمها مندهشةً ممَّا قالته هياء ولم تتكلَّم) جمال: صحيح.

هياء: لو سمحت أريد أنْ أتحدَّثَ مع جدَّتك.

جمال: جدَّتي مريضةٌ ولا أريد إزعاجَها.

هنا انفكَّت دهشة أمل قليلًا، وبادرتْ قائلةً: ممكن أنْ نذهبَ إليها في غرفتها هياء ليست غريبةً .!

نظر إليها جمال بحنق، ثمَّ التفت إلى هياء وقال: حسنًا إنْ كنتِ مصرَّةً هيَّا بنا إليها، ولكن دعوني أسبقكم لاستأذانِها...!

قالت أمل: حاضر.

خرج جمال للحظاتٍ، ثمَّ جاء صوته: تفضَّلوا..

دخلت هياء على الجدَّة بعد أمل، فسلَّمتْ عليها وقبَّلتْ رأسها ويدَها، وطلبتْ منها الجدَّةُ أنْ تجلسَ بجانبها على السرير.

الجدَّة أمينة: مرحبًا بك يا بنتي ... كيف حالك .. ؟

هياء: المعذرة يا خالة لا أريد إزعاجكم أو إرباككم، ولكنِّي أبحثُ عن الحقيقة، ولا أريد أكثر من هذا.

الجدَّة: حقيقة ماذا التي عندنا..!!

هياء: وإنْ حصل سوءُ تقديرٍ منِّي سوف أعتذر وأعود من حيثُ أتيت، ولكن فقط يا خالة أريد أنْ تؤكِّدي لي شيئًا، وأنا أصدِّقك..!!

الجدَّة: تفضَّلي يا بنتي.

أخرجت هياء من حقيبتها صورةً لوالدها كانت تحتفظ بها والدتُها شيخة، صورة باللَّون الأبيض والأسود لوالدها عبدالعزيز وهي مطابقةٌ لصورته الموجودة في دفتر التابعيَّة (دفتر العائلة) الذي مازالت هياء تحتفظ به.

هياء: تفضَّلي يا خالة هذه صورةُ والدي هل هو والد جمال..؟

اعتدلت الجدَّة في جلستها وبحثتْ عن نظَّارتها، لبستْها وقالت: أعطني الصورة.

هياء: تفضَّلي .

أمسكت الجدَّة بالصورة نظرت إليها مطوَّلًا، ثمَّ غطَّت وجهها بكفَّيها تبكي وانهمرت دموعُها .. عادت ونزعت نظَّارتها لتمسحَها وتجفِّفَ عينيها، ثمَّ تأمَّلت الصورة طويلًا .. والصمت والذهول يخيِّم في الغرفة.

حضنت الجدَّة الصورةَ وهي تردِّد: ألف رحمةٍ ونورٍ على روحك يا عبد العزيز ..!

صاح جمال، وكأنَّه كان يخشى صدق حدس أمل وحقيقة ما جاءت من أجله هياء: ماذا تقولين يا جدَّة؟!

واستبدَّ به غضبٌ عارمٌ، فلا يريد لأيِّ شيءٍ بُعِثَ ماضيه الذي يجاهد لدفنه!

صمت الجميع مذهولين ماعدا الجدَّة .. التي تقطَّع صوتُها بين بكاءٍ وهمهمةٍ ودعواتٍ لابنتها ولزوج ابنتها ... بينما جلس جمال مكبًّا واضعًا يده على جبهته كمن أُصيب بصدمةٍ!

مسحت الجدَّة دموعها، ونظرت إلى هياء قائلةً:

هذا عبدالعزيز زوج بنتي فعلًا وأبو جمال، ولكنِّي لا أعلم هل تزوَّج ابنتي قبل زواجه بأمِّك أم بعدها.

اقتربت هياء من الجدَّة والدموع تغطِّي عينيها ونظرت إلى جمال قائلةً بصوتٍ متحشرج: تستطيعين التأكُّد بمقارنة تاريخ ميلاد جمال وتاريخ ميلادي وناولتها دفتر العائلة الخاص بوالدها.

نظرت الجدَّة للدفتر وتأمَّلتْهُ، وقالت: معناها أنَّه تزوَّج من ابنتي بعد زواجه بوالدتك بسنتين تقريبًا!

أقدمت هياء على هذه الخطوةِ مراهنةً على الجدَّة أمينة؛ فهي الوحيدةُ القادرةُ على حسم كلِّ ما مثَّله اسم والد جمال وعائلته وقصَّته منذ ولادته من فضولٍ ومشاعرَ غريبةٍ، و قد جاءت ومعها الصورة ودفتر العائلة القديم، بدا جمال وكأنَّه لا يريد أنْ يعترفَ بها أبداً، وكان الاستياءُ من وقع الصدمة ظاهرًا على وجهه.

التفت جمال نحو هياء وهو غاضبٌ قائلاً: وماذا بعد..؟

هياء: لاشيء، لا أجد صيغةً معبِّرةً عن هذا الموقفِ.

هل تريد أنْ أنتظرَ أم أخرجَ، فأنا تأكَّدتُ ممَّا سعيتُ لأبحثَ عنه؟

جمال: انتظريني في الخارج.

«لم أستوعبْ موقف جمال الغريب، وشعرت بالخوف منه، و أحسستُ بأنَّه سيصبُّ جام غضبه من ماضيه البائس عليَّ، ولا شكَّ أنَّ ما مرَّ به سيجعل من أيِّ إنسانٍ شخصًا أقلَّ تسامحًا وصفحًا، وربَّما لا يغفر لي إقدامي بجرأةٍ متحديةً العرفَ والعادات والتقاليد اللَّعينة التي تقف أمامنا مثل سور الصين العظيم أمام الغزاة !»

« مازلت أبحث عن تفاصيل الحكاية في شفة الحياة التي تندى طراوةً عندما تقرأ البشر، يُخيَّل لي أنَّ جمال يشبه قرية أمِّي وأبي، فهو مليءٌ بالذكريات والهواجس والأساطير وأحلام الفقراء، و كالطفل الذي يلتقط أنفاسه بسرعةٍ ساعة ولادته ولا يستطيع التعبير سوى بالصراخ!

هو حال مَن يعيش في الماضي ويفكِّر بالأشياء الصغيرة، وواضحٌ أنّ جمال عالقٌ في فخِّ الماضي ولا يريد الخروج منه أو تصحيحه، هو شرهٌ في تذكُّره للماضي مثل شراهة النار في التهام الحطب !يا الله ... أريده أخًا بسيطًا يستفزُّ الحنان، ويستحوذ على صوت الأخوة بداخلي يعزِّز ترياق رجولته معي، ويكون مصلَ الوفاء ... على الرغم من كلِّ ما عرفته عن شخصيَّته، وكلِّ مخاوفي من عُقد ماضيه!

لحق جمال بهياء وترك أمل جالسةً عند جدَّته ويبدو عليه الضيق، أشار إلى هياء قائلاً :

لست بحاجةٍ إلى أختٍ ... انسي الموضوع وكأنَّ شيئًا لم يكن.

صدمت هياء من ردّة فعله: ياه ما أقساك ..!!

جمال: هذه ليست قسوةً، ولكن هذا الواقع، لا أستطيع تقبُّلك في حياتي، في الحقيقة أنا أكرهك ..مثل كرهي لأبي الذي تركني جنينًا ورحل ليعيشَ حياته الأخرى!

وقعت هذه الكلماتُ على هياء كالصاعقة.

هياء: أنت رجلٌ مخيفٌ جدًّا.

ابتسم جمال ابتسامةً هازئةً، وماذا تتوقَّعين منِّي؟

هياء: بصراحةٍ، كم تدهشني قسوتُك وجبروتُك.

جمال: مصائرُنا مختلفةٌ يا هياء، هل تعلمين لم يجب أنْ أكرهَكِ أنت كشخصٍ؟

كان نصيبُ أمِّي أنْ تكونَ مرتاحةً لا أنْ تموتَ كمدًا، وكان نصيبي أنْ أعيشَ حياةً طبيعيَّةً مثل بقيَّة أقراني .. أب وأم وعائلة..!!

اجتثَّ والدي بنزوة حياةٍ أمِّي و شبابها، وجدَّتي من جذورها وأحلامها وذكرياتها.

وهاهو العالم يزداد انطفاءً في عيني وأنا اكتشفكِ وأراكِ، حياتي الآن تشبه الغفوة من الآلام .. وكنتِ أنت الحلقةَ المفقودةَ التي عادت بي إلى حضيض الأم من جديدٍ!

ثمَّ لاذ بالجدار متَّكئًا عليه بمرفقه مطأطئَ الرأس زامًّا شفتيه كمَن يغالب الانفجار بالبكاء ..

لم تردّ هياء، واكتفت بالنظرة المشفقة المصدومة:» كنت سأتخلَّى عن كلِّ شيءٍ من أجله لو أعطاني بعض الأمل، على الرغم من أنَّني أجهل كيف سيتصرَّف فيما بعد، حتَّى لو كانت قناعتي أنَّه سوف يتناساني بعد ذلك».

أكمل حديثه: أنا رجلٌ مسكونٌ بالماضي، وفلسفة الموت تحيِّرني، يبدو أنَّ الجسدَ عندما يشيخ تبدأ الروح بالتذمُّر، فهي

نشيطةٌ لذلك تهرب من ذلك الجسدِ فيموت،أمِّي هربت روحُها إلى مكانٍ آخر .. أبحث عنه دومـًا، أمَّا جسدُها فقد أوهنه الفِراق والفقد، ولكنِّي رجلٌ لا أنحني للظروف، وتأكَّدي من أنَّك في حياتي نسيًا منسيًّا.

لم تستطعْ هياء أنْ تردَّ عليه، أمسكت بحقيبة يدها واتَّجهت للباب، لحق بها جمال بدون أيِّ كلام، ودَّعته عند الباب الخارجي، أخذت الرصيف ومشت قليـلًا، وبعد لحظاتٍ لا تعرف ما الذي دفعها للالتفات ثانيةً للخلف، فإذا بجمال واقفٌ أمام الباب يراقبها.

« كان وداعـًا مطمئنًا بيننا يبدو أنَّ الإنسانَ ابتكر الوداع من أجل أنْ يعيشَ الحزن».

حلمت كثيراً بأخٍ أو أختٍ لي؛ فالوحدة وصمت المنازل لا يمحوهما إلَّا إخوةٌ محبُّون، ربَّما لأنِّي أحببت أمِّي وأحببت حياتها، أحببتها بطريقةٍ مختلفةٍ، لم تعشْ أمِّي مع والدي طويلًا، ولم ترغبْ برجل بعده فبقيت وحيدةً بعد فقدها والحمدلله أنَّها لم تعلمْ بزاوجه عليها، لم تمتلكْ أمِّي من الدنيا حتَّى منزلها الصغير الذي حفظ ماء وجهها عن السؤال ككلِّ النساء الوحيدات المكتظَّات بالفقد، أمِّي كانت رهانَ الحياة الخاسر، وأخي كان رهاني الأهوج، كنتُ أعتقد بأنَّه مثلُ تلك التحفة النادرة التي ليس لها بديلٌ، لماذا يرقد الموت دائمـًا بجوار علاقاتنا؟

ندوبٌ كثيرةٌ في قلبي شوَّهت مشاعري لا تنفع معها عمليَّات التجميل، يبدو أنَّ الشاعرَ (غوته) كان على حقٍّ عندما قال:

روحُ الإنسان تُشبه الماءَ، يأتي من السماء،
ويصعد إلى السماء، ثمَّ يعود من جديدٍ إلى الأرض،
على نحوٍ مغايرٍ دوماً.

وهكذا تمشي الأيَّام وتنقضي وأنا خاسرةٌ .. أخسر كلَّ شيءٍ.
هل حلَّت علينا أنا وعائلتي لعنةٌ واحدةٌ .. أم لعناتٌ ؟